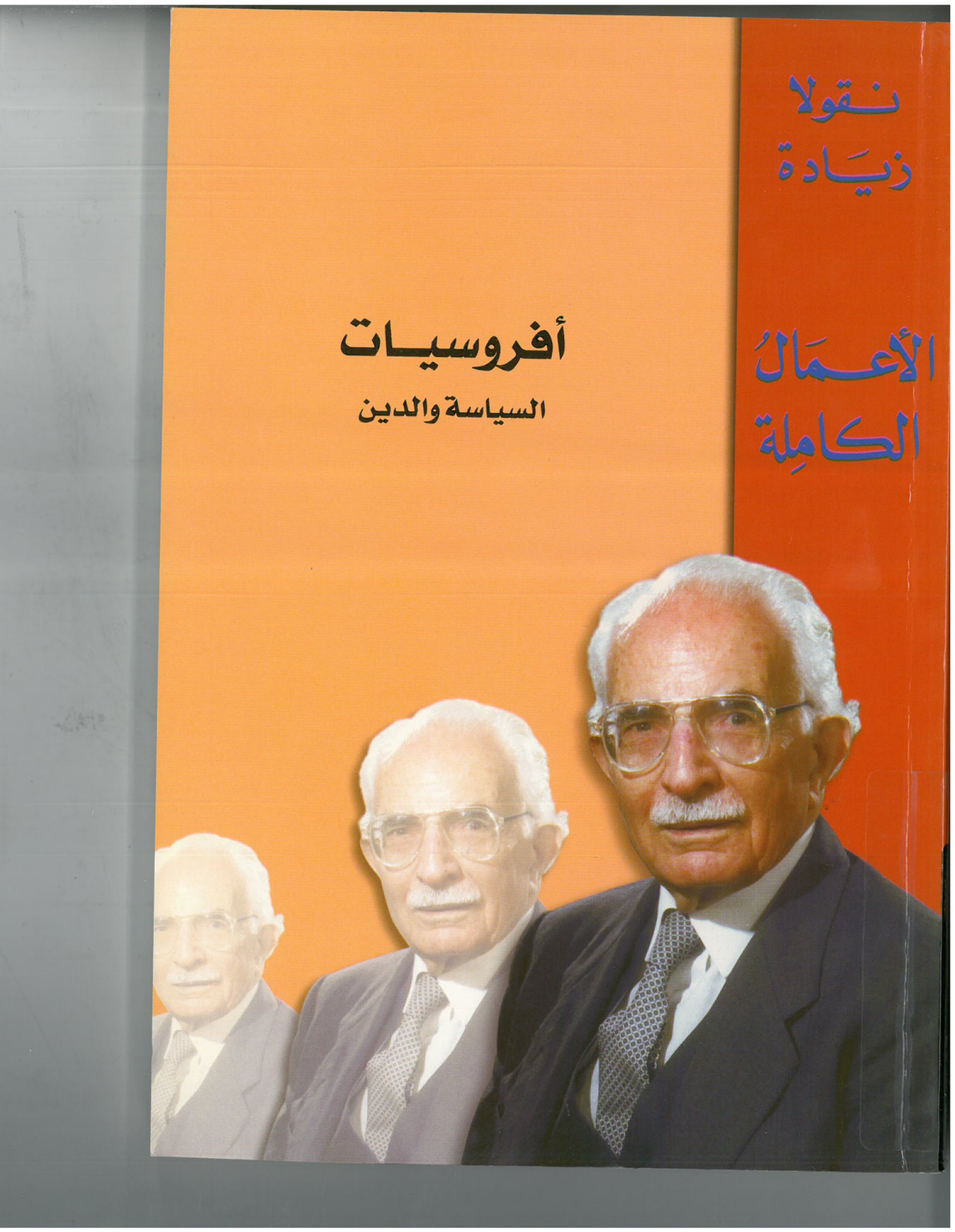


نقولا زيادة
الأعمالُ الكامِلة
أفروسيات
السياسة والدين

نقولا زيادة

الأعمال الكاملة

أفروسيات

السياسة والدين

من غرب افريقية الى آسية الوسطى

الاهلية للنشر والتوزيع

إصدار: **الأهلية للنشر والتوزيع**
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

المحتويات

القسم الأول

الاسلام في غرب افريقيا
حتى القرن السادس عشر

١ ـ من المحيط الاطلسي الى بحر الرمال

المنطقة التي ننوي التحدث عن الاسلام فيها تمتد من خط العرض الشمالي الثامن عشر [١٨ْ] الى مصب نهر الكونغو شمالاً في جنوب، ومن خط العرض الشرقي الثامن عشر [١٨ْ شرقاً] الى المحيط الاطلسي. والذي نود ان نعرض له في هذه المقالات هو، بعد تحديد المنطقة، انتشار الاسلام، والدول التي قامت في المنطقة حتى القرن السادس عشر، وتجارة هذه المنطقة عبر الصحراء الكبرى ومراكز العلم التي عرفتها.

تقع هذه المنطقة ـ غرب افريقيا، جنوبي الصحراء الكبرى. ولأن جغرافيي العرب القدامى تصوروا الصحراء بحراً من الرمال، فقد أطلقوا على الاجزاء من غرب افريقيا المصاقبة للصحراء اسم الساحل. ويلي منطقة الساحل، وهي تشمل سهولاً واسعة من نوع السفانا، الغابات المدارية. وبسبب هذا التنوع في الارض والموقع، ولأن الغابات المدارية تسقط فيها أمطار غزيرة، فقد قسّم الجغرافيون المحدثون افريقيا الغربية الى مناطق متعددة، تكاد تشبه الشرائح الممتدة من الغرب الى الشرق.

والمسافر من الشمال الى الجنوب في هذه المنطقة يلاحظ تعدد هذه الشرائح الجغرافية، التي تختلف فيها التربة من الجهة الواحدة وسقوط الامطار من الجهة الأخرى. ففيما يكون معدل سقوط الامطار في جنوب الصحراء دون ٢٥ سنتمتراً، نجد أن معدل سقوط الامطار في دلتا نهر النيجر وفي غينيا الغربية يزيد على عشرة أضعاف هذا الرقم.

الا أننا في معالجتنا لموضوع الاسلام وانتشاره لن ندخل في التفاصيل الدقيقة للنواحي الجغرافية، بل اننا نكتفي بالنظر الى المنطقة بأكملها كما لو كانت شريحتين كبيرتين ـ الواحدة السهول الفسيحة في الشمال (وهي تقع الى جنوب الصحراء)، والثانية الغابات والسواحل الممتدة على شواطىء المحيط الاطلسي. على ان هذه الشريحة الثانية تنقسم الى قسمين بسبب وجود أراض صالحة للرعي تقطعها من الشمال الى الجنوب بين غانا الحديثة ونيجيريا الحالية.

والغالب على منطقة الغابات أنها تصلح لإنتاج عدد من الغلات الزراعية، لكنها لا تصلح لتربية الأبقار، فيما تتيح السهول الشمالية المجال لتربية الابقار، لكنها لا تمكن لجوز الكولا من النمو فيها. وثمة ذبابة، هي المسماة تسي ـ تسي، وهي مواطنة قديمة

في غرب افريقيا، قد قلصت المساحات التي يمكن ان تربى فيها الخيول والابقار في مناطق الغابات، ومن ثم عوقت استعمال المحراث، الذي يحتاج الى الثيران لجره.

وهذه الفروق الطبيعية ـ المناخية والذبابية ـ جعلت انماط الحياة، حتى في المنطقة الواحدة الواسعة، متعددة ومتنوعة: من حيث اعتماد السكان على طريقة معينة من المعيشة، ومن حيث مقدرتهم على تنويع انتاجهم.

ومع أننا لا نود ان نتابع تاريخ السكان الاولين، الا أننا لا بد ان نشير الى ان سكان تلك المناطق كانوا متأخرين زمنياً في تسلقهم سلم الحضارة عن ابناء المشرق العربي مثلاً. فالعصور الحجرية، بأشكالها المختلفة، والعصر البرونزي انتهت في هذه الرقعة من العالم حول سنة ١٢٠٠ ق.م، وبدأ ما يعرف باسم العصر الحديدي. أما في غرب افريقيا فلم يبدأ العصر الحديدي إلا حول سنة ٣٠٠ ق.م. اي ان الفرق الزمني/ الحضاري هو نحو ألف سنة!

هذا يقودنا الى التحدث عن الصحراء الكبرى. فهذه الارض الرملية الشاسعة، التي تمتد من شواطىء البحر الاحمر الى شواطىء المحيط الاطلسي، أخذت تظهر بشكلها الحالي قبل نحو ستة آلاف من السنين. أما قبل ذلك فقد كانت أرضاً تخترقها الانهار الكثيرة التي تتجمع في نصفيها الشرقي، فتصب في النيل، وفي شقها الغربي، فتفرغ ماءها في النيجر. وكانت فيها بحيرات كثيرة كبيرة، فضلا عن تجمعات متعددة للمياه كانت تنتشر في أنحائها.

وقد ثبت ذلك للعلماء من دراساتهم لقيعان البحيرات ومجاري الانهار الجافة. وبحيرة تشاد، وهي الوحيدة التي لم تقض عوادي الايام عليها نهائياً بعد، تقلّص حجمها عما كانت عليه حتى قبل ثلاثة آلاف سنة او أقل. وقد جمع العلماء الذين تعقبوا هذه الامور، الكثير من الصور التي نقشها السكان الذين كانوا يعمرون الارض وهي تصلح للعيش والسكن. نقشها هؤلاء الناس على الصخور، وفيها صور لحيوانات لا يمكن ان تعيش في الصحاري. ولعل أهم مجمّوعة من هذه الصور المنقوشة، تلك التي عثر عليها في تسيلي في وسط الصحراء.

وقد اتضح للباحثين ان التنقل في تلك الارض، قبل ان تقحل وتتصحر، كان يتم في مركبات تجرها الخيول. وقد عثر على آثار طريق من هذا النوع يمتد من شمال المغرب عبر موريتانيا الحالية ثم ينحرف غرباً حتى يصل الاسواق التي كانت تقوم في أواسط نهر النيجر، وهناك آثار طريق آخر يبدأ من ليبيا ويمر، في اتجاهه جنوباً، عبر جبال احجار (الحجر) الى الاسواق نفسها التي كان ينتهي عندها الطريق الاول.

كان من الطبيعي، وقد زالت البحيرات وانقطعت الانهار عن الجري لجفاف الينابيع، وأخذت القحولة والجفاف يؤثران على أهلها وسكانها، أن يأخذ هؤلاء بالهجرة. فانحدر البعض نحو الشمال، واتجه فريق آخر نحو الجنوب. والذين استقروا

في الشمال الافريقي اتصلوا بشعوب حوض البحر المتوسط، ونقلوا عن المشارقة عناصر حضارية، لعل أهمها وأبينها أثراً كانت تلك التي حملها الفينيقيون من القرن العاشر فما بعد، والتي نقلها اليونان لما بدأوا يقيمون لهم مستوطنات في سواحل افريقيا الشمالية. فهذان الشعبان قويا ما كان قد بدأه سكان الشمال الافريقي من اهتمام بالأرض، وما أنشأوه من صناعة. فضلاً عن ذلك فقد كان ثمة تمازج عنصري مع سكان نزحوا من اوروبا بسبب العصر الجليدي. وهكذا، فقد سار هؤلاء مع ركب الحضارة وفيه.

أما اولئك الذين استقروا في الجنوب ـ جنوبي الارض المتجهة نحو الصحراء ـ فقد كان الخط الوحيد الذي يصلهم بشيء من النشاط الحضاري الشمالي هو وادي النيل. ومن ثم، فما انتقل عبر هذا الطريق أثر في الجماعات المحيطة بالنيل وواديه سكناً وإقامة. على أن المتعارف عليه عند الباحثين هو ان هذا الطريق هو الذي سلكه القوم الذين انحدروا من جنوب الوادي، او حتى من منطقة البحيرات الاستوائية، الى مصر.

وإذا نحن تذكرنا ان سكان شمال وادي النيل، لما تكاثر عددهم، اضطروا الى مواجهة التحدي ـ أي الحاجة الى انتاج كمية أكبر من المواد الغذائية وغيرها ـ استجابوا له، فعملوا على استغلال الارض بتنظيم ريها من ماء النيل. ولما تحكموا في موارد الرزق وضبطوها وتقدموا في الصناعات اللازمة للمدينة والمجتمع المستقر، بدأت الحضارة تتقدم عندهم منذ أوائل الالف الرابع قبل الميلاد.

أما في الاجزاء الواقعة جنوبي الصحراء، فقد كانت الارض خصبة كريمة، فإذا ضؤل حظهم من الرزق في مكان انتقلوا الى سواه. ولم يزد عدد السكان، اذ لم يكن ثمة مجال للاختلاط بأقوام آخرين. ومن ثم، فقد تأخرت الحضارة في وصولها اليهم، وتلكأت في التقدم على أيديهم، بل لعله يمكن القول بأنهم ظلوا يعيشون حياة هي الى البداوة أقرب، وإن لم تكن بداوة تامة.

على ان بعض الفئات التي أتيح لها ان تستقر في مناطق معينة، اهتدت الى اشياء نافعة زادت في مقدرتها على الحياة والسير الى الأمام، وأهمها الزراعة. ويرى بعض الباحثين ان سكان أواسط مجرى نهر النيجر مثلاً دجنوا أصنافاً من الرز الافريقي حوالى ١٥٠٠ ق.م. وهي أصناف تختلف عن أصناف الرز الآسيوي التي وصلت فيما بعد. ومن هذا المكان انتشرت زراعة الرز الافريقي الى السواحل الغربية في سينغمبيا.

وهذه المناطق التي طورت الزراعة وأخذت تنتج كميات كبيرة من المواد الغذائية، هي التي ازداد عدد السكان فيها. فنشأت بسبب ذلك مستوطنات مستقرة أكبر حجماً وأكثر عدداً، وأخذ السكان بالتخصص في الاعمال ـ من انتاج الأدوات اللازمة للزراعة

الى بناء البيوت. وهكذا أخذت العناصر الحضارية تستقر، ولو ان ذلك لم يقض على البداوة او شبه البداوة نهائياً.

أقدم حضارة عرفتها المنطقة، والتي كان عمادها استغلال الحديد والانتفاع به وصنع الادوات الفخارية، تلك المسماة «حضارة نوك» نسبة الى قرية نوك في أواسط نيجيريا. والمهم ان الاهتداء الى الحديد والافادة منه مكنا أهله من صنع الاسلحة. وهنا تبدأ عمليات التسلط والتوسع، التي سنراها تنتهي ـ بعد مدة طبعاً ـ الى اقامة دول او دويلات، ثم تقوم من بينها واحدة تتقوى بعددها وعدتها فتنشىء امبراطورية واسعة. وأكثر ما كان يحدث هذا عندما كانت الدولة تعتمد التجارة الخارجية أساساً للثروة والقوة. فبقدر ما كانت التجارة تمنح الدولة ثروة كبيرة، بقدر ما كانت هذه الثروة تقوي الدولة المركزية وتؤدي الى تقدم في مجال الحضارة.

وهذه التجارة عبر الصحراء كانت لها أهمية ايام كان الفينيقيون يعمرون موانىء الشمال الافريقي، ثم لما قامت قرطاجة حول سنة ٨٠٠ ق.م.، ولما أنشأ اليونان مستوطناتهم، كان ذهب الجنوب هو السلعة الرئيسة المحمولة الى الشمال، وقد يضاف اليها أحياناً الاخشاب والريش والعاج. أمّا ما كان يحمل الى الجنوب، الى أصحاب الذهب، فهو أصلاً ـ الملح ـ من اوليل (على الساحل) ومن تغازى (في شمال الصحراء الكبرى). على ان بعض الاقمشة والمصنوعات المعدنية كانت تضاف أحياناً الى السلع التجارية.

ضعفت هذه التجارة أيام الرومان، ثم عاد اليها نشاطها في القرن السادس ومطلع القرن السابع للميلاد.

وكان البربر هم الذين ينقلون المتاجر في الاتجاهين. ومن هنا كان من الضروري ان تكون العلاقات بين دول الجنوب وبين البربر جيدة. ومما كان يفيد ذلك هو حاجة كل فريق الى الآخر لتيسير أمور النقل والسفر.

ونحن إذا أمعنا النظر في خارطة ديموغرافية حضارية للمنطقة الواقعة جنوبي الصحراء، وجدنا ان أموراً معينة قد اتخذت شكلاً واضحاً حتى في أواسط القرن الثامن للميلاد.

١ ـ كانت جماعات متحضرة مستقرة قد أخذت تظهر في منطقة «الساحل». وكان محور حياتها يدور حول الزراعة وشيء لا يستهان به من التعدين والصناعة. ومن هذه دولة «واغادو»، التي كان البربر يسمونها اوكار. ولعل هذه التسمية مأخوذة من اسم مركزها الاداري او عاصمتها كما نقول اليوم. وفي هذه الربوع قامت دولة غانا القديمة. وكلمة غانا كانت، على ما يبدو، لقب ملكها، فأطلق ذلك اسماً للمملكة. وقد ذكر الفزاري (أواخر القرن الثامن للميلاد) اسمها وأطلق عليها اسم «أرض الذهب». ومعنى هذا ان البلاد او الدولة كانت موجودة قبل ان يصل خبرها الى المؤلف العربي.

٢ ـ وعلى نحو ما حدث في منطقة غانا، اي بين مجرى النيجر الاوسط ونهر السنغال، قامت جماعة أخرى في أرض التكرور وأخرى في منطقة فوتا تورو، وكلتاهما تحيط بنهر السنغال.

٣ ـ الى الشرق من هاتين الدويلتين نشأت تجمعات حضارية عند شعوب السونينكين والفورما وسنغاي (صنغاي).

٤ ـ كانت لهذه التجمعات حضارتها، لكنها كانت جزءاً مما يمكن ان يسمى حضارة افريقيا جنوبي الصحراء.

هذه هي المنطقة التي سنوليها عنايتنا بالنسبة لانتشار الاسلام فيها وتطورها معه.

وختاماً لهذا الحديث، ورغبة منا في ان يتابعنا القارىء، نأمل ان يتناول اطلساً فيه خارطة لإفريقيا، ويطل على المنطقة كما تبدو اليوم من حيث توزيعها السياسي، فيرى ان الاجزاء التي نتحدث عنها تشمل: الجزء الجنوبي من جمهورية موريتانيا الاسلامية ونحو ثلثي مالي ودول السنغال وغامبيا وغينة وغينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج وغانا وتوغو وبنين (داهومي الى قبل بضع سنوات) ونيجيريا والكامرون وغينيا الاستوائية وغابون والكونغو. وجميع هذه (باستثناء مالي) تقع في ساحل المحيط الاطلسي. وهناك دولتان أخريان داخليتان هما فولتا العليا والنيجر (اكثرها) تقعان في غرب افريقيا.

٢ ـ الدول الاولى في غرب افريقيا

يجدر بنا ان نذكر، بادئًا ذي بدء، ان انتشار الاسلام في افريقية تم بأساليب مختلفة. وتعود المرحلة الاولى الى أيام الفتوح العربية للشمال الافريقي. وكان هذا الانتشار سريعاً الى درجة كبيرة، وذلك بسبب استقرار العرب والمسلمين في الاجزاء الخصبة من البلاد. والمرحلة الثانية مرتبطة بقيام المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧م) وذلك انهم وطدوا للاسلام وجوده في الاجزاء التي استولوا عليها من الصحراء الكبرى، ونشروه في غانا لما احتلوا اوداغشت وعاصمة غانا في القرن الخامس/ الحادي عشر. وجاءت المرحلة الثالثة بعيد ذلك بقليل. فانتشار الاسلام كان متزامناً في مراحله الثلاث، مع تباعد المناطق. وميزة المرحلة هذه ان نشر الاسلام في افريقية الواقعة جنوبي الصحراء الكبرى يعود الى التاجر المسلم، الذي كان يجتاز الصحراء الى السهوب والسهول وبعض مناطق الغابات، حاملاً متاجره الى تلك الجهات، وعائداً بما عند سكانها من سلع. هذا التاجر، كان أميناً في تصرفه وحكمته، فكان أن حمل الكثيرين على اعتناق الاسلام. أما الدولة فلم يكن شأوها دوماً كبيراً.

وإذا نحن عدنا الى المنطقة المذكورة وجدنا ان ملك تكرور المسمى «وارجابي» والمتوفى سنة ٤٣٢/ ١٠٤٠، اعتنق الاسلام، وعلى يديه أسلمت قبيلة تكرور اتباعاً له. وتبعتها سيلا (سيلي) في ذلك.

ولما قامت دولة المرابطين وفتحت اوداغشت (٤٤٦/ ١٠٥٤) وغانا العاصمة (٤٦٩/ ١٠٧٦) نشرت الاسلام بين سكان دولة غانا.

وتأثر برمندانا، مؤسس دولة مالي في القرن الخامس/ الحادي عشر، واعتنق الاسلام. ويرجح ان ذلك كان بتأثير التجار المسلمين الكثر. وهكذا كان الاسلام دين الحاكم، لكنه لم يكن دين الشعب عامة، بل ان فئة صغيرة نسبياً كانت مسلمة حتى بعد أيام برمندانا بفترة طويلة. ومثل ذلك يقال عن «زاكوسي» من اسرة «زا» الحاكمة في قبائل سنغاي (صنغاي) الذي تأثر بتصرف التجار المسلمين فاعتنق الاسلام بين سنتي ٤٧١ و٤٧٥ هـ/ ١٠٧٨ و١٠٨٢ م.

بعد هذه اللمحة الخاطفة عن مرحلة انتشار الاسلام في السودان الغربي من غرب افريقيا، ننتقل الى التحدث عن الدول التي قامت في تلك الديار تمهيداً للحديث

عن تجارة الصحراء وشعوب المنطقة ومراكز العلم ومعاهده في منطقتي السهوب خصوصاً وما اليها عموماً.

التكرور

في أقصى الغرب من منطقتنا، وعلى جانبي نهر السنغال، قامت مجموعة من الدويلات، كانت تختلف قوة واتساعاً باختلاف حكامها وتلاحم شعوبها او تنافر قبائلها. وقد زودنا البكري، في كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب»، بمعلومات عن هذه المنطقة ومدنها ودويلاتها، رأينا ان ننقلها للقراء بكاملها. قال البكري: «المصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة (من البربر) هم آخر الاسلام خطة، وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة، بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام. ومدينة صنغانة ومدينتان على ضفتي النيل (نهر السنغال هو المقصود). وعمارتها متصل الى البحر المحيط ويلي مدينة صنغانة بين المغرب والقبلة (النسبة الى المكان يصبح معنى القبلة الشرق) على النيل (السنغال) مدينة تكرور. أهلها سودان. وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدّكاكير، والدّكور عندهم الصنم، حتى أسلم وليهم وارجابي بن باريس وأقام عندهم شرائع الاسلام وحملهم عليها وحقق بصايرهم فيها. وتوفي وارجابي بين اثنتين وثلاثين وأربع ماية. فأهل تكرور اليوم (حول سنة ١٠٦٧) مسلمون.

«وتسير من مدينة تكرور الى مدينة سلّي (سلا) وهما مدينتان على شاطىء النيل (السنغال) أيضاً وأهلهما مسلمون، أسلموا على يد وارجابي رحمه الله. وبين سلّي ومدينة غانة مسيرة عشرين يوماً في عمارة السودان، القبيلة بعد القبيلة. وملك سلّي يحارب كفارهم وليس بينه وبين اولهم إلا مسيرة يوم واحد. وهم أهل مدينة قلنبو، وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة. وتتبايع أهل سلي بالذرة والملح وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن يسمونها الشكيات (الشقيات). والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضان ولا معز. وأكثر نبات أرضهم الابنوس ومنه يحتطبون».

حريٌّ بنا ان نذكر ان الاشارة الى مدينة ما، معناها الاشارة الى بلاد تدور في فلك تلك المدينة ادارة وتنظيمياً واقتصادياً. وهذا يعني التجارة بشكل خاص. اذ ان مقدرة أي زعيم او حاكم لمدينة وما يحيط بها تتوقف على ما يصل الى منطقته من تجارة وتجار.

وعندما ننظر الى دولة التكرور من وجهة النظر الاسلامية، نجد انها كانت الابرز بين هذه الدول المتعددة التي عرفت في تلك المنطقة. ولعل الذين انشأوا الدولة بالذات (حوالى منتصف القرن التاسع الميلادي) كانوا غرباء عن المنطقة. الا ان هذه الاسرة قضي عليها حوالى سنة ٩٨٠ م على يد دويلة كانت بلادها تقع بين التكرور وغانة. ويخبرنا البكري بأن هذه الاسرة الحاكمة ـ منّا ـ كانت أول أسرة سودانية تعتنق

الاسلام. وقد انتشر الاسلام في ربوعهم قبل ان يعلن عبدالله بن ياسين، الأب الروحي للمرابطين، الجهاد في تلك الجهات. وقد اتحدت هذه الاسرة مع المرابطين، وهم صنهاجيو الاصل، دفعاً لأذى غانا.

أعان لبي بن وارجابي المرابطين في حملته على غدالة. وتقلب الأمر على التكرور حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها. الا ان سودانيّي التكرور، الذين كانوا نتيجة اختلاط عناصر اثنية مختلفة، كان تأثيرهم أكبر بكثير من عددهم وتقلب أحوالهم السياسية. الا ان اقتباس البدو الغلبيين للغة التكرور أدى الى انتشارها من شواطىء الاطلسي الى دارفور. فضلاً عن ذلك، فقد كانوا دعاة لنشر الاسلام بين جماعات مختلفة في المنطقة التي عرفت لغتهم وقبستها. وأعانهم على ذلك كونهم أول من اعتنق الاسلام من سكان السودان الاصليين.

مملكة غانا

قامت هذه الدولة في منطقة «الساحل» بين الحوض الاعلى لنهر السنغال ومجرى النيجر الأعلى. ومن المرجح ان اسمها القديم هو واغنده. وهذه النواة يعود قيامها الى القرن الخامس للميلاد، ان لم يكن حتى قبل ذلك. ولأن سكانها كانوا يسيطرون على طريق تجاري يصل بين الشمال بمناجم الذهب، فقد أثرت وقويت وتوسعت إذ فرضت سلطانها على دويلات مجاورة كانت أضعف منها. والذي عليه الباحثون هو ان غانة أصبحت حوالى سنة ٨٠٠، تحكمها أسرة قوية بسطت نفوذها على رقعة واسعة خاصة نحو الشمال الى تيشت، وذلك للسيطرة على المراكز التجارية الموصلة الى الشمال. وفي أواخر القرن الرابع/ العاشر فتحت اوداغشت، وهي واحد من أكبر المراكز التجارية وأغناها، كي تتم سيطرتها على الطرق الآتية من نحو الشمال الافريقي. وقد وصف الجغرافي ابن حوقل هذه المدينة، التي زارها سنة ٣٤٠/ ٩٥١، بقوله: «هي مدينة لطيفة... ومن اوداغشت الى غانة بضعة عشر يوماً... وملك اوداغشت يخالط ملك غانة، وغانة أيسر من على وجه الارض من ملوكها، بما لديه من الأموال المدخرة من التبر... وحاجتهم (أهل غانة) الى ملك اوداغشت ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام، فإنه لا قوام لهم إلا به. وربما بلغ حمل الملح في دواخل بلاد السودان ما بين مائتين الى ثلاثمئة دينار».

كانت غانة تجمع في أسواقها القائمة في مدنها المتعددة، الذهب والرقيق والعاج وخشب الابنوس وهذه محمولة من بلاد السودان، ليتبادلها التجار الشماليون بما يحملون من الملح والنحاس واللؤلؤ الازرق والجلود والتمر والاقمشة. أما اهتمام ملك غانة باوداغشت فيعود، فضلاً عن موقعها، الى ثروات تجارها التي كانت ضخمة. فقد روى ابن حوقل انه لما دخل اوداغشت رأى فيها «صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجارها وهو من أهل بحلماسة باثنين وأربعين ألف دينار».

كان قيام دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧) ايذاناً بوجود قوة جديدة تزاحم غانة. وكان ان احتلت الدولة الجديدة اوداغشت ثم عاصمة غانة (٤٤٦/ ١٠٥٤ و٤٦٩/ ١٠٧٦ على التوالي) وفرض المرابطون الاسلام على البلاد المفتوحة. وكان هذا بدء الضعف الذي منيت به غانة. ومع ان غانة عادت واستعادت استقلالها، فإنها لم تتمكن من الوقوف أمام القوى الجديدة التي أخذت تقضم اجزاء منها الواحد بعد الآخر. ففي سنة ٦٠٠/ ١٢٠٣ احتل أحد زعماء الفولاني عاصمتها كومبي صالح. ثم احتل حكام مالي، وهي خليفة غانة، البلاد فكان في هذا نهايتها سنة ٦٣٨/ ١٢٤٠.

كان لملوك غانة فضل في وضع بعض التنظيمات التي انتقلت الى خليفتها مالي وإلى جارة الاثنتين وخليفتهما سنغاي، فضلاً عن ممالك سودانية أخرى. فقد فرض ملوك غانة رسوماً معينة على السلع التي تدخل البلاد، وهذه رسوم جمركية على حد تعبيرنا اليوم. وفي بعض الحالات فرضوا رسوماً على ما يخرج من البلاد، وغالباً ما كانت هذه سلع مرور (ترانزيت). فكل حمل حمار من النحاس كان يدفع عنه خمسة مثاقيل من الذهب، أما السلع الأخرى فكان الرسم عليها قد يصل الى عشرة مثاقيل لحمل الحمار الواحد. وقد كان الملح سلعة خاصة. ومن ثم فقد كان الرسم على حمل الحمار الواحد الداخل الى البلاد ديناراً واحداً من الذهب، فإذا أخرج الملح من غانا دفع عن كل حمل ديناران من الذهب.

كان ملك غانا يعتبر الذهب الذي يعثر عليه كتلاً هو ملكًا للامبراطور، ولا يجوز الاتجار به. والتبر هو الذهب الذي يباع للتجار. وقد فسر البكري ذلك، نقلاً عن رواة الاخبار، بقوله: لو لم يفعل الملك ذلك، لكثر الذهب في السوق وفقد قيمته.

امبراطورية مالي

تعرف هذه أيضاً باسم مليل، وقد كانت نواة هذه الدولة كانغابة (أو كابا) في حوض النيجر الاعلى. ودولة مالي التي خلفت غانة تقع الى الجنوب من هذه. وبذلك يكون مركز السلطة قد انتقل جنوباً. والسبب في ذلك هو ان مناطق الحصول على الذهب تبدلت. فقد كان الذهب يحمل الى غانة وأسواقها من كجبوك. أما في حالة أسواق مالي، وخصوصاً العاصمة، فقد حمل الذهب من بوره (وتسمى ونغره أيضاً). اذن، فمن الطبيعي ان تتبدل مراكز الاسواق. فضلاً عن ذلك، فإن بوره كانت أغنى من بمبوك بنحو ثمانية أضعاف.

وقد توصل الباحثون الى ان أسرة كياتا، وهي التي أنشأت دولة مالي ثم وسعتها ووطدت أركانها، بدأت العمل في القرن التاسع للميلاد. وخلال قرن من الزمان كانت قد استقرت أمورها.

وكان أحد ملوك مالي في أواسط القرن الخامس/ الحادي عشر برمندانا، وهذا اعتنق الاسلام، ومن ذلك الوقت أصبح البيت المالك في مالي يدين بالاسلام.

أدى برمندانا فريضة الحج، ولعله أول ملك افريقي سوداني قام بذلك. وقد مرت امبراطورية مالي بأدوار ثلاثة في تاريخها: الاول هو دور التأسيس، ويمتد، على وجه التقريب، من سنة ١٢٣٥ الى سنة ١٢٦٠ م. وصاحب الدور الاول فيه ساندياتا (او ماري - جاطا) الذي حكم من ٦٢٨ الى ٦٥٣/ ١٢٣٠ - ١٢٥٥. وإليه يعود الفضل في القضاء على سمنغورا الذي كان قد ثار على سيده ملك غانا واغتصب الحكم ولقب نفسه ملك سوسو (واحدة من الامارات التابعة لغانا)، كما انه ناصب ملك مالي العداء. ويقع الدور الثاني عند منقلب القرن الثالث عشر، ويمتد عقداً من الزمان. وكان ملك مالي يومها سكورو (او سكورا). وقد حكم هذا المغتصب للعرش بين سنة ١٢٩٨ و١٣٠٨ تقريباً، وأصبحت مالي في أيامه عنوان القوة والسلطان، بحيث ان جميع الدول السودانية كانت ترهب جانبها، كما ان تجار المغرب كانوا يترددون عى أسواق مالي بالذات. ويمثل الدور الثالث الملكان منسي موسى ومنسي سليمان، وقد حكما من مطلع القرن الرابع عشر حتى أواسطه. ووسع منسي موسى ومنسي سليمان حدود الامبراطورية واستعادا غاو بعدانفصالها. وفي سنة ٧٢٤/ ١٣٢٤ قام منسي موسى بأداء فريضة الحج، وقد كانت هذه الرحلة خير وسيلة دعائية اعلانية لمالي. وبذلك فتح أبواب مالي أمام التجار من مصر وقوى الاتصال التجاري مع الغرب.

كانت عاصمة مالي نياني. على أن بعض المصادر يشير اليها باسم مالي، وقد أسماها ابن بطوطة ملي. وعلى كل، فمما يجدر ذكره ان العاصمة كانت تنتقل مع الملك، فحيث يقيم، وخصوصاً عندما تطول الاقامة، تكون حاشيته وبطانته، وهم رجال الادارة الاصليون الى جانبه، وعلى الراجح تكون أمواله أيضاً قريبة منه. وهذا هو الذي يجعل مكاناً ما - مدينة او حصناً أو مضارب جند - عاصمة الدولة.

ظلت امبراطورية مالي قوية، ان لم تكن أقوى دولة ظهرت في تلك الربوع الى ذلك الوقت، حتى حوالى سنة ٨٠٠/ ١٤٠٠. وبعد ذلك أخذت تعاني ضعف أولي الامر، وتفكك الامارات داخلياً، وهجمات البربر من الصحراء.

ومع ان تجار مالي ظلوا يتنقلون من العاصمة وولاته وتمبكتو وجني الى الاسواق القريبة والنائية، فإن نفوذ مالي وقوتها العسكرية فقدا قيمتهما.

وجاءت الضربة القاضية لهذه الدولة الكبيرة على يد سني (سن) علي، منشىء امبراطورية سنغاي (صنغاي) الذي احتل جني وتمبكتو (١٤٦٨ و١٤٧٠ م). وكان هذا ايذاناً بزوال الامبراطورية السودانية الكبيرة الاولى.

امبراطورية سنغاي (صنغاي)

كانت المساكن الاصلية لقبائل سنغاي على مقربة من الغابات الاستوائية. وفي القرن السابع الميلادي كانت قد امتدت مساكنها حول النيجر الاوسط. وكانت جماعات تعنى بالزراعة فتنتج الدخن وحبوباً أخرى، كما انها كانت تفيد من الثروة

السمكية التي في نهر النيجر. وقد تمكنت احدى هذه القبائل التي كانت غونغيا قاعدة لها، ان توحد جاراتها تحت أمرتها.

ورد اسم كاوكاو عند جغرافيي العرب، ولعل غونغيا وكاكاو شيء واحد. وعلى كل، فقد كانت في جوار هذه المدينة سوق كبيرة كان تجارها على صلة وثيقة بتجار الشمال الافريقي ومصر وكانم. وكانت الفئة النافذة في المدينة مسلمة، وهذا الامر شبيه بما كانت عليه الحال في غانا ومالي من قبل. ذلك ان هذه الطبقة او الفئة كانت تتكون من التجار الآتين أصلاً من الاصقاع المذكورة. وقد ورد أن اسم الاسرة الحاكمة في كاوكاو هو أسرة «زا». وهذه اعتنق أحد ملوكها الاسلام بين سنتي ٤٧١ و٤٧٥/ ١٠٧٨ و١٠٨٢.

ويرى بعض الباحثين ان الاسلام كان أوسع انتشاراً هنا منه في غانا ومالي، بدليل وجود مقبرة متسعة في قرية سانه، على مقربة من مدينة غاو، تعود الى القرن الخامس/ الحادي عشر.

وكانت غاو هذه مدينة تجارية كبرى لها حكومتها وأسواقها حتى قبل سنة ١٠٠٠ م. ولما اعتنق «زا كوسى» الاسلام، نقل العاصمة الى غاو. وظلت أسرة «زا» صاحبة الامر في سنغاي الى أوائل القرن الثامن/ الرابع عشر، حين خلفتها في الحكم أسرة سني (او سن). وقد استمر حكم هذه الاسرة قرناً ونصف القرن تقريباً. وفي القرن التاسع/ الخامس عشر أخذت هذه الاسرة توسع حدودها على حساب مملكة مالي، التي كانت أحوالها قد أخذت بالضعف.

وقيام امبراطورية سنغاي هو من صنع سني (او سن) علي الكبير (١٤٦٤ - ١٤٩٢)، الذي احتل تمبكتو وجني، فأصبحت دولته تسيطر على حوض النيجر الاوسط عند انحنائه الكبير، وبذلك استقطبت الكثيرين من التجار.

كانت أسرة سني (او سن) متحدرة من جماعة هاجرت من الشمال، ولعلها جاءت أصلاً من ليبيا. لكن سنة ١٤٩٣ توفي الحاكم محمد اسقيا (او اسكيا) الكبير، فكان معنى هذا قيام أسرة جديدة سودانية الاصل. وقد امتد حكم هذا الملك خمساً وثلاثين سنة، وسع فيها حدود الامبراطورية بحيث امتدت الى المحيط الاطلسي غرباً والى اغادس وكانو شرقاً. وتوغلت قواته في الصحراء شمالاً. وما لم يحتله محمد اسقيا الكبير فتحه اسقيا داود في النصف الثاني من القرن العاشر/ السادس عشر. وقد أدى محمد اسقيا فريضة الحج سنة ٩٠٢/ ١٤٩٥ - ١٤٩٦.

في سنة ١٠٠٠/ ١٥٩١ أرسل المنصور الذهبي سلطان المغرب (٩٨٦ - ١٠١٢/ ١٥٧٨ - ١٦٠٣) حملة الى السودان الغربي قضت على دولة سنغاي.

كان لهذه الامبراطورية دور مهم في الحياة العلمية في تلك المنطقة. وسيكون لهذا محله في الاحاديث المقبلة.

٣ـ الدولة التابعة والدويلات الشتى

دويلات موسي: بين منحنى النيجر الكبير وشواطىء خليج غينيا تمتد رقعة من الارض يبلغ مداها من الشمال الى الجنوب قرابة ثمانمئة كيلومتر. هذه المنطقة تنقسم الى قسمين متميزين ـ سهوب ومراع في الشمال وغابات في الجنوب. وقد قامت فيها دويلات متعددة كانت قد بلغت أشدها لما قام سن علي ببناء دولة سنغاي، في أواخر القرن الخامس عشر. وقد كانت أقربها الى هذه الدولة الكبيرة تلك التي قامت بين أراضي جني وتمبكتو من جهة الشمال وبين غابات اسانتي وتوغو من الجهة الاخرى، أي الجنوبية.

لم تتمكن اي امبراطورية في أقصى قوتها واتساعها من ان تضم هذه الدويلات اليها، كما انها ظلت خارج نفوذ امبراطورية سنغاي، فحافظت على استقلالها حتى احتلها الفرنسيون في القرن التاسع عشر. بل ان الرواية التاريخية تحدثنا عن ان هذه الدويلات كانت مصدر خطر على الدول الكبرى التي قامت الى الشمال منها ـ غانا ومالي وسنغاي. وذلك بسبب غزواتها المتواصلة لأطراف الدول الكبرى، التي كانت غنية. وكانت الدويلات الموسِّية تعتمد فرق الفرسان السريعة في حملاتها وغزواتها. وقد أدركت هذه الدويلات، منذ حوالى سنة ١٤٥٠ أنه من الخير لها ان تقوم بدور الوسيط التجاري بين مدن النيجر ومناطق الغابات، بدل الهجوم المستمر عليها وعلى القوافل التجارية.

وكانت دويلات الموسّي خمساً في عددها، وجميعها يقع داخل الاراضي التي تشغلها اليوم دولة فولتا العليا وغانا. ومع ان البحث لم يهتد تماماً الى الاصول الاثنية لشعوب هذه الدويلات، فهناك من يرى انهم جاؤوا أصلاً من منطقة بحيرة تشاد. لكن هذه الهجرة لا بد انها حدثت في زمن موغل في القدم، لذلك فإن طبائع شعوب هذه الدويلات كانت قد تأقلمت حسب الأحوال الطبيعية السائدة في الموطن الجديد. وحري بالذكر أن شعوب هذه المنطقة لم يقبلوا الاسلام، بل ظلوا على وثنيتهم.

في أواسط غينيا: هذه المنطقة المكونة من الغابات الواقعة الى جنوب اسانتي، ومن ساحل غينيا، قامت فيها جماعات بشرية وانتظمت فيها الحياة بعد سنة ١٠٠٠ م.

وهذه المنطقة تملأها الغابات الكثيفة وتقوم فيها تلال صعبة المرتقى وشديدة المنحدر وأودية عميقة وأنهار متعددة، ويسقط فيها المطر الغزير. ومن ثم فإن

المشكلات التي واجهت سكان هذه المنطقة كانت تختلف كلياً عن المشكلات التي عرضت للآخرين.

وقد تصدى السكان هناك لسد حاجاتهم الغذائية بإتقان الزراعة في أعماق الغابات الكثيفة، ونفذوا الى الارض فاكتشفوا المعادن المطمورة فيها، واستخرجوها وصنعوا منها بعض حاجاتهم من الأدوات.

فوائد الاختلاط

أفادت شعوب هذه المنطقة من اختلاطهم بأهل السودان، فأنشأوا نظماً سياسية ادارية انتظمت اتحادات فيما بينها، وكثر تنقل الناس. وقد أخذت الشعوب تتجه نحو غانا وساحل العاج الحديثتين حول سنة ١٢٠٠ م، وهي شعوب الاكان، أجداد سكان هاتين الدولتين. ويبدو أنهم جاؤوا من مراعي السودان الغربي، ولعلهم تركوا بلادهم لما انهارت امبراطورية غانا، اذ لم يرضوا بالذي تلا ذلك، وهو قيام امبراطورية مالي. وكان تنقلهم يتجه نحو الجنوب مستعينين في تنقلهم بنهر فولتا.

بونو: كانت دولة بونو المكان الذي تركزت فيه تجارة الشعوب المذكورة مع امبراطوريات الشمال، ومن ثم مع الشمال الافريقي وحتى مع اوروبا. ويعود قيام هذه الدويلة الى أوائل القرن الخامس عشر، وكانت عاصمة الدولة بونو ـ مَنْسو. وقد أتيح لدولة بونو ان تضع دويلات أخرى تحت جناحها فأصبح لقب ملكها «ملك الملوك»، ولكنها لم تتحد اتحاداً تاماً، اذ ان كثافة الغابات في تلك المنطقة كانت تحول دون الدويلة الواحدة والاتصال التام مع جارتها. ولكن هذا تبدل مع الزمن، فقامت امبراطورية اسانتي في القرن الثامن عشر.

كان الذهب معروفاً أمره هناك، لكن الاتجار به، على نطاق واسع، جاء في القرن الخامس عشر. ولعل ذلك يعود الى حاجة الاوروبيين الى الذهب ورغبتهم في الحصول عليه في ذلك الوقت، وذلك قبل ان يكتشف العالم الجديد وثرواته. وهكذا فقد عرفنا الآن، ولمناسبات مختلفة، مناجم الذهب الأصلية وحقوله، والتي كانت السبب في إثراء جماعات من الناس هنا وهناك: بمبوك (التجارة غانا) وبوره او ونفره (التجارة مالي) وأكان (التجارة بونو/ بونو ـ منسو).

في ساحل غانا الحالية: انتظمت بعض شعوب هذه المنطقة، على قلة أعدادهم، دويلات صغيرة أفادت من ثروة البحر ومن علاقات طيبة مع سكان الداخل. وقد تحسنت أحوالهم لما وصل التجار البرتغاليون الى تلك الجهات، إذ أخذوا أنفسهم بنقل بعض السلع (وخاصة الفلفل) من الداخل الى الموانىء الجديدة.

غونجا: تنبه اسكيا داود، ملك سنغاي (١٥٤٩ ـ ١٥٨٢) الى شح في كمية الذهب المحمول الى بلاده من حقول أكان، فقصد الحد من تسرب الذهب الى أسواق أخرى على ما بلغه. فأرسل بعثاً عسكرياً قوامه فرسان من خيرة فرسانه الى الجنوب كي

يعملوا على اعادة «سير» الذهب الى سنغاي. وقد سار هذا الجيش الى الجنوب بدءاً من جني. فلما وصل الفرسان الى المنطقة الواقعة بين الفولتا الابيض والفولتا الاسود قبل ان يتحدا ليكونا نهر الفولتا، وجدوا انه ليس باستطاعتهم ان يتوغلوا في الغابات الكثيفة، فآثروا البقاء حيث هم، وأنشأوا هناك، مع الزمن، دويلات صغيرة. وقد انضم الى هذه الدويلات تجار الديولا، وكانوا من مهرة التجار، فحولوا هذه الدويلات الجديدة الى مراكز تجارية هامة. وكان انشاء غونجا (الدويلة الاولى) حَول سنة ١٥٧٥، وتلا ذلك قيام بعض الدويلات حول سنة ١٦٠٠.

دولة كانم ـ بورنو: مملكة (او امبراطورية) كانم ـ بورنو، التي قامت حول بحيرة تشاد، لا تقل أهمية عن امبراطوريتي غانا ومالي اللتين تحدثنا عنهما قبلاً. ولعل بداية هذه الدولة تعود الى حوالى سنة ٨٠٠ م. وكانت دويلتا كانوري وزغاوة أول ما انتظمت شؤونهما.

وقد كانت التجارة مهمة لهذه الجماعات وأماكن اقامتها. فهناك الاتجار الذي كان قائماً بين افريقيا الشمالية (ليبيا وتونس) والأسواق الجنوبية. وكذلك كان القوم يتاجرون مع النوبة ومصر عبر دارفور. اما أيّر فكان صلة الوصل مع ليبيا وتونس.

قامت دولة كانم المبكرة الى الشرق والغرب من بحيرة تشاد، وكان ملوكها من أسرة تسمى صفاوة (سيفية؟). وتولت السلطة من حوالى سنة ٨٥٠ الى سنة ١٠٨٦ م. وقد اعتنق الصفاوية الاسلام بعد السنة ١١٠٦/٥٠٠. وظل ملوك كانم ـ بورنو وأباطرتها يسيرون على هدى الاسلام قروناً طويلة. وأنشأ مسلمو كانم ـ بورنو مدرسة للفقه المالكي بين السنة ٦٤٠ و٦٥٠/١٢٤٢ و١٢٥٢.

وما يطلق عليه اسم امبراطورية كانم ـ بورنو فقد تميز تاريخها السياسي بفترتين، بدأت الاولى قبل منتصف القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد). وكان من ملوك هذه الفترة تسيليم او سلمى وابنه دوناما (١٢٢١ ـ ١٢٥٩) وخليفته ماي داود (١٣٧٧ ـ ١٣٨٦). وفي هذه الفترة وسع الملوك رقعة الدولة ونشروا أعلام الامبراطورية في الفزان (ليبيا) واستولوا على كانو في نيجيريا الحالية، واقليم ودّاي شرقي بحيرة تشاد. وقد تلت هذه الفترة أيام اضطراب، لكن هذه لم تدم طويلاً. فقد عاد الى الدولة نشاطها أيام ماي علي غاجي (١٤٧٢ ـ ١٥٠٤) وماي ادريس (١٥٠٤ ـ ١٥٢٦) وماي محمد (١٥٢٦ ـ ١٥٤٥) ودوناما (١٥٤٦ ـ ١٥٦٣) فوسعت المملكة حدودها واستولت على بعض ولايات الحوصا غرباً، كما اتسعت شرقاً.

عرفت امبراطورية كانم ـ بورنو، في ما تبقى من القرن العاشر وفي القرن الحادي عشر (السادس عشر والسابع عشر) زمناً من أزمنة النمو والتطور وخاصة أيام ادريس الومة (عوالمة؟)، وهو واحد من أكبر أباطرة هذه الدولة (١٥٨٠ ـ ١٦١٧). فقد انتعشت البلاد في زمنه وكانت له صلات مع الدولة العثمانية، حين أرسل سلطان

اسطنبول اليه بعثة ديبلوماسية رفيعة الشأن. وهكذا كانت دولة كانم ـ بورنو في عهد ادريس تسيطر على التجارة والاسفار والتنقل بين غرب افريقيا ومجرى النيل الاوسط، وبين غرب افريقيا وفزان ومصر.

ويعود إلى ادريس الفضل في فرض الشريعة الاسلامية على بلاده جميعها وجعلها أساساً للمعاملات والسلوك.

العمل بدل الاحتلال

دول الحَوْصا: ظلت دويلات الحوصا التي قامت في الاجزاء الشمالية من نيجيريا الحالية، مستقلة واحدتها عن الاخرى، فلم تنشىء ملكاً موحداً. واحتفظت كل مدينة كبيرة، مثل كانو وزاريا وكستينا، بسيطرتها على الجهات المجاورة لها. فكان لكل مدينة ملكها او أميرها وسوقها، التي كان يحمل تجار الجوار غلاتهم ومصنوعاتهم اليها. وكان يأتي هذه الاسواق تجار من جهات نائية. فكانت متاجر شمال افريقيا ومصر والسودان وغينيا تصلها وكان نقلتها يتبادلونها في تلك الاسواق، مثل جوز الكولا الذي كان يجمع في الجنوب ويحمل الى شمال افريقيا. وحري بالذكر ان الاتجار في هذه الاسواق كان يقوم على تبادل السلع من المصنوعات والغلات النباتية، اذ لم يكن هنا ذهب يحمل منها (او من جوارها الجنوبي) الى الشمال.

وبسبب من هذا الاهتمام بالعمل بدل الاحتلال والفتح والحروب، تقدمت المدن وأثرت. وكانت لشعوب مدن الحوصا صلات قوية مع سكان الغابات في غينيا. ونجاح مدن الحوصا التجاري وثراؤها الكبير حملا امبراطورية سنغاي على محاولة احتلال مناطق الحوصا. ومع ان كانو وقعت تحت سلطان بورنو، فإن دويلات الحوصا حافظت على استقلالها حتى احتلتها جماعات الفولاني بين ١٨٠٤ و١٨١١.

جاء انتشار الاسلام في مدن الحوصا متأخراً، كما ان هذا الانتشار كان بطيئاً. وقام بنشره التجار والحجاج وبعض رجال الدين الذين هبطوا المدن واستقروا فيها. وكان الاسلام، الى مدة لا يستهان بها، دين المدينة، من دون ان ينفذ الى الريف، لأن حكام المدن الحوصية كانوا يتركون للزعماء المحليين عاداتهم ونظمهم وحتى أديانهم. لكن الحوصا ـ مدناً وريفاً ـ انتهى الامر بها الى ان أصبحت من معاقل الاسلام في المنطقة بأسرها.

باغرمي وودّاي: كانت المنطقة الواقعة الى الجنوب والشرق من بلاد كانم، موطناً لعدد من القبائل المتعددة الاصول الاثنية. ومع ان الاسلام وجد طريقه الى تلك الجهات في العقود الاخيرة من القرن السادس عشر، فإن ما قبله الحكام والبعض من السكان كان قليلاً. ولم يتم الانتشار الفعلي الصحيح الا فيما بعد، لما تدفق الفقهاء الى المنطقة قادمين من الشرق، وأخذوا يفسرون أحكام الاسلام وتعاليمه. ومما أخر انتشار الاسلام حتى الوقت المذكور (أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن

عشر) هو ان الحكام فضلوا ان يتركوا القبائل على دينهم مقابل ان يدفع هؤلاء ما يترتب عليهم من اتاوة لأولي الامر.

قامت، مع الزمن، دولتان في تلك الجهات: الاولى، مملكة باغرمي في الجزء الواقع الى الجنوب من بلاد كانم، والثانية، مملكة ودّاي في الجهة الواقعة الى الشرق من البلاد نفسها. وكانت المملكة الاولى استبدادية النزعة، اذ اقتبس ملكها الكثير عن بورنو. وقد كان آخر ملك قوي تولى شؤونها هو برغومندا (١٦٣٥ ـ ١٦٤١).

على ان توسع مملكة باغرمي نحو الشرق ادى الى الصدام مع مملكة ودّاي التي قامت على أيدي قبائل التنجور، وهي التي قضت على دويلة محلية، وأسست دولتها مكانها. ودامت الخصومة بين الدولتين مدة طويلة.

وبسبب نوع من العزلة التي تعرضت لها المنطقة أصلاً، تأخر وصول الاسلام اليها، ولكن في القرنين السابع عشر والثامن عشر دخلها عدد من الفقهاء وقاموا بنشره وتوضيح تعاليمه، على نحو ما تم في باغرمي.

وجميع الدويلات او التجمعات القبلية التي قامت في تلك الجهات كانت تفرض اتاوة على الجماعات التي تسيطر عليها بطريقة ما، كما ان الجماعات او الدول الاقوى أخذت بأسر فئات من سكان المناطق الداخلية وبيع أفرادها في أسواق الرقيق. فقد كانت هذه تجارة رائجة.

في دلتا النيجر: كانت دلتا نهر النيجر، وما جاورها من مناطق الغابات، مجالاً لقيام تجمعات قبلية صغيرة، هي بالدويلات الموقتة أشبه، حال دون توحدها، في أغلب الحالات، كثافة الغابات وانفصال القبائل بعضها عن البعض الآخر. وهذه الدويلات أخذت أحوالها تتحسن لما قامت تجارة بحرية في سواحل الاطلسي اثر وصول البرتغال الى تلك الجهات في القرن الخامس عشر. ولم يصل الاسلام الا الى القليل من تلك القبائل حتى القرن السادس عشر.

شؤون عامة

١ ـ بعض التواريخ المهمة

ـ حوالى سنة ٧٥٠ م وطدت دول الشمال الافريقي وخصوصاً دولة تاهرت، علاقاتها التجارية مع غرب افريقيا عبر الصحراء.

ـ بعض ملوك السودان الغربي يعتنقون الاسلام: ملك غوا وملك مالي (برمندانا) وملك كانم ـ بورنو (هوم). بين ١٠٥٤ و١٠٧٦ يهاجم المرابطون غانا، ويحتلون العاصمة.

ـ ملك مالي، منسى موسى، يؤدي فريضة الحج ٧٢٤/ ١٣٢٤.

ـ سنة ١٣٣٥ يبدأ حكم أسرة سُنّي (سُن) في سنغاي، وهم ملوك مسلمون.

ـ حوالى سنة ١٤٠٠ يتمركز تعليم الاسلام في تمبكتو وجني.

ـ تقيم الدولة العثمانية، بعد احتلالها لمصر وتونس والجزائر (بين ١٥١٧ و١٥٣٤) علاقات ودية مع دولة كانم ـ بورنو (حوالى سنة ١٥٥٠).

٢ ـ ملاحظات عامة حول الوجود الاسلامي في غرب افريقيا (حتى القرن السادس عشر):

أ ـ مع ان الاسلام انتشر في بعض الاصقاع في غرب افريقيا خلال المدة بين ١٠٠٠ و١٦٠٠ للميلاد، فقد ظل، في أغلب الحالات، دين سكان المدن. وحافظ سكان الريف، في الكثير من الاماكن على أديانهم القديمة وهي وثنية. ومع انتشار الاسلام ظهرت مراكز التعليم رغبة في توضيح تعاليمه وآرائه وشريعته.

ب ـ أدى انتشار الاسلام، وخاصة حيث تغلغل في الريف، الى قيام وحدات سياسية كبيرة. فقد كان من اليسير ان يتحد حكام يتبعون الاسلام، فيما ظل أتباع غيره متنابذين!

ج ـ هناك أمران مرتبطان يجب ان يذكرا معاً وهما: ان انتشار الاسلام في الربوع المختلفة والمتباعدة أدى الى تقوية التجارة، كما ان التبادل التجاري القوي بين تلك الربوع كان عاملاً في انتشار الاسلام.

٤ ـ طرق ابن بطوطة وقافلته

كانت سجلماسة في جنوب المغرب وأول الصحراء، نقطة انطلاق التجار القادمين من الشمال بقصد الوصول الى اسواق السودان الغربي، كما كانت النقطة التي تنتهي عندها رحلة القافلة من مالي مثلاً والمحملة بسلع الجنوب التي تعتزم نقلها الى أسواق المغرب.

ولعله من حسن حظنا ان الرحالة المغربي الكبير ابن بطوطة، شيخ الرحالين العرب اطلاقاً، انتدبه السلطان ابو عنان المريني في مهمة الى ملك مالي، لم تتضح لنا، حتى اليوم، أغراضها. لكن المهم أن ابن بطوطة دوّن اخبار رحلته وبذلك عرفنا الكثير عن التنقل والمراكز والسلع التي كانت موضع عناية التجار.

وسجلماسة بناها بنو مدرار (١٤٠ ـ ٢٩٦هـ/ ٧٥٧ ـ ٩٠٩م) الذين أرادوا ان يبتعدوا عن حكم كل من العباسيين (إذا أتيح لهؤلاء الوصول اليهم) وأمويي الاندلس. وظلت هذه الدولة قائمة الى ان قضى عليها الفاطميون (٢٩٦/ ٩٠٩). لكن سجلماسة ظل لها مكانتها التجارية الخاصة. أما أيام بني مدرار، وحتى بعدهم بما يقارب القرنين، كانت لا تزال زروعها متنوعة، وصناعتها تشمل الأزر الصوفية.

كانت سجلماسة نقطة انطلاق ابن بطوطة، بعد ان انتقل من فاس، عاصمة بني مرين، محمَلا أمر السفر الى ملك مالي، وكان ذلك سنة ٧٥٢/ ١٣٥٢. وفي سجلماسة اشترى الرحالة الكبير الجمال وعلفها أربعة أشهر، ثم انطلق في غرة المحرم من سنة ٧٥٣ في قافلة كان فيها أحد زعماء قبيلة مسوفة البربرية محمد بندكان وجماعة من تجار المدينة. وقد وصلت الجماعة، بعد خمسة وعشرين يوماً الى تغازى، التي كانت في نظره «قرية لا خير فيها». الا ان الواقع أن قرية تغازى كانت كثيرة الملح الذي كان «يحفر عليه في الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض». والجمل لا يحمل أكثر من لوحين من هذه. والعمال هناك عبيد مسوفة. ويضيف ابن بطوطة عن هذه القرية التي لا خير فيها قوله: «ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بأيوالاتن (ولاطة) بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً الى عشرين، وربما انتهى الى أربعين مثقالاً». ولعل أطرف ما أورده رحالتنا عن تغازى قوله: «قرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر».

على ان ابن بطوطة الذي كان يحب المدينة الكبيرة بعمارتها ومساجدها وعلمائها وشوارعها ومجتمعاتها، لم تملأ عينه، على ما نقول اليوم، لا تغازى ولا ملحها ولا القناطير المقنطرة من التبر فيها. ولكنه لم يبخل علينا بأن يعرفنا بأن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال.

المهم، هو ان المسافر لا بد له ان يكون مع رفقة. ورفقة ابن بطوطة أقامت عشرة أيام في تغازى وكان ذلك في جهد لأن ماءها زاق وهي أكثر المواضع ذباباً. ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها، وهي مسيرة عشر لا ماء فيها الا في النادر. وبعد هذا التعب والنصب وصلت القافلة تاسرهلا حيث يريح الركب ثلاثة أيام، ويصلحون اسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح.

واتباعاً للأصول المرعية استأجر ابن بطوطة وفريقه التكشيف بمئة مثقال من الذهب. «والتكشيف اسم لكل رجل من (قبيلة) مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم الى ايوالاتن (ولاطة) يكتب الناس الى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائهم بالماء مسيرة أربع». ويقول ابن بطوطة عن الصحراء من تاسرهلا الى ايوالاتن (ولاطة) انها لا طريق يظهر فيها ولا أثر، انما هي رمال تسفيها الرياح فبينما يكون جبل من الرمل في مكان يرى وقد انتقل الى مكان اخر.

وكان من حسن حظ ابن بطوطة ورفاقه ان التكشيف وصل، وان الجماعة خرجت اليهم بالماء فكان ذلك فرجا ورحمة. ذلك بأن رحالتنا يقول: «وربما هلك هذا التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل ايوالاتن (ولاطة) بالقافلة فيهلك أهلها او الكثير منهم».

قضى ابن بطوطة وقافلته ستين يوماً منذ ان تركوا سجلماسة حتى وصلوا ولاطة. ولما وصلوا البلدة جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها، ثم توجهوا الى الغربا حسنين، وهو نائب السلطان في هذه المدينة. ودعا منشاجو الجميع الى ضيافة، هو أمر مألوف، والقصد منه تكريم التجار. ومنشاجو هو المشرف على ولاطة. والطعام الذي قدم هو جريش من حب الانلي الدقيق (مثل حب الخردل) مخلوط ببعض العسل واللبن. وقد قدم الى الحضور في نصف قرعة شبيه بالجفنة.

أقام بن بطوطة في هذه المدينة خمسين يوماً. وقد قال عنها «... شديدة الحر وفيها يسير نخلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء فيها. ولحم الضأن كثير. وثياب أهلها حسان مصرية، وأكثر السكان بها من مسوفة، ولنسائهم الجمال الفائق، وهن أعظم شأناً من الرجال».

انتقل ابن بطوطة من ولاطة الى مالي (ملّي) عاصمة مملكة مالي، والمسافة بينهما مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمجد. وعرف رحالتنا انه لا يحتاج رفقة كبيرة، أي

صحبة قافلة، بين ولاطة ومالي. فاكترى دليلاً من مسوفة وخرج في ثلاثة من أصحابه، اذ انه لم ير ضرورة لانتظار القافلة.

الطريق الآن لا يجتاز الصحراء وانما يقع أكثره في منطقة يسميها ابن بطوطة الغابة، وهي في الواقع جزء من الساحل والمراعي والسهوب، لأن الغابة التي نقصدها اليوم عندما نتحدث عن غرب افريقيا فهي منطقة الغابات الاستوائية الغزيرة الامطار الكثيفة الاشجار.

ومع ذلك فإن هذا الذي اجتازه ابن بطوطة في طريقه الى مالي كان «جنة» بالنسبة الى ما عانى وعرف وشاهد قبل ذلك. ففي هذا الجزء من الطريق اشجار كبيرة يستظل الواحد بظلها ولو انها عارية. وهناك ماء. وللأشجار ثمار تشبه الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش ولكنها ليست بها. وعندهم حبوب يستخرجونها من الارض تشبه حب الفول تقلى او تحمص فقط. وعندهم تمر كالاجاص يسمى الغرتي وهو شديد الحلاوة، يؤكل كما هو. وقد يدق عظمه فيستخرج منه زيت للطبخ وللسرج ولخلطه بالتراب لتسطيح الدور. والقرع عندهم ضخم وتصنع منه الجفاف وتزخرف.

من طريف ما رواه الرحالة هو ان المسافر بتلك البلاد «لا يحمل زاداً ولا اداما ولا ديناراً ولا درهما، انما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية. وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكي وتاسرغنت وهو بخورهم. فإذا وصل الى قرية جاء نساء السودان بأنلي (الحب) واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفوني (حب مثل الخردل شكلاً) يصنع من الكسكسو والعصيدة. ومع ان ما ذكره ابن بطوطة لا يدخل في عداد القوافل التجارية الكبرى، فإن ما جاء به يوضح لنا ما كان ينفق في الاسواق المحلية بين الناس العاديين.

زار ابن بطوطة عاصمة مالي، التي يسميها مليل، وقضى هناك حوالى ثمانية شهور. وعاد من مالي الى تمبكتو مارا بميمة. وقد لجأ الى الجمل ركوبة، لأن الخيل غالية الثمن جداً. ومن تمبكتو ذهب الى تكدا ـ مدينة النحاس في الصحراء. وإذ بلغه وهو فيها الامر من الملك المريني بوجوب العودة السريعة صدع للأمر. واشترى جملين لركوبه بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث المثقال من الذهب. وعاد بطريق توات، بعد ان رفع زاد سبعين ليلة، اذ لا يوجد طعام فيما بين تكدا وتوات. وفي طريقه وصل الى الموضع الذي يفترق فيه طريق غات (الى مصر) عن طريق توات ـ المغرب. ووصل مدينة سجلماسة في أواسط ذي القعدة من عام ٧٥٤.

ولعل أهم ما عرفه ابن بطوطة في طريق عودته مدينتي تمبكتو وتكدا. ولما كانت الأولى قد أصبحت مدينة علم فإننا سنترك الحديث عنها الى وقت لاحق، عندما نعرض لمراكز العلم في السودان.

أما تكدا فقد استضافت ابن بطوطة عند شيخ المغاربة سعيد علي الجزولي

وعند قاضيها أبي ابراهيم اسحق الجاناتي وعند جعفر بن محمد المسوفي وهم من الافاضل. وقد وصف رحالتنا هذه البلدة بقوله: «وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس، فيتغير لونه وطعمه بذلك. ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مداً من أمدادهم بمثقال ذهب... وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب».

ويحدثنا عن سكانها فيقول إنه لا عمل لهم غير التجارة. فهم يسافرون الى مصر في كل عام فيجلبون كل ما بها من ثياب حسنة، وأهلها يتمتعون برفاهية وحسن حال. وهم، مثل أهل مالي وولاطة يتفاخرن بكثرة العبيد والخدم. ويحتفظون بالام المتعلمة ولا يبيعونها الا قليلاً، وبالثمن الكبير.

لم يتجه ابن بطوطة الى الجنوب من مالي، ولكن الذي نعرفه هو ان مالي كانت فيها أسواق الذهب اثناء عظمتها وقوتها. وكان الذهب يحمل من بوره في الغابات الى أسواق مالي ثم ينقل شمالاً، على ايدي التجار البربر خاصة، الى المغرب العربي ومن هناك الى اوروبا.

ونحن عندما نتقصى ما أورده ابن بطوطة، ولو في ثنايا حديثه عن الرحلة، نجد ان ولاطة (ايوالاتن) وتكدا كانتا مركزين كبيرين للتجارة. الاولى، كانت على الطريق الغربي؛ اما تكدا، فقد توسطت طرقا تتجه نحو تونس وليبيا شمالاً ونحو بورنو ومصر شرقاً. ويذكرنا الرحالة، وهي عادته، بالاشخاص المغاربة الذين لقيهم او الذين استضافوه وأكرموه. ففضلاً عمن ورد ذكرهم قبلاً، نجد ان صاحبنا أعجب بمدينة غوا. ففيها استضافه تاجر مكناسي وآخر نازي وفقيه فيلالي.

ولعله من حسن حظنا ان تكون بين أيدينا وثيقة في غاية الاهمية تتحدث عن الصحراء وتجارتها ومراكزها وطرقها وهي تعود الى مطلع القرن العاشر/ السادس عشر. في ذلك الوقت زار الحسن الوزان الفاسي الاصل، المعروف أيضاً باسم ليو الافريقي، جزءاً كبيراً من افريقيا، وخلّف وصفاً دقيقاً للأعمال التي كانت تتم في المدن من النواحي الاقتصادية والاجتماعية.

ولنذكر أنفسنا بأن قرابة قرنين من الزمان تفصل ابن بطوطة عن الحسن الوزان. ولعل أهم ما يجب ان يظل ثابتاً في ذهننا هو أن الخارطة السياسية للسودان الغربي كانت قد تبدلت كثيراً. فامبراطورية مالي كانت قد انتهى أمرها، وكانت امبراطورية سنغاي هي التي تسيطر على تلك الجهات (١٤٦٤ ـ ١٠٠٠/ ١٥٩١). اما في الشمال الافريقي فكانت الدولة السعدية (٩١٧/ ١٠٦٩/ ١٥١١ ـ ١٦٥٩) هي التي تسيطر على المغرب، كما كانت الدولة الحفصية (٦٢٥ ـ ٩٨٢/ ١٢٢٩ ـ ١٥٧٤) سيدة تونس. وقد كان للدولتين علاقات تجارية هامة مع اوروبا، لذلك فإن السلع الاوروبية كانت تزداد كماً ونوعاً في أسواق افريقيا جنوبي الصحراء.

ويبدو ان عم الحسن الوزان كان قد انتدب للقيام بمهمة نيابة عن سلطان المغرب القائم (١٥١١ ـ ١٥١٧) عند امبراطور سنغاي اسكيا (اسقيا) محمد (٨٩٨ ـ ٩٣٥/ ١٤٩٣ ـ ١٥٢٩)، فاصطحب الرجل ابن أخيه الحسن ليرافقه في الرحلة. ودوّن فيما بعد أخبار رحلته، وهي الوثيقة التي أفدنا منها كثيراً في درسنا لتلك الربوع.

انطلقت البعثة من سجلماسة، التي كانت، مع تهدمها، لا تزال نقطة انطلاق القوافل الى قلب الصحراء. وكانت تغازى المحطة الثالثة، وكانت بعد سوق الملح الرئيسة في المنطقة. ثم رحلت الجماعة الى ولاطة (ايوالاتن عند ابن بطوطة وغوالاطة عند الحسن الوزان). ومن هنا أصبح التجار والرحالون والمبعوثون الرسميون يتجهون نحو تمبكتو وغوا، وهما أكبر سوقين في امبراطورية سنغاي. وقد وصف الحسن الاولى فأشار الى الحوانيت التي تباع فيها الاقمشة الكتانية والقطنية بعد ان يكون التجار المغاربة قد حملوها من أسواق المغرب (العربي) بعد ان تكون قد وصلتها من مصانع اوروبة. وقد كان التجار الغرباء في تمبكتو اثرياء، بحيث ان الملك لم يمتنع عن تزويجه ابنتيه من تاجرين منهم.

صعد الحسن في نهر النيجر الى جني، وكانت هذه أيضاً سوقاً عامرة. ومنها انتقلت الجماعة الى غوا التي كانت يومها العاصمة. وهذه كانت ذات أسواق فيها الاقمشة والاوعية النحاسية والسلاح والملح (الآتي من تغازى) والذهب المحمول من الجنوب والحبوب واللحوم والارز والقطن الذي كان يزرع في تلك الربوع. أما الفواكه في غوا فشملت البطيخ والليمون الحامض. اما جني، فمع ما كان فيها من سلع متاجر، فإن التمر كان الفاكهة الوحيدة فيها؛ وكان التمر يحمل اليها من ولاطة.

ويحدثنا الحسن الوزان عن وسائل التعامل، اي الدفع ثمناً للسلع، فيذكر انها الذهب (التبر) وقطع الذهب غير المدموغة والنقود الحديد (أي القطع الحديد المدموغة) والقطن والودع. ولا شك في ان تنوع هذه الوسائل الصرفية، كان يتوقف على المكان، مدينة كان ام ريفا، وعلى طبقات المجتمع.

ويشير الحسن الوزان الى سوق الرقيق في غوا ويقدر ثمن الصبي الخامسة عشرة بنحو ست دوقات (وهذه كانت وحدة نقد رئيسة في اوروبا وكانت قيمتها نحو نصف جنيه استرليني ذهب).

ونود ان نشير هنا الى انه في القرن الخامس عشر أخذ التجار البرتغاليون يقيمون مراكز تجارية على ساحل المحيط الاطلسي الافريقي، بقصد جذب التجار من الداخل اليها كي ينقلوا التجارة من افريقيا ويعودوا اليها بسلعهم ومتاجرهم.

ظلت التجارة عبر الصحراء بأيدي تجار فاس وتلمسان ووغلة. أما تجار الموانىء مثل تونس والجزائر وطنجة، فقد اقتصر عملهم، على نقل المتاجر الاوروبية من هذه

الموانىء الى نقاط انطلاق القوافل الى الداخل. وكانوا بطبيعة الحال، يحملون ما ينقله التجار من السودان من سلع الى الموانىء التي تبعث بها عن طريق التجار الاوروبيين الذين كانوا يقيمون في موانىء الشمال الافريقي، مثل جالية تونس التجارية، الى أسواق اوروبا. وأهم هذه السلع كان الذهب وريش النعام وبعض الاخشاب الثقيلة مثل الابنوس. أما الرقيق فكان يرسل الى الشمال الشرقي والشرق ـ الى مصر وإلى عاصمة الدولة العثمانية.

٥ ـ الصحراء التي تعطي للفراغ معناه

نحن معنيون، في الدرجة الاولى، بسكان المناطق الواقعة جنوبي الصحراء في غرب افريقيا. لكن التحدث عن سكان هذه المناطق من دون الاشارة الى شيء عن أهل الصحراء يبدو غريباً، بسبب ما كان بين الفريقين ـ اذا جاز التحدث هنا عن فريقين حقاً ـ من ترابط واتصال. فهناك، فضلا عن العلاقات التجارية الوثيقة بين البربر في الصحراء والسودانيين على تباين مساكنهم، صلة الدين. فالاسلام انتقل الى أهل الجنوب في الساحل والغابات عن طريق البربر والتجار الذين قطعوا أياماً في الطريق الى أسواق غانا ومالي وسنغاي وسواها. فضلا عن ان دولة المرابطين هي التي كانت مسؤولة عن نشر الاسلام في غانا وعاصمتها.

والذي يلفت انتباهنا في نظرنا الى الصحراء هو هذا الاتساع في المساحة الذي يعطيك معنى الفراغ التام. وقد أتيح لي ان أطير فوق الصحراء الكبرى من طرابلس الى سبها (وانتقلت بعدها بالسيارة الى مرزق) ومن بنغازي الى كانو (وبالعكس)، ومن الخرطوم الى كانو (وبالعكس أيضا) ـ وفي كل مرة كان هذا الفراغ التام هو الذي يطغى على تفكيري.

ومع ذلك، فالصحراء ليست خالية تماماً، ولا هي هذا العائق المستعصي على المتنقلين. فالقبائل البربرية سكنتها ولا تزال تسكنها، وقوافل التجار والحجاج اجتازتها ولا تزال تجتازها (وان كانت أقل اليوم منها قبلاً)، ولا يزال الملح والقطن والذرة والاقمشة والسلاح والآنية تحمل فيها من سوق الى سوق، وإن تبدل اسلوب الحمل والنقل.

وهؤلاء البربر وصفهم ابن حوقل الجغرافي الرحالة من أهل القرن الرابع/ العاشر بقوله: «والبربر السكان بالمغرب (والمغرب في عرفه يشمل الصحراء) فقبائل لا يلحق عددهم، ولا يوقف على آخرهم، لكثرة بطونهم وتشعب افخاذهم وقبائلهم وتوغلهم في البراري وتبددهم في الصحاري... ومن المتعذبين الموغلين في البراري صنهاجة اوداغشت... وقد يكونون نحو ثلاثمائة ألف بيت من بين نوالة وخص... وبين اوداغشت وسجلماسة غير قبيلة من قبائل البربر، متعذبون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العازبة. فمن ذلك بنو مسوفا (مسوفة) قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة، لا يعرفون البر ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم

يسمع بهما (كذا) إلا بالمثل. وأقواتهم الالبان وفي بعض الاوقات اللحم. وفيهم من الجلد والقوة ما ليس في غيرهم».

لكن جغرافيّاً يعرف من البربر جماعة تقيم باداني سجلماسة وهي تأكل البر وتعرف الشعير وتزرعه والتمور والطيبات. ويلحظ انه في كثير من أفراد هذه الجماعة وجوه حسنة الالوان ذات محاسن فائقة ولهم أبدان نقية حتى يأخذوا في جهة الجنوب فتستحيل أبشارهم وألوانهم.

على ان اتساع الرقعة التي انتشر فيها البربر، واختلاف العناصر التي دخلت على الرس الاصلي ـ من جبال الألب وشرق حوض المتوسط وأواسط افريقيا ـ كل ذلك أدى الى تنوع في أنماط الحياة عند هذه الجماعات المتنوعة. وقد زاد في التنوع مختلف الثقافات والحضارات التي أثرت في البربر عبر العصور.

ومع ان كبير جغرافيي العرب ـ المقدسي ـ من أهل القرن الرابع/ العاشر أيضاً، لم يزر الصحراء، فإنه نقل بعض أخبار سكانها البربر عن ثقات، على عادته، فقال عنهم إن البربر لهم برانس سود، أما أهل الرساتيق أي القصبات فإنهم يستعملون الاكسية.

وثمة ما يقرب من الاتفاق على أن البربر كانوا يملكون البسالة والجرأة والفروسية على الابل والخفة في الجري، والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله. وهم أهل الهداية فيه والدلالة على مياهه. وفي رجالهم ونسائهم خلق تام وجلد عام. ويخبرنا ابن حوقل أنه لم ير لأحدهم منذ كانت من وجوههم غير عيونهم. فهم يتلثمون وهم أطفال وينشؤون على ذلك. ومن هنا، كما نعرف، يسمى الطوارق، وهم بربر الصحراء، الملثمون. وقد سمي المرابطون الملثمين لأنهم من هذه الجماعة من البربر.

وفي أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر كتب البكري عن بربر الصحراء في كتابه المعروف «المسالك والممالك» ما يلي: «بنو مسوفة وهم قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمطونة (المتونة) ظواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام (أي المغرب)... وهم الى بلاد السودان أقرب. بينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل (المرحلة سفر اليوم على العموم)، ولا يعرفون حرثا ولا زرعاً ولا خبزاً، وإنما أموالهم الانعام وعيشهم من اللحم واللبن. ينعقد عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله، الا ان يمر بهم التجار من بلاد الاسلام او بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق».

ويشير البكري الى اللثام البربري (الطوارقي) بقوله ان جميع قبائل الصحراء يلتزم رجالها النقاب فوق اللثام، حتى لا يبدو منه الا محاجر عينيه، ويؤكد ان ذلك، أي التلثم، أصبح «الزم لهم من جلودهم».

ويتحدث عن طعام بعض البربر فيقول إنه «صفيف اللحم الجاف مطحوناً يصب

عليه الشحم المذاب او السمن. وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء. يبقى الرجل منهم لأشهر لا يشرب ماء».

وقبل ان ننتقل الى بلاد السودان، وهي بغيتنا أصلاً، ننقل وصفاً لبربر يسكنون مدينة من قلم البكري، هي تادمكة، وهي مركز تجاري على الطريق بين أسواق حوض نهر النيجر وشمال الصحراء، وأهلها غالبهم من قبيلة مداسة. يقول البكري: «وتادمكة... مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانا ومدينة كوكسوا (غوا). وأهل تادمكة بربر مسلمون، وهم يتقبون كما يتقب بربر الصحراء (وهؤلاء مسلمون في غالبهم). وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الارض من غير اعتمال. ويجلب اليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان. ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك. وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصاً أصفر وسراويل زرقاء. ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض وغير مختومة. ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسناً».

ولنذكر أنفسنا ان البكري لم يزر الصحراء ولا السودان، وربما كانت معرفته بأنحاء الشمال الافريقي محدودة. لكنه كان يتقصى الاخبار من التجار والزوار ويقارن الروايات ويقابل بين ما يبلغه ويدون ما وثق منه. والعلماء مجمعون على دقته وصحة أخباره.

لذلك فإن البكري سيكون دليلنا الاول في زيارتنا للسودان. أما دليلنا التالي، الذي زار البلاد في القرن الثامن/ الرابع عشر، فهو ابن بطوطة الراوية الرحالة الدقيق في الرواية والوصف. على ان الذي يجب ان لا يغرب عن البال هو ان الروايات التي وصلت الينا هي أصلاً تختص بجزء من أجزاء البلاد وفريق من العباد، لذلك لا يجوز اتخاذها دوماً قاعدة عامة لبلاد واسعة مختلفة المناخ والأصول الاثنية على نحو ما أوضحنا لما تعرضنا للبيئة الجغرافية العامة.

وقبل ان نرجع الى البكري نود ان ننقل ما جاء عند ابن حوقل عن السودان (الغربي) اذ يقول «ولهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والابل والغنم، وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص. فأما أسعارهم، على تنائي مدنهم وديارهم، فعلى غاية الرخص في الاطعمة والاغذية والاشربة واللحمان والادهان. ولهم من جيد الفواكه والتمور والارطاب وسائر الاغذية. وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم وسكان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة ابل العرب». والذي نراه هو ان ابن حوقل سمع هذا من جماعة خبروا الصحراء وجفافها، فلما عرفوا السودان رأوا فيه الكثير الكثير. فلما دونه هو بدا وكأن ما عند السودان هو جماع ما عند الآخرين.

والبكري يتناول السودان (الغربي) بمجمله، فيعين الانتقال من البربر الى السودان من الناس.

ففدالة (جدالة) هي آخر خطة الاسلام (من البربر) وهي الاقرب الى السودان. فالمسافة بين آخر عدالة وأول السودان، أي تكرور، تقطع في ستة أيام. وبعد ذلك تسير من تكرور الى مدينة سلي (سلا) وأهلها مسلمون.

وبعد مسيرة عشرين يوماً تصل الى مدينة غانة (أيام عز هذه الدولة). والطريق يجتاز عمارة السودان، القبيلة بعد القبيلة. في تلك الجهات تكثر البقر وينعدم الضان والماعز. وتنبت أرضهم الابنوس ومنه يحتطبون. ويصل المسافر بعد ذلك الى قلنبو وأهلها مشركون، وفي بلد زافقو وثنيون يعبدون حية كالثعبان العظيم.

كانت غانا، ايام البكري، في غاية من المنعة والثراء، فهو يقول عنها ان غانا هي صفة الملك واسم المدينة والمملكة، أما البلد نفسه فاسمه اوكار وهي العاصمة الاولى. ويروي ان ملك غانا في سنة ٤٦٠ للهجرة هو تنكامين. ويصفه بأنه ابن أخت الملك السابق. ويضيف قوله: «تلك سيرتهم ومذهبهم، ان الملك لا يكون الا في ابن أخت الملك، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه». ويشير الى هذاالملك بأنه «شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان».

ووصف البكري لمدينة غانا دقيق، نجد فيه صورة صحيحة لا لهذه المدينة فحسب، بل لأكثر العواصم والمدن السودانية التي قامت في تلك المناطق في ذلك الوقت.

فمدينة غانا مدينتان سهليتان الواحدة هي التي يقطنها المسلمون، وهي كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً واحدها يصلح للجمع. وللمساجد أئمة ومؤذنون ورابثون وفيها فقهاء وحملة علم. وتوجد في أرباضها آبار عذبة تزود السكان بماء الشرب والماء اللازم لري الخضراوات.

أما المدينة الثانية فهي مدينة الملك وتقع على بعد يقارب أربعة كيلومترات، وتسمى الغابة. والمساكن المبنية بالحجارة وخشب السنط متصلة بين المدينتين. اما الملك فله قصور وقباب، يحيط بها كلها حائط كالسور. ويخبرنا البكري انه في مدينة الملك يقوم مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين. وحول مدينة الملك قباب وغابات «يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكاكيرهم (أصنامهم) وقبور ملوكهم. ولتلك الغابات حرس لا يمكن أحد من دخولها ولا معرفة ما فيها. وهناك سجون الملك: فإذا سجن فيها احد انقطع خبره».

هذه الظاهرة التي وصفها البكري أي وجود مدينتين الواحدة على مقربة من الاخرى، والواحدة هي عاصمة الملك او مدينته، والثانية فيها مسلمون، تتكرر في السودان الغربي. ذلك بأن دويلات كثيرة كان فيها مسلمون يقطنون مدناً خاصة بهم او تكاد تكون كذلك، فيما كان الملك وثنياً، لذلك له عاصمته أي مدينته الخاصة به. فالبكري يحدثنا عن كوغة (وتسمى أحياناً كاكاو او غوا) التي تقع على بعض خمس

عشرة مرحلة من غانا، بأن أهلها مسلمون ويحيط بها المشركون.

ولملك غانا تراجمة من المسلمين ومنهم صاحب بيت ماله وبعض وزرائه. والملك وولي عهده (وهو ابن أخته) هما اللذان يلبسان المخيط، أما سائر الناس فيلبسون ملاحف القطن والحرير والديباج، كل بما يستطيع. والرجال يحلقون اللحى والنساء يحلقن الرؤوس، والملك يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة.

كتب البكري، وغانا قوية. وانتهى أمرها سنة ١٢٤٠. لذلك لما زار ابن بطوطة مالي (٧٥٣/ ١٣٥٢) كانت هذه قد أصبحت مملكة كبيرة قوية، وكان ملكها يومها منسى سليمان (٧٤٢ ـ ٧٦٢/ ١٣٤١ ـ ١٣٦٠).

وقد أشرنا الى رحلة ابن بطوطة التي كانت انتداباً سياسياً من السلطان المريني أبي عنان وإلى الطريق الذي اتبعه عبر الصحراء. ولننتقل الآن مع رحالتنا الى مالي، نفسها، ولنلق بالا الى روايته عن تلك الجهات.

كان ابن بطوطة قد كلف أحد معارفه ان يكتري له داراً، فلما وصل مالي وجد كل شيء جاهزاً، فاستقر فيها، وزاره الفقيه وابنه والقاضي، وتلقى من اصدقائه بقرة وثوراً وغرارتين من حب الفوني وقرعة من الفرتي وكمية من الارز، فاطمأن الى المكان والمؤونة. ويروى انه أكل بعد عشرة أيام عصيدة صنعت من شيء يشبه القلقاس. فأصبح الجميع مرضى. وكانوا ستة فمات أحدهم. ويقول ابن بطوطة: «وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشي علي فيها. وطلبت من بعض المصلين دواء مسهلاً... فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة، وعافاني الله من الهلاك، ولكنني مرضت شهرين».

وهذا الذي أشار اليه ابن بطوطة على أنه يشبه القلقاس هو، فيما نرى، اليام (او اليام ـ يم) وهو نبات جذري كثير الانتشار في مناطق السودان الغربي. ولما كنت في نيجيريا سنة ١٩٧٦، قضيت مدة في زاريا، فكان هذا النبات يقدم كل يوم على المائدة مسلوقاً ومخفوقاً مثل البطاطا، إلا انه يحتفظ بلزاجة وتماسك، لذلك فإنه يقطع قطعاً بالسكين ولا يسكب بالملعقة.

ومن طريف ما حدث لابن بطوطة انه، بعد اقامته في جوار السلطان بضعة أشهر، وبعد دعوة سلطانية، ختمت بالقرآن الكريم وبشكر الملك، بعث الملك الى الرحالة بالضيافة. وقد وصف الرجل الوضع بقوله: «ولما انصرفت بعث (الملك) الي الضيافة. فوجهت الى دار القاضي، وبعث بها القاضي مع رجاله الى دار ابن الفقيه، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي وقال: «قم قد جاء قماش السلطان وهديته. فقمت وظننت انها الخلع والاموال. فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلوة بالفرتي وقرعة فيها لبن رائب. فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من تعظيمهم للشيء الحقير». ولكن ابن بطوطة، الذي اعتاد على تلقي الهدايا

والعطايا من رجال الحكم في رحلاته البعيدة المدى في آسيا من قبل، لم يرقه ان يظل في مالي خالي الوفاض. لذلك فقد اغتنم فرصة جلوس السلطان في شهر رمضان فقام بين يديه في احدى الامسيات وقال له: «انني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها، ولي ببلادك أربعة أشهر، ولم تضفني ولا أعطيتني شيئاً. فماذا أقول عنك عند السلاطين؟».

فقال اني لم أرك ولا علمت بك. فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالا: «إنه سلم عليك وبعثت اليه الطعام». فأمر لي عند ذلك بدار انزل فيها ونفقة تجري علي. ثم أعطى القاضي والخطيب والفقهاء مالاً ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثاً. وأحسن الي عند سفري بمئة مثقال.

وجلوس سلطان مالي بالقبة وصفه ابن بطوطة وصفاً دقيقاً بقوله: «وله (للسلطان) قبة مرتفعة، بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الاوقات، ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب، وعليها ستور ملف (نسيج يشبه الجوخ). فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رفعت الستور فعلم انه يجلس. فإذا جلس أخرج من شباك أحد الطيقان شرابة حرير، قد ربط فيها منديل مصري مرقوم (منقوش عليه). فإذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق. ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، في أيدي بعضهم الرماح والصغار والدرق». وبعد ذلك ينتظم المجلس بوجود نائبه والفرارية وهم الامراء والخطيب والفقهاء والسلحدارية ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة. ويجلس الاجناد والولاة الفتيان وغيرهم في شارع خارج المشور فيه اشجار. فمن أراد ان يكلم السلطان كلم دوغا، ثم ينقل الكلام الى السلطان.

وقد حضر ابن بطوطة عيدي الفطر والاضحى، فرأى الناس يخرجون الى المصلى القريب من قصر السلطان يلبسون الثياب البيض الحسان. أما السلطان فعليه الطيلسان. وقد نصب عند المصلى خباء يدخله السلطان ليصلح من شأنه، ثم يخرج الى المصلى حيث تقضي الصلاة والخطبة. ويلي ذلك جلوس الخطيب بين يدي السلطان وتكلمه كثيراً في الوعظ والتذكير والثناء على السلطان ووجوب طاعته.

والذي يجدر بنا الاشارة اليه هنا هو ان الاسلام ظل، حتى أيام ابن بطوطة وبعده، دين المدينة ولم ينتشر في الريف. ويعود ذلك الى ان انتشار الاسلام في غرب افريقيا في تلك الايام الخوالي كان مرتبطاً بالتجار، وهؤلاء يقيمون في المدن قرب الاسواق والمتاجر.

وتتضح بضعة أمور من هذا الذي نقلناه عن المؤلفين هنا والكثير الذي لم ننقله، هي التي نجملها هنا:

أولاً ـ في «الساحل» (السهوب الغنية) والمنطقة التي الى جنوبه، أي السودان

الغربي، تقوم قرى ومدن يعتمد سكانها على الزراعة، ونرى ان انتاجها الزراعي متنوع. ويغلب استعمال القمح على أكثر السكان.

ثانياً ـ ان التنظيم الاساسي في السودان يرتكز الى القبيلة. فالقبيلة هي التي تتكتل لتنشىء دويلة. والقبيلة ـ أي الدويلة ـ الاقوى هي التي تضم القبائل/ الدويلات تحت جناحها بحكم قوتها وقوة سلاحها.

ثالثاً ـ التجارة كانت تقوم على المقايضة أصلاً، ولو ان بعض التجار كانوا يدفعون ذهباً ثمناً لمشترياتهم. وكان الودع النقد المحلي بالنسبة لأكثر بلاد السودان. والجمل كان آلة النقل الاساسية، أما الحصان فكان للأبهة. وكان هذا يستورد من الشمال باستمرار.

رابعاً ـ انتشر الاسلام بين سكان عدد من المدن السودانية. وقبل الناس به عملاً وأسلوباً طيباً، لكن حتى أيام ابن بطوطة، لم يكن ثمة ما يكفي من أهل العلم ليوضحوا للناس جوهر هذا الدين. وقد تم هذا فيما بعد، على ما سنرى في مقال آخر.

قيّم ابن بطوطة أفعال السودان مستحسناً ومستقبحاً فقال إن قلة الظلم، وشمول الامن في بلادهم، وعدم تعرض السودان لمال من يموت ببلادهم من البيض، ومواظبتهم على الصلوات، ولباسهم الثياب البيض يوم الجمعة ـ هذه كلها مما استحسنه الرحالة.

ولكنه أخذ على السودان «ان الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا». ومما أخذه عليهم جعلهم التراب والرماد على رأسهم تأدباً. ولم يعجبه تذلل السودان لملوكهم.

وقال عن سودان مالي: «... رجالهم لا غيرة لديهم، ولا ينسب أحدهم الى أبيه، بل الى خاله، ولا يرث الرجل الا ابناء أخته دون بنيه. وذلك شيء ما رأيته الا عند كفار بلاد الملبار من الهنود. وأما هؤلاء فمسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن».

٦ ـ العلماء في السودان الغربي ومراكزهم

كان انتشار الاسلام في غرب افريقيا، وخصوصاً في السودان الغربي، يتبعه، في أحيان كثيرة، اتجاه الملوك في الدول الغنية الى اداء فريضة الحج. والذي عليه الباحثون هو ان بارمندانا، سلطان مالي، كان أول من حج الى بيت الله الحرام. كان ذلك في منتصف القرن الخامس/ الحادي عشر. ثم قام بأداء الفريضة منسى أول (أو علي) الذي فعل ذلك في أيام الملك الظاهر بيبرس (حكم ٦٥٨ ـ ٦٧٦/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧). وكان ثالث هؤلاء منسى موسى الذي أدى الفريضة أيام حكم الملك الناصر قلاوون (حكم للمرة الثالثة ٧٠٩ ـ ٧٤١/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠). أما سنة حج منسى موسى فهي ٧٢٤/ ١٣٢٤. ويلاحظ ان هؤلاء جميعهم كانوا من ملوك مالي. ثم جاء محمد اسقيا (الاول) امبراطور سنغاي (حكم ١٤٩٣ ـ ١٥٢٨م) التي تمت زيارته سنة ٩٠٢/ ١٤٩٥ ـ ١٤٩٦. وقد التقى الملك السوداني الخليفة العباسي (في القاهرة) الذي اتخذ من محمد اسقيا خليفة له على بلاد السودان.

وقد كان حج منسى موسى المالي أبعد هذه جميعاً صيتاً وأكبرها أثراً بالنسبة الى البلاد الاسلامية الشرقية، وخصوصاً مصر والحجاز. على ان الذي يجب ان يذكر ان عدد كبار التجار والزعماء والعلماء، فضلاً عن الناس العاديين، الذين زاروا الديار المقدسة لأداء هذه الفريضة كان كبيراً، بحيث اننا نقرأ، منذ القرن السابع/ الثالث عشر، ان لم يكن حتى قبل ذلك، عن طريق للحج (الحاج) في افريقية الغربية.

ونحن عندما نتحدث عن مراكز العلم والتعليم في افريقيا الغربية، يجدر بنا ان نذكر أمرين مهمين: الاول ان المراكز التجارية الكبرى كانت، بطبيعة اتصالاتها وزوارها، موائل للعلماء الذين كانوا يتنقلون في ربوع العالم الاسلامي، اذ كانت تزودهم بالمأوى وتؤمن لهم حاجاتهم. أما الأمر الثاني فهو ان التعليم كان أمراً شخصياً بحتاً يقوم به «المعلم» حباً بنشر علمه وبطلابه وبسبب اهتمامه بتثقيف الناس عامة في شؤون دينهم.

وإذا نحن أخذنا الطريقين اللذين كانا يصلان بين الشمال الافريقي بالمناطق الجنوبية، وجدنا ان أحدهما، وهو المعروف بالطريق اللمثوني، الذي كان يربط المغرب الاقصى بحوض السنغال هو الذي انتقل عليه المعلمين والمثقفين ـ مع التجار ـ الى سلي (سيلا) عبر وادي نون وادرار، والطريق الآخر الذي كان يمر بسجلماسة كان

العلماء يتبعون في انتقالهم - أيضاً بصحبة التجار - الى الحوض (في موريتانيا الحالية) فالنيجر. وكان لولاطة دور مهم في الحياة العلمية في وقت مبكر بعد انشائها.

ولنسر مع مؤلفينا خطوة خطوة ننقل عنهم رواياتهم. فالبكري يقول عن اوداغشت، المركز التجاري الكبير الغني على ما مر بنا، «بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، في جميعها المعلمون للقرآن». ويقول عن مدينة غانا، التي يعتبرها عاصمة الدولة، ان مساجدها فيها فقهاء وحملة علم. ومع اننا قد لا ننتظر في الحالتين المذكورتين الكثير من العلوم الاسلامية التي انتشرت وتطورت فيما بعد، فمن الضروري ان نذكر ان معلمي القرآن لم يكونوا يكتفون بقراءته وتحفيظه، بل كانوا يفسرون منه ما يتعلق بالأمور اليومية الحياتية.

ونحن نذكر ان مدن غانا - سواء في ذلك العاصمة وغيرها - تهدمت بعد زوال ملكها. لذلك فقد انقضى ما كان فيها من تقليد - من حيث وجود المعلمين وحملة العلم - وانتهى أمره بزوالها.

لكن مدن مملكة مالي لم يهدمها اباطرة سنغاي لما استولوا عليها. لذلك، فالتقليد العلمي الذي بدأ من قبل استمر في حمى الدولة الجديدة. فقد كان في امبراطورية مالي عدد من مراكز العلم والتعليم. وكان السودان أنفسهم يعملون أئمة في المساجد. وقد ذكر عن فديا (من بلاد ماسنة) انها كانت بلد الفقهاء، ومثل ذلك روي عن كنجور وكابر.

وقد كشف في السنوات الاخيرة عن شواهد قبور في قرية سانه، الواقعة على مقربة من غوا، على أحدها نقش يؤرخ لوفاة رجل قضى وهو يدافع عن الاسلام. والنقش يشير الى عبدالله محمد المتوفى سنة ٤٩٤ للهجرة (١١٠٠ للميلاد)، والشواهد جميعها هي من حجر رخامي اسباني الاصل. وبهذه المناسبة ان هذه النقوش الشواهدية هي أقدم ما عثر عليه من كتابة من هذا النوع في المنطقة بأجمعها.

ويمكن القول اجمالاً ان مراكز التعليم اشتهرت في نياني (أحد عواصم دولة مالي) بدءاً من مطلع القرن الثامن/ الرابع عشر، وفي تمبكتو بدءاً من مطلع القرن التاسع/ الخامس عشر. وكانت مدارس هذه المدينة غنية بعلمائها. أما غوا فقد عرفت مدارس ذات قيمة في القرن الخامس/ الحادي عشر، ان لم يكن حتى قبل ذلك.

وكان الملوك يحرصون على دعوة العلماء الى بلادهم واكرامهم. فمن ذلك ان منسى موسى، ملك مالي، لما أدى فريضة الحج (٧٢٤/ ١٣٢٤) اصطحب، في عودته، ابا اسحق الساحلي الاندلسي الاصل، وقد كان أديباً ومهندساً وله شعر حسن. وقد بنى للسلطان مسجداً وقصراً في عاصمة ملكه، ثم استقر في تمبكتو. ولما زار ابن بطوطة مالي استضافه أبو اسحق الساحلي (٧٥٤/ ١٣٥٣). وكان السلطان منسى موسى يبعث

بطلاب من السودان الى فاس ليتفقهوا فيها. وقال السعدي ان الفقيه القاضي كاتب موسى قد رحل الى فاس لتلقي العلم فيها وكان ذلك بأمر السلطان، الذي وصفه المؤرخ السعدي بأنه «السلطان العدل الحاج موسى». كان هذا إمام جامع تمبكتو. وقد كان خليفته سيدي عبدالله البلبالي وهو أصلاً من توات لكنه كان قد درس في فاس.

وقد انتهى أمر مراكز العلم، في السودان خصوصاً، الى مدن ثلاث هي: غاو (اوغوا) وجني وتمبكتو. وانضمت كانو، مدينة الحوصا، الى هذه.

تعود غاو، من حيث إنشاؤها، الى وقت مبكر، اذ يرى بعض الباحثين أنها كانت موجودة في القرن الثامن الميلادي. لكنها أصبحت مركزاً ذا أهمية خصوصاً لما اتخذ منها آل زيا (ضيا) العاصمة الاولى لدولة سنغاي. وازدهرت في القرن التاسع/ الخامس عشر. وقد وصفها الحسن الوزان (وكانت زيارته لها في مطلع القرن السادس عشر للميلاد)، فقال إنه فيها، كما في نيابي، مساجد كثيرة وفقهاء وعلماء يدرسون في المساجد. وقد قدر عدد البيوت في غاو سنة ١٥٨٥ بما يزيد على ٧٦٠٠ بيت.

أما جني، التي بدأ نجمها يتألق في القرن الخامس/ الحادي عشر، فانها بلغت شأوا في حماية العلم والحرص عليه لم يسبقها فيه سوى تمبكتو. فكان بها عدد كبير من العلماء وطلاب العلم. وقد عرف من علمائها مورى غاما الذي كان عالم المسجد الاعظم فيها. وجذبت جني اليها عدداً كبيراً من علماء المسلمين من خارج البلاد.

بدأ نجم تمبكتو يلمع في القرن الخامس/ الحادي عشر، اذ احتل المرابطون ولاطة وقضوا عليها. وهذا البدء كان اقتصاديا، بمعنى ان الكثير من تجارة أواسط حوض نهر النيجر تحولت اليها، بحيث أصبحت المركز الاول للتبادل التجاري في السودان العربي. وقد تكاثر سكانها وبنيت فيها المساجد وقصدها كثير من العلماء وتحلق حولهم العدد الكبير من الطلبة. ومع ان احتلال محمد اسقيا للمدينة أدى الى نكبة علمائها على يده، فإن هذه النكبة لم تؤثر نهائياً على المدينة. «فقد عرفت سنغاي في أيام الاسبقيين (الاسكيين) كل المعارف التي توصل اليها العالم الاسلامي، سواء عن طريق الكتب التي كانت ترد اسواقها (وبخاصة أسواق تمبكتو) بكميات كبيرة، أم عن طريق الفقهاء التجار الذين كانوا يذهبون للتجارة، وفي الوقت نفسه يدرسون ويعلمون، أم عن طريق الطلاب السودانيين الذين عرفت عنهم في هذا الوقت حركة دائبة باتجاه شمال افريقيا ومصر للدراسة. وكانوا يعودون بعد انتهاء دراستهم، فيشيعون ما تلقوه من معارف في البلدان التي كانوا قد قصدوها للدراسة والتعلم. كما انه أنجز الكثير في هذا الميدان عن طريق العلماء الذين كان ملوك الاسبقيين يعملون على جلبهم من مناطق العالم الاسلامي المختلفة للتدريس، ويبذلون لهم من ضروب المساعدة ما يحملهم في كثير من الاحيان على الاقامة مدة طويلة، كما فعلوا مع

المغيلي والجلال السيوطي ومع عدد آخر من علماء فاس ومراكش» (عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي ص ١٤٤).

ويمكن ان نحصل، من المصادر المعاصرة وأخبار الرحالين، على وصف صحيح لسلّم التعليم في سنغاي، وهذا يعني تمبكتو في الدرجة الاولى، ولكنه ينطبق على الاقل في أدواره الاولى على أماكن أخرى.

كان التعليم الابتدائي يتم في المساجد والكتاب. فنحن واجدون أن التلميذ الذي ينهي ما يمكن ان يسمى بالدراسة الاولية، كان ينتقل الى جامع الونكريين، اذ يمكن اعتبار الدراسة فيه من النوع الثانوي. أما في جامع السنْكري فكان الطلاب يتلقون التعليم العالي. وقد حدد عبد القادر زبادية ذلك بقوله: «... حيث تدرس المواد في شكل اختصاص وتتناول بتفصيلات واسعة، وتناقش هناك المسائل على مستوى أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون حتى ذلك العهد. وكان لا يجلس للتعليم في هذا النوع الا اساتذة متضلعون قد أحاطوا بكل جزئيات المواضيع التي يدرسونها. وكان بينهم كثير من المغاربة. ومما يدل على تضلعهم ان امهات الكتب التي كانت تدرس في المشرق والمغرب العربيين كانت ذاتها، تدرس في السودان خلال هذه الفترة أيضاً». وقد روى السعدي ان الفقيه عبد الرحمن التميمي ورد من الحجاز على السودان (مع منسى موسى) وجلس في الجامع للتدريس، ولكنه ما لبث ان أدرك ان المدرسين حوليه أكثر تضلعاً منه فرحل الى فاس ليزداد تخصصاً، حتى يمكن ان يتصدر للتدريس في السودان.

وكان نظام الاجازات معروفًا في السودان في ذلك الوقت.

ومع ان العلماء في دولة سنغاي قد نكبوا بسبب حملة المغرب على امبراطوريتهم (٩٩٨/ ١٥٩٠)، فإن الامر عاد الى ما كان عليه من قبل مع تنظم جديد. فالطفل كان يدفع به، عند بلوغه سن السابعة الى «السيد» ليعلمه القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة. وكان المعلم يتلقى من تلاميذه «حق الاربعاء» وهو ودع. وروي ان المعلم تكريا نال من تلاميذه ١٧٢٥ ودعة مقابل تعليمه اياهم.

ظل التعليم الاعلى يتم في الجوامع. لكن جامع السنْكري في تمبكتو أصبحت منزلته الخاصة معترفاً بها، واعتبر معهداً للدروس العالية. وكان جامع سيدي يحيى (وهو عالم مغربي من سوس) وجامع خالد بليان السنْكري في المرتبة وفي درجة التعليم على ما يرجح.

أصبحت الكتب مطلوبة الى درجة كبيرة. وكانت الكتب الواردة من المغرب مرتفعة الثمن. ومع ذلك فقد اقتنى العلماء مكتبات خاصة بهم. وقد ذكر أحمد بابا ان مكتبته كان فيها ألف وستمئة مجلد.

وعلى نحو ما وصل العلم الى حوض النيجر عن طريق التجارة والحج أصلاً،

وصل الى كانو التي كانت أكبر مدن الحوصا (الحوسا او الهوسا)، كما وصل الى كتسينا. ونقل عن مؤرخ محلي أنه في أواسط القرن التاسع/ الخامس عشر جاء جماعة من مالي وأخذوا يعلمون التوحيد والنحو. اما قبل ذلك فقد كان التعليم يقتصر على تعلم القرآن والفقه والحديث. وكان بين الذين جاءوا كانو المغيلي، الذي انتقل فيما بعد الى غاو.

ولأن الاسلام دخل السودان وما اليه بتأثير المغرب أصلاً، فإن المذهب الذي غلب على السودانيين هو المذهب المالكي.

ولنتحدث الآن قليلاً عن بعض العلماء المحليين او الذين جاءوا من الخارج واستوطنوا مدن السودان ليعلّموا الناس ما يصلح به أمر دينهم ودنياهم.

من هؤلاء محمد بن عبد الكريم المغيلي وهو تلمساني المولد. كان فقيهاً عالماً واعظاً خطيباً فصيحاً، وكان كثير التنقيل والاسفار. وكان المغيلي قد استقر بعض الشيء في كانو وكان يراسل محمد اسقيا (اسكية). وأخيراً انتقل الى غاو وأقام هناك زمناً.

أثناء إقامته في كانو وضع المغيلي كتاباً لملك الحوصا محمد روفا (وذلك حول سنة ١٤٩٠ م) بيّن فيه ما يترتب على الملك القيام به من واجبات للمحافظة على ملكه وشعبه. ومن الطبيعي ان تكون آراء المغيلي مبنية على القواعد الاسلامية. وبعد عشر سنوات انتقل المغيلي الى غاو، التي كانت قد أصبحت عاصمة سنغي. وهناك قام بنشر ارائه نفسها.

كان من العلماء الذين برزوا في حوض النيجر المتوسط احمد بابا، المولود في تمبكتو سنة ٩٦٣/ ١٥٥٦. وقد وضع العالم عدداً من الكتب في الشريعة والقواعد الاسلامية. كما ألف لمشاهير العلماء المسلمين. ولما احتل المغاربة تمبكتو سنة ١٥٩١/٩٩١، رفض أحمد بابا ان يدخل في خدمتهم، فأسر ونقل الى مراكش وعومل معاملة قاسية. لكنه أعيد بعد فترة الى بلاده، وظل هناك يندد بالحملة المغربية على بلاده.

وعندنا مؤرخان سودانيان مولودان في تمبكتو: الاول، هو محمد كعيت الذي كان قد بلغ الشباب لما استولى محمد اسقيا (اسكيا او اسكية) على دولة سنغاي، فانضم الى حاشيته ورافقه لاداء فريضة الحج، ولقي الملك الشريف العباسي المتوكل على الله الذي ولي الخلافة العباسية في مصر من ٨٨٤ الى ٩٠٣/ ١٤٧٩ ـ ١٤٩٨، وقد ألبس المتوكل اسكية الحاج محمد القلنسوة والعمامة ومنحه لقب خليفة بلاد التكرور، فجعل له ذلك بين المسلمين من قومه منزلة خاصة. (وبلاد التكرور كانت يومها تعني جميع بلاد السودان من غربي بحيرة تشاد الى المحيط). وقد بدأ محمود كعيت كتابة تاريخ السودان في أوائل القرن العاشر/ السادس عشر، ولكن ابناء محمود وأحفاده،

وكلهم عالم، أضافوا ملاحق للكتاب بحيث انتهى سنة ١٠٧٣/ ١٦٦٥. والكتاب، واسمه «تاريخ فتاش في أخبار البلدان والجيوش وكبار الناس»، وهو كتاب فيه تاريخ وقصص شعبية، تبين تطور المجتمع من خلالها بسبب احتوائها على خلاصة فولكلورية للمنطقة.

أما المؤرخ الثاني فهو عبد الرحمن السعدي الذي ولد بعد احتلال مدينته بسنوات خمس. ويحدثنا عن وضعه كتابه «تاريخ السودان» فيقول إن ما شاهده وجرّبه ومر به من الأسى والشدة والحزن حمله على وضع هذا التاريخ. ويروى ان السعدي عمر طويلاً. فقد نقل انه توفي وهو في سن المئة والخامسة والعشرين. وعلى كل فقد توقف عن الكتابة سنة ١٠٧٣/ ١٦٦٥. وبذلك، فالكتابان يؤرخان لفترة واحدة تقريباً. و«تاريخ السودان» مثل «تاريخ الفتاش»، خزانة معرفة فضلاً عن الاحداث وهي معرفة لم يعد المؤرخ يستغني عنها إذا أراد ان يغوص في الاعماق ليسبر الاغوار.

ولنختم هذا الفصل بنموذجين قصيرين، الواحد من قلم السعدي يصف فيه شخصية سن علي وهو الذي انتزع محمد اسقيا الملك منه. يقول المؤلف: «أما الظالم الاكبر والفاجر الاشهر سنّ علي... فإنه كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة، ظالماً فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء. قتل من الخلق ما لا يحصيه الا الله تعالى. وتسلّط على العلماء والصالحين بالقتل والاهانة والاذلال... ومن اخلاق هذا الظالم الفاسق المتلاعب بدينه... ومن أخلاقه ان يأمر بقتل الانسان، ولو كان اعز الناس عنده، بدون سبب ولا موجب».

ومحمود كعت، الذي لازم محمد اسقيا (اسكية) قال في وصفه: «وله من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده، وله من حب العلماء والصالحين والطلبة وكثرة الصدقات وأداء الفرائض والنوافل... وكان من عقلاء الناس ودهائهم، والتواضع للعلماء وبذل النفوس والاموال لهم مع القيام بمصالح المسلمين واعانتهم على اعانة الله وعبادته. وأبطل ما عليه شي (سن) علي من البدع والمناكر والظلم وسفك الدماء. وأقام الدين أتم قيام وأطلق كل من ادعى الحرية من استرقاقهم ورد كل مال غصبه شي (سنّ) الى مواليهم. وجدد الدين وأقام القضاة والائمة. جازاه الله عن الاسلام خيراً».

٧ ـ الحملة المغربية على السودان

في السنة ١٥٩٠/٩٩٨ أرسل أحمد المنصور سلطان المغرب السعدي (حكم ٩٨٦ ـ ١٠١٢/ ١٥٧٨ ـ ١٦٠٣) حملة ضد امبراطورية سنغاي في أيام ملكها اسحق (الثاني) ابن داود اسقيا (اسكية) الذي تولى شؤون دولته من ٩٩١ الى ١٠٠٠/ ١٥٨٣ الى ١٥٩١. ولا بد لنا ان نتساءل عن سبب هذه الحملة او أسبابها.

ثمة أمور يجب ان نذكرها كي يتضح لنا لماذا فعل المنصور هذا الامر. كان الموحدون (٥٢٤ ـ ٦٦٧/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧) قد تلقب ملوكهم بلقب امير المسلمين ثم بدلوه بأمير المؤمنين. ولعل السبب، فضلاً عن اعتقادهم بأنهم هم مصلحو الامة في ذلك الوقت، هو فراغ الاندلس من الخلافة، وانتقال الخلافة الفاطمية الى مصر. وقد انتقل هذا اللقب، الى الذين خلفوهم في حكم المغرب. لكن الملوك السعديين (٩١٧ ـ ١٠٦٩/ ١٥١١ ـ ١٦٥٩) كانوا أشد تمسكاً به. وكان المنصور بالذات حريصاً على ان يعتبر الخليفة الوحيد في الجزء الشمالي الغربي من افريقيا. ولنذكر انه في سنة ٩٢٣/ ١٥١٧ احتل الاتراك العثمانيون مصر ووضعوا حداً (واقعياً) للخلافة العباسية فيها مصر. وإذا كان سلاطينهم قد لبسوا جبة الخلافة يومها (أو بعد ذلك)، فهم بالنسبة الى ذلك الجزء من العالم الاسلامي بعيدون.

ولنذكّر أنفسنا ان محمد اسقيا (اسكية) لما أدى فريضة الحج عام ٩٠٢/ ١٤٩٦، لقي في القاهرة الخليفة العباسي (في مصر) المتوكل، الذي ألبس الحاج القلنسوة والعمامة ومنحه لقب «خليفة بلاد التكرور»، وكان معنى هذا ان ملوك سنغاي أخذوا يستعملون لقب أمير المؤمنين أيضاً، وهو أمر لا يقبله المنصور السعدي.

وكان ان صاحب بورنو (ابا العلا ادريس) قد بايع المنصور بالخلافة، أي بإمرة المؤمنين (٩٩١/ ١٥٨٣)، فطلب المنصور من اسحق اسقيا (اسكية) ملك سنغاي ان يبايعه أيضاً. لكن اسحق انكر على المنصور ذلك، ورفض الطلب، وأصر على ان المنصور واسحق متساويان في أمرة المؤمنين، كل في منطقته.

وفي سنة ٩٩٠/ ١٥٨٢ أرسل المنصور حملة عسكرية لاحتلال توات وتيكورارين، في الصحراء الكبرى. وبعد ذلك كتب المنصور الى اسحق (سنة ٩٩٨/ ١٥٩٠) يطلب منه أن يبعث اليه بمثقال ذهب عن كل حمل ملح من معدن الملح في تغازي، معتبراً ان

المعادن كلها للإمام، وأن هذا المثقال من الذهب عن كل حمل انما هو عون لجيوش الاسلام. ويروى أن غضب المنصور اشتد على اسحق.

وقد روى المؤرخون المعاصرون أن المنصور السعدي، لما اعتزم تنظيم الحملة على سنغاي، جمع مجلساً للشورى، وأنه قال للمجتمعين: «فاعلموا ان المرابطين صرفوا عنايتهم لغزو الاندلس ومقاتلة الافرنج ومن بذلك الساحل من أمم الاروام (الفرنجة). والموحدون اقتفوا سبيلهم في ذلك وزادوا بحرب ابن غانية (من الثائرين المغتصبين في منطقة الجزائر الحالية). والمرينيون كان غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان. ونحن اليوم قد انسدت أبواب الاندلس باستيلاء العدو الكافر عليه جملة (كانت حتى غرناطة قد سقطت سنة ١٤٩٢)، وانقضت عنا حروب تلمسان ونواحيها من الجزائر باستيلاء الترك عليها». وعندما يعلن الملك السعدي ان الابواب المذكورة قد أقفلت في وجهه، فمعنى ذلك ان الباب الوحيد المفتوح هو باب السودان - دولة سنغاي الغنية بالكثير من المواد، الكبيرة الاسواق حيث تباع السلع الاستهلاكية، الضرورية وسواها، وحيث يجمع الذهب في أسواقها. ومن يدري فقد يؤدي الفتح، عندما يتم، الى الوصول الى مناجم الذهب او معادنه، كما كانوا يقولون يومها.

وأراد المنصور ان يبدو أنه محق في السير بحملة ضد سنغاي، فاستجاز عالمين مصريين، وعقد مجلس شورى عرض عليه الامر. وأوضح المنصور وجهة نظره، وفند رأي من ظن ان الصحراء والسودان صعبان على جند المغرب. وأخيراً وافق الجميع على وجوب ارسال حملة الى السودان. وليعد المنصور جنوده وعدتهم، وليسيروا بعون الله.

كان عمل المنصور وتنظيمه لإعداد الحملة على غاية من الدقة. فاشتغل بتجهيز آلة الحرب، وأمر القادة بأن يقوّموا حصص القبائل من الجند وما يحتاجون اليه من ابل وخيل وبغال. وروي ان المنصور أخذ هو نفسه «بتقويم آلة الحرب من المدافع والعجلات التي تحملها والبارود والرصاص والكور، وتقويم الخشب واللوح والحديد للغلائط والسفن والفلك، والمجاذيف والقلوع والبراميل والروايا لحمل الماء. وألف النجارون ذلك في البر الى ان تألف، ثم خلعوه وشدوه اجمالاً. واستمر الحال الى ان استوفى المنصور أمر الغزو في ثلاث سنين».

كانت الحملة التي جهزت بقيادة جودر باشا، وقد اجتمعت في مراكش في أواخر سنة ٩٩٨/ ١٥٩٠. وكان لجودر عشرة من القادة كلفوا بمساعدته وبينهم واحد تركي وثلاثة اندلسيون. أما أفراد الحملة فقد كانوا، فيما توصلنا اليه: ٢٠٠٠ من حملة البنادق (وأكثرهم من غرناطة بالاندلس و٥٠٠ من حملة البنادق الفرسان و١٥٠٠ من حملة الرماح من العرب). وكان الى جانب ذلك ١٦٠٠ من الاتباع. وقد رافق الحملة ثمانية آلاف من الابل وألف من الخيل واحتاجت الى ١٨٠ خيمة، كما حمل الجند معهم

٣٠٠ قنطار من البارود و١٠ قناطير من البمب و٣٠٠ قنطار من الرصاص. وكانت المدافع مما أعد لنقله على الحيوانات والعربات حيث أمكن.

كانت الطريق التي اتبعت: مراكش ـ درع ـ مرتفعات تيزي القلاوي ـ لقتاوة ـ تندف ـ تغازي (الغزلان) ـ كبرا الواقعة على النيجر. والمسافة التي قطعتها الحملة من مراكش الى كبرا بلغت ٢٠٤٠ من الكيلومترات، واحتاج الجيش الى ١٣٥ يوماً لاجتيازها (بما في ذلك أيام الاراحة).

والباحثون في شأن هذه الحملة متفقون على ان الجيش فقد نصف أفراده في الطريق، والباقون الذين وصلوا كانوا متعبين. ولم تقع معركة عند وصول الحملة. ومما أنقذ الموقف بالنسبة للجيش المغربي هو ان اسحق اسقيا (اسكية) ومحاربيه لم يظهروا في الميدان، لذلك أتيح لجودر باشا ان يريح جيشه ويعوض النقص في مؤونته وحاجاته.

تقدم جودر نحو تجمعات سنغاي بقيادة اسحق، واشتبك الفريقان في معركة غير متكافئة لأن جيش ملك سنغاي هرب من القتال لما أطلقت المدافع نيرانها، وهو أمر لم يعرفه سكان تلك المناطق. وكان ذلك في أوائل سنة ٩٩٩/١٥٩١. وبعد فرار اسحق استولى جودر على تمبكتو، ثم لحقه جودر فحصره في عاصمته غوا (كاغوا). فطلب الملك الصلح لقاء ضريبة ومعلوم سنوي، فأرسل جودر بذلك الى المنصور مع هدية فيها عشرة آلاف مثقال من الذهب ومئتان من الرقيق.

أما الذي عرضه اسحق على جودر فهو ان يقدم للمنصور مئة ألف ذهب وألف خديم، مع ضريبة سنوية، على ان ينسحب الجيش وتترك لأسحق أرضه وبلاده.

لم يقبل المنصور العرض وحنق على جودر وعزله وبعث خلفاً له محمود بن زرقون باشا، الذي وصل تمبكتو في صيف تلك السنة (٩٩٩/١٥٩١).

تجددت الحرب، واندفع محمود في هجومه، وقام اسكية محمد كاغ، وهو أخو اسحق، بعزل أخيه وأخذ البيعة لنفسه. والتقت الجموع في معركة فاصلة انتهت بانتصار محمود وجيشه، وتوزع السودان ايدي سبا. ولحق محمود أولاً باسحق فانتهب أمواله، وهرب اسحق الى القفر فهلك فيه. وتنى محمود على اسكية محمد كاغ، فهزمه وقتله واستولى على ما معه.

وظل السودان تابعاً للمغرب حتى سنة ١٠٢٧/ ١٦١٨ لما انسحبت الجيوش المغربية منه في أيام سلطان المغرب زيدان.

كانت المسألة الاولى التي ترتب على المحتلين القيام بها هي الاحتفاظ بالبلاد بشكل منظم. وهي منطقة يبلغ طولها نحو ١٥٠٠ كلم. وهناك الجوار الذي يمكن ان يؤيد ابناء البلاد اذا فكروا بالثورة ضد الغازي. لذلك فقد احتاج المدبرون الى حاميات قوية منظمة، وإلى مدد مستمر. وكان الحكام (الباشاوات) يرسلون لادارة هذه البلاد

الواحد بعد الآخر لمدة قصيرة. لذلك فقد تعثرت الادارة. ولما توفي المنصور، وعصفت بالمغرب مشاكل الارث والخلافة، تبع ذلك اضطراب في ادارة البلاد المحتلة. ولذلك رأى زيدان ان الانسحاب هو الحل المعقول، فسحب قواته. وظلت البلاد تعصف بها الخلافات، من دون ان تنجح أسرة من الاسر في نشر الامن في ربوعها.

أما في ما يتعلق بالذي كان يأمل المنصور في الحصول عليه من بلاد السودان فيمكن القول اجمالاً إنه شمل ما كان موجوداً في أسواق البلاد التي احتلت من التبر والذهب (القطع)، إلا ان مصادر الذهب لم يصل المغاربة اليها. فهذه كانت في وَنْغَرة، التي ظلت سراً حتى القرن الثامن عشر. ولكن الذي وصل المنصور من ذهب الاسواق كان كثيراً. وقد روى تاجر انكليزي اسمه هنري ماروك كان يقيم في مراكش، انه رأى بأم عينيه ثلاثين بغلاً محملة بالتبر تدخل المدينة مرسلة من محمود بن زرقون الى المنصور. هذه الرواية جاءت في رسالة بعث بها ماروك المذكور الى شريكه المقيم في لندن واسمه انتوني داسل وذلك في شهر آب (اغسطس) ١٥٩٤. وفي رسالة أخرى من ماروك الى داسل كتبت في الشهر نفسه يقدر فيها ماروك ان التبر الذي كان يصل الى بلاط المنصور سنوياً بنحو ستين قنطاراً، وذلك من تمبكتو. وقد قُدر حمل الثلاثين بغلاً بما قيمته ١٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني (بعملة الوقت). أما ما كان يأتي من تمبكتو سنوياً فقد قدر بنحو ١٥٠,٠٠٠ استرلينية. (وروى انكليزي آخر ان جودر لما عاد الى مراكش حمل معه ما قيمته نحو ٦٠٥,٠٠٠ جنيه استرليني). فلا غرابة ان يسمى المنصور بعد ذلك ـ المنصور الذهبي، لما فتح عليه من ذهب السودان.

لكن الرقيق والعاج والاخشاب كانت ترد الى المغرب بكثرة. وحري بالذكر أن هذه المتاجر كانت من قبل ينقلها التجار ويفيدون منها، فأصبحت الآن موضع مصادرة باسم السلطان.

كان تصرف المنصور مع أهل السودان موضع نقد شديد أحياناً. فقد كان أهل السودان أصحاب دين وتقوى، وكانوا من أحسن الأمم اسلاماً وأقومهم ديناً وأكثرهم للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة، لذلك انتقد الناصري المؤرخ استرقاق أهل السودان ونقل القطائع الكثيرة منهم كل سنة وبيعهم في الاسواق في الحاضرة والبادية.

وأمر آخر سبب نقداً شديداً للمنصور هو معاملته للعلماء في سنغاي. فقد نكب العلماء، وأنزل الحكم المغربي ضربة مؤلمة بفئة محصورة ومحدودة من علماء تمبكتو شملت عائلة اقيت (اكيت) الصنهاجية ورؤساء عائلة الصقلي. وقد أعدم بعض العلماء والشرفاء مع أتباعهم، ونقل نحو مئة منهم الى مراكش مصفدين بالسلاسل. وجمعت الكتب والتحف والودائع التي كانت تحويها دور اولئك العلماء، ووجهت الى المغرب أيضاً. صحيح ان الذين ظلوا من هؤلاء أحياء افرج عنهم وأعيدوا الى أماكنهم بعد وفاة المنصور (١٠١٢/ ١٦٠٣)، ولكن الأذى كان قد حدث.

ولنذكر الآن أنه في القرن الخامس عشر أخذ البرتغاليون ينتقلون من مكان الى آخر على شاطىء المحيط الاطلسي مكتشفين سواحل القارة الافريقية. وكانوا يعنون، أول الامر، بالحصول على السلع الافريقية من الداخل، مثل الذهب والفلفل. ثم عنوا بالاستقرار في الموانىء التي بنوها، واستمروا في الاتجاه جنوباً حتى اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ـ حول جنوب افريقيا.

ولم يلبث ان جاء بعدهم ـ منذ القرن السادس عشر ـ الهولنديون والفرنسيون والانكليز. وهكذا تعرض غرب افريقيا لهجمة استعمارية شرسة عنيفة، كان من شأنها ان تبدل أموراً كثيرة فيه.

عاد السودان، بعد الحملة المغربية، الى ما كان عليه من زمن بعيد أي الى وجود دويلات مستقلة. وتبع ذلك ان النظرة العالمية التي أخذت تنمو بسبب انتشار الاسلام بين السكان، ولو ان الانتشار اقتصر في الغالب على سكان المدن والقرى الكبيرة، هذه الرؤية العالمية أصابها شيء من الوهن. وحتى انتشار الاسلام توقف بعض الشيء. ذلك ان الأمن الذي عرفته المنطقة الواسعة خلال دولتي مالي وسنغاي والنشاط التجاري الذي توطد بسبب ذلك، كانا عاملين كبيرين في انتشار الاسلام، فلما ضعفا أصبح الانتشار بطيئاً. وأهم من ذلك انعدم «العالم» النشيط المتنقل الداعي الى الاسلام، لأنه لم يعد يجد ما يشجعه على ذلك.

وإلى انعدام العنصر الاساسي للتقدم وهو الأمن (طبعاً مع التجارة) فقد سيطر الطوارق، بعد انسحاب المغاربة من السودان، على «الساحل» (الصحراوي) من أواسط النيجر الى بحيرة تشاد.

ودولة بورنو، التي بلغت شأوا كبيراً أيام ادريس عَلَوْمَه في القرن العاشر/ السادس عشر، أخذت تنحدر تدريجاً بعد ذلك.

وكانت ثمة فترة من الزمن شملت القرن السابع عشر وجزءاً من القرن الثامن عشر قبل ان عاد للإسلام نشاطه في غرب افريقيا.

٨ ـ سلطان مالي حاجاً

١

رأى جغرافيو العرب القدامى في الصحراء الافريقية الكبرى، بحراً من الرمل، ولذلك أطلقوا على المنطقة المصاقبة للصحراء الى الجنوب الغربي منها اسم الساحل. وهي سهوب ومراع تتلوها الى الجنوب مناطق الغابات المدارية. والجزء الغربي من هذه السهوب والمراعي والغابات هي التي تعرف باسم السودان الغربي.

وسكان السودان الغربي كانوا يقيمون في قرى ويعملون في الزراعة، فضلا عن تربية أنواع من الماشية. لكن هذه المناطق بأجمعها كان ينقصها الملح، وهو حاجة أساسية في حياة الناس. والملح كان يوجد في مناطق تقع في الاجزاء الشمالية من الصحراء. فكان يحمل الى السودان، خصوصاً الى الغابات، عبر أسواق تقوم في أطراف الساحل. وكان السودانيون يدفعون ثمن الملح ـ او يقايضون بالملح ـ الذهب (التبر) الذي كان يعثر عليه في نواح متعددة من الغابات. وهكذا قامت العلاقات التجارية بين هاتين المنطقتين منذ القدم، وكان التجار هم سكان الصحراء. ويرى الباحثون أن هذه التجارة كانت قائمة منذ أيام قرطاجة، المدينة الفينيقية الانشاء (القرن الثامن او التاسع قبل الميلاد). ذلك بأن حملة الملح الى الجنوب، وهم الذين كانوا يأتون بالذهب بديلاً عنه، كانوا ينقلون هذا الذهب الى شمال افريقيا. وعندها يحملون من تلك الجهات سلعاً أخرى منها الاقمشة والاوعية النحاسية والزجاج والودع.

ومع ان الاتجار بين شمال افريقيا والسودان الغربي تقلص حجماً ونوعاً أيام الرومان والبزنطيين، فإنه عاد الى نشاطه الاول بل ازداد كمية ونوعاً بعد ان افتتح العرب الشمال الافريقي وأقاموا ولايات ودويلات فيه وفي الواحات الصحراوية. وكان الجمل وصل الى شمال افريقيا في أيام البزنطيين، لكن استعماله سفينة للصحراء، وعلى مقياس واسع، تم لما طوعه العرب وتلاميذهم عبر الصحراء. فهم قوم كان لهم بالجمل معرفة وبطرقه الفة من الجزيرة العربية.

منذ تلك الأثناء اخذت القوافل الضخمة التي تجتاز الصحراء تحمل مختلف أنواع الاقمشة المصرية مثلاً والمغربية، ثم فيما بعد، الاقمشة الاوروبية، وأوعية النحاس وأوانيه وأصناف الزجاج، ثم الاسلحة. وكانت القوافل تحمل الى الشمال الذهب

والأخشاب (مثل الابنوس) والريش والرقيق والعاج. وهذه السلع المحمولة من الجنوب كانت توزع في الاسواق المغربية والاوروبية: فكل كان يبتاع ما يحتاجه ويبيع، في مقابل ذلك، ما يصنعه.

والمناطق التي كانت تقوم فيها الأسواق أساساً (في الجنوب) كانت في السهوب والساحل، ثم اتجهت نحو الغابات المدارية، لكنها لم تقم حول معادن الذهب. فقد حافظ السودانيون على سرية هذه المناجم. فكانوا هم يحملون الذهب الى الاسواق ـ التي سنتحدث عن بعضها بعد قليل ـ ويعودون بالملح أصلاً، وغيره اضافة الى جماعتهم.

إلا ان القرى والبلدان التي كانت تتجمع فيها المتاجر، كان لا بد لها من تنظيم. وكان التنظيم معناه أن تتغلب بلدة او جماعة او زعيم على الآخرين فتقوم دولة هي التي تتعهد بالقيام بالامور التنظيمية الاساسية، وهي الحفاظ على الطرق والاسواق وأرواح العباد.

٢

قامت في السودان الغربي، وفي المنطقة التي يجري فيها نهر النيجر وفروعه، وتلك التي تحيط بها، دويلات ودول كان لها دور مهم في هذا الذي ذكرنا. كما انه كان لها دور في انتشار الاسلام في مناطق كثيرة. لكن الذي يعنينا الآن دولتان هما: غانا ومالي.

غانا ـ كانت امارة واغادو هي أساس دولة غانا. وظهرت الى الوجود في القرن الثامن للميلاد. وأصبحت حوالى سنة ٨٠٠ م دولة تجارية قوية، وكان ملكها يطلق عليه اسم غانا ومعناها زعيم الحرب، ومن ثم أصبح الاسم علماً للمملكة. وإذ انتظمت امور هذه الدولة أخذت تتوسع في المنطقة، حتى شملت الجزء الواقع بين مجرى النيجر الاعلى ونهر السنغال، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ثم انها بلغت اكبر اتساع لها في القرن التالي. وكانت العاصمة تنتقل من مكان الى آخر حسب مشيئة السلطان. فقد بدأت في اكوار ثم انتقلت الى غانا (المدينة) وأخيراً الى كومبي صالح، التي كانت يومها أكبر مدينة في المنطقة بأسرها، وقدر عدد سكانها بنحو ١٥ ألفاً.

ومن حسن حظنا ان جغرافيّاً عربياً اندلسي النشأة والسكن عني بتلك المناطق. ومع انه لم يزر أياً من تلك المدن او الاجزاء من البلاد، الا انه جمع عنها ما يعتبره الكثيرون معلومات صحيحة دقيقة. هذا الجغرافي هو البكري، الذي وضع كتابه «المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب» وهو جزء من اجزاء الكتاب المعروف باسم «المسالك والممالك».

كان الاسلام وصل الى السودان الغربي قبل سنة ١٠٠٠ م. ولكنه لم ينتشر بين

جميع السكان. ولعله لم يقبل به إلا فئة من أصحاب السلطان. لكن ظهور دولة المرابطين (٤٤٨ ـ ٥٤١ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١٤٧ م) بدّل الوضع في غانا. ذلك لأن المرابطين احتلوا عاصمة غانا (٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م)، وفرضوا الاسلام على السكان. ومع ان مملكة غانا عادت فحررت نفسها من الاحتلال، فقد أخذت بالضعف المستمر مع مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وزالت من الوجود في أواسط القرن (أي حوالى سنة ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٠ م).

وفرض ملوك غانا اتاوة ومكوساً على السلع المختلفة. فكان حمل حمار من النحاس مثلاً يدفع عنه خمسة مثقالات من الذهب دخولاً. وكان التاجر يدفع ديناراً عن كل حمل ملح يدخل البلاد. لكنه عند اخراجه من البلاد يدفع عنه دينارين. وكان ملك غانا يعتبر كل ذهب يعثر عليه قطعاً هو ملك له. أما ما كان يتاجر به فهو التبر فقط. ويقول البكري لو ان ملوك غانا لم يفعلوا ذلك وسمحوا للذهب المعدن بالتداول في الاسواق، لما كانت له قيمة لكثرته.

يصف البكري مدينة غانا (قبل احتلال المرابطين لها) بقوله: «ومدينة غانا مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه، ولها الايمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم، وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة. والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصور وقباب. وقد أحاط بذلك كله حايط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين».

وبزوال مملكة غانا انتهى أمر مدنها وأسواقها جميعها.

مالي ـ قامت دولة مالي على أنقاض مملكة غانا التي أخذت تتمزق بسبب هجوم المرابطين والثورات المحلية، ومنها ثورة زعيم كانغابا (إحدى الامارات الغانية). لكن نواة مالي كانت الدويلة التي انشأها برماندانا حوالى سنة ١٠٥٠ م. وكان هذا اعتنق الاسلام، كما أدى فريضة الحج. وجاء سندياتا (مار ـ دياتا)، الذي تولى الحكم حوالى سنة ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٥ م، فجعل من الدولة الصغيرة دولة كبيرة، وأصبحت عاصمة كانغابا، القرية الصغيرة، مدينة كبيرة اسمها مالي (او ميلي) وهي عاصمة الدولة الجديدة. وحكم سندياتا ربع قرن. وأهم الملوك الذين خلفوه ساكورا (حوالى ١٢٩٨ ـ ١٣٠٨ م) وهو مغتصب للعرش لكنه كان قوياً فوسع حدود الدولة. وكانت مالي في أيامه تخيف الشعوب المجاورة. وكان هناك منسى موسى (حوالى ٧١٢ ـ ٧٤١ هـ/ ١٣١٢ ـ ١٣٣٧ م) الذي وسع حدود الامبراطورية أيضاً. وتلا منسى موسى أخوه منسى سليمان (٧٤٢ ـ ٧٦٢ هـ/ ١٣٤٠ ـ ١٣٦٠ م)، وهو الذي زار ابن بطوطة مالي في أيامه.

امبراطورية مالي كانت تقع الى الجنوب من غانا. وهذا سببه ان الذهب الذي كان

يأتي غانا من بامبوك شح نسبياً، فيما ازداد الطلب عليه في الشمال (افريقيا واوروبا). لذلك كان من الضروري استغلال مناجم بوره الواقعة الى الجنوب. وهكذا انتقلت الدولة والأسواق. ولكن ظلت مناجم الذهب مجهولة عند التجار المحليين والبعيدين. فكان أهل البلد يحملون الذهب الى الاسواق ويعودون بالملح وسواه من السلع التي مر بنا ذكرها.

امتدت امبراطورية مالي، في أوسع مدى لها، من غاو شرقاً (في مجرى النيجر الاوسط) الى شواطىء المحيط الاطلسي. وبذلك كانت أول دولة تحكمت في جانبي انحناءة النيجر، فأفادت من جميع غلات هذه الارض الخصبة جداً. واستمرت مملكة مالي حتى حوالى سنة ٨٠٠ هـ/ ١٤٠٠ م، اذ أخذت بعدها تخسر نفوذها ووجودها أمام دولة سنغاي، التي خلفتها في أواسط القرن نفسه.

٣

كان برماندانا، مؤسس مالي، أول من أدى فريضة الحج من ملوك مالي، وذلك في أواسط القرن الخامس/ الحادي عشر. ثم قام بأداء الفريضة أيضاً موسى أولي، ومر بالقاهرة في أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م). وحتى المغتصب للعرش ساكوره زار القاهرة في طريقه لأداء الفريضة أيام حكم الناصر محمد (الفترة الثانية ٦٩٨ ـ ٧٠٨ هـ/ ١٢٩٩ ـ ١٣٠٩ م) وقتل في طريق عودته في تاجور (ليبيا). ولكن الذي كانت رحلته لأداء فريضة الحج وزيارته للقاهرة حديث الناس يومها هو منسى (كنكان) موسى، الذي قام بالرحلة سنة ٧٢٤ هـ/ ١٣٢٤ م (حكم موسى منسى ٧١٢ ـ ٧٤١ هـ/ ١٣١٢ ـ ١٣٣٧ م).

خرج موسى من عاصمة دولته في مطلع سنة ٧٢٤ للهجرة. وكان في القافلة جميع أصناف الناس، بدءاً من الحاشية الملكية وفيها الجنود والعبيد للخدمة. وكانت في رفقته زوجه الاولى انادي ـ كوناته ومعها بطانتها من الخدم والعبيد. وانضم الى الركب الملكي عدد كبير من التجار والحجاج اولاً، لأن المناسبة كانت ملكية فخمة؛ وثانياً، لأن الجنود كانوا يحرسونها، فأراد التجار وغيرهم الافادة من ذلك. وقدر عدد الذين كانوا في القافلة بين ٨٠٠٠ و١٢٠٠٠. واتبع منسى موسى الطريق الى ممه على نهر النيجر، ثم الى ولاطة وتوات. ومن المرجح انه سار بعد ذلك الى تغازى وورغله، ثم جارى الطريق الساحلي من خليج سرت الى مصر.

أخرج لفتزيون ان منسى موسى لما وصل مصر ضرب خيامه ثلاثة أيام على مقربة من الاهرام. ومن هناك أرسل الى الملك الناصر محمد (الفترة الثالثة من حكمه ٧٠٩ ـ ٧٤١ هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠ م) هديّة ثمينة هي خمسون ألف دينار من الذهب. وكانت هذه بمثابة اعلان عن وصوله. وأخيراً دخل القاهرة في شهر رجب

٧٢٤ هـ تموز/ يوليو ١٣٢٤ م). وإذا نحن حسبنا الذهب الذي أرسله على السعر الحالي كانت الهدية تساوي ٤, ١ مليون جنيه.

لما غادر منسى موسى عاصمة بلاده كان معه حمل مئة جمل من الذهب - القطع (المعدن) والتبر. وقدر ثلاثمئة باوند وزناً (الباوند = ٤٥٤ غراماً اي ان حمل الجمل يساوي ١٣٦ كيلو غراماً). ومعنى هذا ان السلطان حمل معه ما يساوي ستة ملايين ونصف المليون من الجنيهات الاسترلينية (وهذا يقدر بنحو عشرة ملايين ونصف مليون دولار اميركي).

ظل ذكر منسى موسى وزيارته لمصر وأخبار ادائه فريضة الحج حديث الناس فترة طويلة. والذي أود ان أفعله هنا هو ان أتوقف عند رواية ابن فضل الله العمري التي أوردها في كتابه «مسالك الابصار».

تحدر العمري من أسرة عملت في الادارة المملوكية من أيام جده. وتولى هو مناصب ذات أهمية في حياته، اذ كان في ديوان الانشاء. وأصابه ما أصاب أمثاله من الذين يخدمون السلاطين، اذ فقد الحظوة عند سيده، فنفاه سنة ٧٤٠ هـ/ ١٣٤٠ م الى موطنه، مدينة دمشق. وكتابه «مسالك الابصار في ممالك الامصار» هو معجم جغرافي تاريخي اقتصادي اداري اجتماعي للعالم الاسلامي في القرن الثامن هـ/ الرابع عشر الميلادي.

وكان العمري في مصر نحو عشر سنوات بعد زيارة منسى موسى لها. وروى أخبار هذه الزيارة عن ثلاثة اشخاص ارتبطوا بالسلطان ارتباطاً رسمياً هم: الاول المهمندار أبو العباس أحمد بن الحاكي؛ والثاني، أبو الحسن علي بن أمير حاجب والي مصر (أي الفسطاط) والقرافة (وهي قرافة الامام الشافعي)؛ والثالث، هو مهنا ابن عبد الباقي العجرمي الذي رافق السلطان في طريقه الى الحج وفي عودته من الديار المقدسة وقام بدور المطوف له اثناء ادائه الفريضة... فضلاً عن ذلك، نقل العمري بعض ما سمعه من تجار القاهرة.

٤

نقل العمري عن المهمندار قوله: «لما خرجت لملتقاة (منسى موسى) أعني من جهة السلطان الاعظم الملك الناصر أكرمني اكراماً بليغاً. وعاملني بأجمل الآداب، ولكنه ما كان يكلمني الا بترجمان، مع إجادة معرفته التكلم باللسان العربي. ثم انه قدم الى الخزانة السلطانية جملاً كثيرة من الذهب المعدني الذي لم يصغ وغير ذلك». ونحن نود ان نشير الى ان منسى موسى ما كان ليجيد اللسان العربي. فليس لدينا اي دليل على ان سلاطين السودان في ذلك الوقت كانوا يجيدون معرفة اللسان العربي.

حاول المهمندار إقناع منسى موسى بوجوب الطلوع الى القلعة والاجتماع الى

السلطان، فأبى وامتنع وقال له: «أنا جئت لأحج لا لشيء آخر. وما أريد ان أخلط حجي بغيره. وشرع بالاحتجاج بهذا، وأنا (المهمندار) أفهم انه يرى الحضور نقصاً عليه لما يضطر اليه من تقبيل الارض او اليد. وبقيت أحاوله وهو يتعلل ويعتذر، والمراسم السلطانية تتقاضاني في احضاره. فما زلت به حتى وافق، فلما وصل الى حضرة السلطان قلنا له قبل الارض. فتوقف وأبى إباء ظاهراً. وقال كيف يجوز هذا؟ فأسر اليه رجل عاقل كان معه كلاماً ما نعلمه. فقال انا أسجد لله الذي خلقني وفطرني. ثم سجد. وتقدم الى السلطان. فقام له بعض قيام وأكرمه، وأجلسه الى جانبه وتحادثا طويلاً».

ولما خرج السلطان موسى بعث اليه السلطان بعدة من الخلع الكاملة له ولأصحابه ولكل من حضر معه، وخيل مسرجة ملجمة له ولأعيان معه. ثم ان السلطان أجرى على ضيفه الانزال والاقامات الوافرة مدة مقامه.

ولما آن أوان الحج بعث اليه بمبلغ كبير من الدراهم وجمال... وركز له العليق في الطرق ورسم لأمراء الركب بإكرامه واحترامه.

وكلف المهمندار بالعناية بالسلطان منسى موسى لما عاد من الحج فتلقاه وأنزله، واستمر السلطان على علوفاته وانزاله. وبعث هو الى السلطان متبركاً من هدايا الحجاز الشريف.

ونقل العمري عن المهمندار ما عرفه عن كرم السلطان السوداني. فقد قال: «ولقد أفاض هذا الرجل بمصر فيض الاحسان، لم يدع أميراً مقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب. ولقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء والعطاء والأخذ ما لا يحصر، وبذلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قدره وأرخصوا سعره».

وعلّق العمري على ذلك بالقول: «ولقد صدق المهمندار، فإنه حكى مثل هذا غير واحد. ولما مات المهمندار وجد الديوان فيما خلفه آلافاً من الذهب المعدني مما أعطاه له».

ابن امير حاجب، كان والي مصر والقرافة، أقام السلطان موسى هنا، ونشأت بينه وبين الوالي صلة وثيقة. ونقل عن السلطان معلومات كثيرة عن مالي أوردها العمري في مسالكه.

ومما قاله ابن أمير حاجب: «ورأيت هذا السلطان موسى محباً للخير وأهله. وترك مملكته واستناب بها ولده محمداً، وهاجر الى الله ورسوله فأدى فريضة الحج. وزار النبي صلى الله عليه وسلم، وعاد الى بلاده على ان يقرر لابنه الملك، ويتركه له بالكلية، ويعود الى مكة المعظمة، ويقيم مجاوراً بها. فأتاه أجله رحمه الله تعالى».

ووصفه هذا الوالي بقوله: «ولقد كان هذا السلطان موسى مدة مقامه في مصر،

قبل توجهه الى الحجاز الشريف، وبعده، على نمط واحد في العبادة والتوجه الى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره. وكان هو وكل من معه على مثل هذا، مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار. وكان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر. خرج من بلاده بمئة وسق من الذهب أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده الى مصر، ثم بمصر، ثم من مصر الى الحجاز الشريف في التوجه والعودة حتى احتاج الى القرض من مصر. فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرة وافرة جعلها لهم، بحيث حصل لهم في ثلاثمئة دينار سبعمئة دينار ربحاً».

وقال الوالي انه بعث له مئة مثقال ذهب على سبيل الافتقاد.

ونقل الرواة ان تاجراً اسكندرياً هو سراج الدين بن الكويك كان ممن دفع للسلطان مالاً ديناً، وبعث بوكيل له الى مالي ليحصل على المال. لكن الوكيل أعجبته الحياة في مالي، فاستقر فيها. لذلك ذهب الدائن مصحوباً بإبنه لاسترداد ماله. ومات سراج الدين في تمبكتو، لكنه ابنه أتم السفر وأعطي المال الذي له.

ويقول العمري ان المطوف/ الدليل مهنا كان في صحبة السلطان موسى لما حج، وأنه أفاض على الحجيج وأهل الحرمين سجال الاحسان. وكان في غاية التجمل وحسن الزي في سفره هو ومن معه. وقد تصدق السلطان بمال كثير. أما الذي ناب المطوف منه فهو مئتا مثقال من الذهب. واما رفاق المطوف فنالهم جمل أخرى.

ويؤكد العمري ان سعر الذهب كان مرتفعاً بمصر «الى ان جاء اليها (السلطان موسى) في تلك السنة. كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهماً، وما زاد عليها في الغالب. فمن يومئذ نزلت قيمته ورخص سعره، واستمر على الرخص الى الآن لا يتعدى المثقال اثنين وعشرين درهماً وما دونها. هذا من مدة تقارب اثنتي عشرة سنة الى اليوم، لكثرة ما جلبوا من الذهب الى مصر وأنفقوه بها». ونحن مع تقديرنا لرأي العمري، فإننا نود ان نلفت القراء الى ان الاتجار بالذهب بين مصر ومالي وما جاورها ازداد بعد حج منسى موسى، وإلى هذا يعود انخفاض سعره، لا لمجرد ان سلطان زار مصر وحج وأنفق.

بعث منسى موسى رسالة شكر الى السلطان المصري، وضمنها هدية بسيطة قيمتها خمسة آلاف مثقال من الذهب المعدني.

وللعمري، الذي على ما يبدو اصاخ السمع الى ما تحدث به التجار، تلخيص جميل لتصرف التجار مع السلطان موسى وجماعته. فهو يقول: «وحدثني خلق من تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم. فإن الرجل منهم يشتري القميص او الثوب او الازار وغير ذلك بخمسة دنانير، وهو لا يساوي ديناراً واحداً. وكانوا في غاية سلامة الصدور والطمأنينة، يجوز عليهم مهما حزر عليهم، ويأخذون كل قول يقال

بالقبول والصدق. ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية لما ظهر لهم... من تزاحمهم المفرط عليهم في اثمان ما يباع عليهم من الاطعمة والسلع».

٥

لما عاد منسى موسى الى بلاده كان ضم الى حاشيته فئة صغيرة من أهل البلاد التي زارها، منهم ابو اسحق الساحلي، البناء الشاعر والمعمر بن عبدالله بن خديجة الكومي، وهو داعية اسماعيلي. كما انه اصطحب أربعة من وجوه قريش مع اسرهم للإقامة في بلاده.

وبنى الساحلي مسجداً جامعاً وقصراً للسلطان في عاصمة ملكه، وجامعاً كبيراً في غوا ثم استقر في تمبكتو يعمل في التعليم. أما الاشخاص الباقون فلم تصلنا أخبارهم بعد وصولهم ديار السلطان.

وتحدث عن حج السلطان موسى الكثيرون، واعتبروه حادثة فريدة. فقد أدت الى ان انتشر اسم مالي في اوروبا، وتوسعت تجارتها، ونقل السلطان بعض تقاليد البلاط المملوكي. ويرى الباحثون ان منسى موسى اصبح أكثر اهتماماً بالاسلام تعليماً وتوضيحاً بعد حجه. ولعل عنايته بإرسال عدد من الطلاب الى فاس كي يدرسوا فيها ويعودوا للتدريس هو أهم نواحي هذا الاهتمام الجديد. ولأن الفقه انتقل الى مالي عن طريق فاس فإن المذهب المالكي هو الذي ساد فيها.

كان عدد من رسامي الخرط الاوروبيين أخذوا بالإشارة الى بعض اجزاء الصحراء الكبرى في خرطهم، اذا إن معلومات جديدة كانت تصلهم عن طريق التجار. وأشير الى مالي وملكها (صور في وسط الصحراء) في الخارطة العالمية التي رسمها انجلينو دولثرت من ميورقة (سنة ١٣٣٩).

وهكذا اتسعت آفاق مالي: من الداخل بالنسبة الى أهلها، ومن الخارج بالنسبة الى العالم الخارجي.

القسم الثاني

الاسلام في غرب افريقيا
في الأزمنة الحديثة

١ ـ أوضاع متبدلة... ودخول اوروبي

إذا نحن ألقينا نظرة على غرب افريقيا حوالى سنة ١٦٠٠ وجدنا أنفسنا نشرف على منطقة كان التبدل قد بدأ فيها قبل تلك السنة، لكنه أخذ يؤثر فيها وفي شعوبها في شكل أقوى.

وان أول تغير أثر في غرب افريقيا، ولو أنه حدث خارجها، هو احتلال الدولة العثمانية لمصر وليبيا وتونس والجزائر، خلال العقود السبعة الاولى من القرن السادس عشر. هذا الاحتلال كان من أثره المباشر ان أرسل المنصور السعدي حملته ضد امبراطورية سنغاي القوية لإخضاع ملوكها والاستئثار بمناجم الذهب التي كان مصدرها في منطقة الغابات.

وإذا كان احتلال العثمانيين لشمال افريقيا (باستثناء المغرب) قد تم خارج منطقة غرب افريقيا، فإن اجزاء منها أصيبت بأشد أنواع الضرر. فزوال امبراطورية سنغاي وقيام حكم الباشاوات قبل انسحاب المغرب من المنطقة كان من شأنه شرذمة أقوى دولة سودانية قامت في تلك الجهات، وترتب على ذلك قيام دويلات على ما كانت عليه الحال قبل ذلك بسبعة قرون. ولم تستطع هذه الدويلات ان تنظم شؤونها ولا ان تحفظ طرق التجارة ولا ان تؤدي أي خدمة حضارية مهمة.

انتهى الأمر بالأجزاء الغربية من المنطقة ان تجنبها التجار لأنهم لم يأمنوا على أنفسهم ولا على سلعهم، وانتقلت التجارة النشيطة الى السودان الاوسط والشرقي، وإلى مناطق بحيرة تشاد. وأصبح الطوارق، وهم أصحاب الامر في اير، المسيطرين على التجارة.

ولعل سقوط دولة سنغاي وانتشار الفوضى في تلك الربوع، أتاحا الفرصة للجماعة التي تقطن الجزء الجنوبي الغربي من الصحراء، في ان تبرز قوية، وتبدل الكثير من شؤون الجوار. هذه هي الجماعة الحسَّانية التي استتب لها الامر في شنقيط (في موريتانيا الحديثة)، وهي التي كان لها آثار علمية أدبية على ما سنرى.

البرتغاليون

التغيير الآخر الكبير كان في المناطق الساحلية. كان البرتغاليون قد بدأوا تعرفهم الى الساحل الافريقي الأطلسي، ولم يلبث سواهم من الاوروبيين ان لحقوا بهم. وكان

التجار يقيمون «البيوت» التجارية لمزاولة الأعمال التجارية مع السكان. وفي سنة ١٤٨٢ ازداد عدد التجار في ساحل سنيغامبيا (وهي المنطقة التي تشمل حوضي السنغال وغامبيا وما بينهما). ففي تلك السنة أقام البرتغاليون حصن «المينا» على ساحل المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم ساحل الذهب، وهي غانا الحالية. ومن الطريف أن نلحظ ان وصول البرتغاليين الى خليج بنين سنة ١٤٧٢، استتبعه وصول المبشرين المسيحيين الكاثوليك الى تلك الجهة.

وفي القرن السادس عشر نشط التجار في الاسواق الساحلية، الى حد أن نشاطهم أدى الى التخفيف من التجارة الصحراوية. وقد كان للتجار الآتين من الدول الالمانية سوق كبيرة في الساحل الافريقي، لأنهم كانوا الاكثر تقدماً في شؤون التجارة والنقل. ولا غرابة في ذلك فهم وريثو تجار الهنسا في أواخر العصور الوسطى. هكذا كان وضعهم حول سنة ١٥٣٥. لكن الحروب الدينية التي قامت بين هذه الدول الالمانية أعاقت تقدمها هناك.

ويمكن القول اجمالاً ان بحول سنة ١٥٥٠ كانت المشاركة التجارية بين تجار البحر الاوروبيين ودول الساحل الافريقي قد ترسخت في شكل قوي، وأصبح الافارقة يحصلون على حاجاتهم المعدنية وما يلزمهم من اشياء أخرى مباشرة من التجار الذين حملوها اليهم. وكان ذلك مفيداً لهؤلاء السكان الذين كانوا يحصلون عليها قبلاً عن طريق الوسطاء من سكان المدن السودانية والتجار المقيمين فيها، وكانت تحمل عبر الصحراء.

في مقابل ذلك أصبح التاجر الاوروبي يحصل على السلع الافريقية مباشرة، بدل ان تصل اليه عبر الصحراء. فالذهب والفلفل والعاج والصمغ العربي (لمن يحتاجه) كان يحصل عليها في مقابل ما يحمله هو من سلع لازمة لنده الافريقي.

صحيح ان هذه التجارة كانت الى حول سنة ١٦٠٠ تكاد تكون مقتصرة على أفارقة السواحل، فيما كان أهل الداخل يحصلون على حاجاتهم عبر الصحراء، لكن المستقبل كان للتجارة الساحلية/ البحرية. وأصبح تجار الموانىء هم الذين ينقلون، او يرتبون نقل المتاجر من الداخل وإليه. وهذا هو عمل العقود المتلاحقة، في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وان كان الوضع تبدل مع الوقت: فأصبح الاوروبي يفيد من التجارة فائدة أكبر، ثم تغيرت السلع لما شاعت تجارة الرقيق الافريقي، على ما سنرى.

وعلى كل، فقد اتسعت آفاق الافارقة ـ وخصوصاً المقيمين في الموانىء ـ بسبب هذه الصلات الاولى التي قامت مع الأجانب.

ويظل هناك أمر مهم يتعلق بالاوروبيين، فهم لم يكونوا متحدين أو متفقين. لقد اقتتلوا فيما بينهم، وكانت خصوماتهم وقتالهم في غاية الشراسة. وقد أتيح للبرتغاليين ان تكون لهم اليد العليا بادىء بدء، فتفوقوا على الانكليز والفرنسيين. ثم جاء

الهولنديون الى السواحل الغينية، وتمتعوا بالقيادة والتزعم، اذ إنهم كانوا يومها في طليعة الدول التجارية في اوروبا. وفي سنة ١٦٣٧ هاجم الهولنديون قلعة المينا البرتغالية، وأعانهم على ذلك بعض الافارقة. وبعد ذلك بخمس سنوات أخرج الهولنديون البرتغاليين من ساحل الذهب بالمرة.

المسلمون

كان المسلمون المقيمون في غرب افريقيا في القرن السابع عشر تربطهم الجماعة الواحدة بالأخرى روابط أسرية وثقافية. إلا انهم كانوا أقليات في المناطق التي استقروا فيها. ومن هنا كانت مواقفهم متعددة متنوعة. فثمة من رأى ان التعايش بين الثقافات المختلفة والعقائد المتنوعة ممكن. وكان هناك جماعات رأت من المصلحة ان تساهم في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي تقبلها أكثرية السكان، أي إنها جارت الوضع القائم. إلا انه كان هناك فئات، وكان العلماء على رأسها، ترى ضرورة التوصل الى السلطة الدينية والسياسية، ولجأت الى وسائل القوة للوصول الى هذه الغاية. وهؤلاء كان لهم أنصار وأعوان في جنوب موريتانيا وفي سنغامبيا وفي اير. وقد اعتنق فكرة استعمال القوة لتحقيق نشر الاسلام رجال نذروا أنفسهم لله وعملوا في سبيل ذلك في القرن التاسع عشر، أي في الدور التالي زمنياً.

على ان نشر الاسلام بالوسائل السلمية أدى الى وصوله ـ في القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ الى أجزاء من منطقتنا لم يكن قد بلغها قط من قبل. فضلاً عن ذلك، فقد شهد هذان القرنان تطوراً بيّناً في النواحي التعليمية والشرعية والفكرية في الحياة الاسلامية، بحيث أصبح أيسر على دعاته تقديمه الى السكان. وهذا التطور وضع الأسس اللازمة لما شهده القرن التاسع عشر.

والعمل الأساسي في نشر الاسلام بالأسلوب السلمي قام به عدد من الزوايا التي كان يقيم فيها علماء من جماعة «كونتة». وهم مجموعة من الاسر التي ادعت انها متحدرة من عقبة بن نافع، قائد جيوش الفتوح الأولى في منطقة الصحراء. وقالوا بأنهم تجمعوا أصلاً في القيروان، وثم انتشرت منهم أسر في جهات مختلفة من الصحراء، مثل توات وغيرها.

وفي القرن الخامس عشر انتقل أحد أبرز علمائهم سيدي محمد الكونتي (الكُنتي) الى الصحراء الغربية، فيما انتقل غيره الى مناطق أخرى. وكان سيدي البكائي، وهو ابن لسيدي محمد من أم بربرية، قد استقر في ولاطة عالماً معلماً. وهو الذي أدخل الطريقة القادرية الى الصحراء الغربية الموريتانية، وهي الطريقة التي أنشأها عبد القادر الجيلاني (توفي ٥٦١ هـ/ ١١٦٦ م) في بغداد. وانتشرت الطريقة في بلاد الشام وبقية انحاء العالم الاسلامي. وهنا اجتمع للبكائي علم العالم وتصوف المريد والبركة التي منحها الناس له، بسبب هذين وبسبب سلوكه المثالي.

وهذا الذي تم في أواخر القرن السادس عشر للميلاد، بالنسبة للمنطقة التي نعنى بها هنا وجود عدد لا يستهان به من الزوايا، يقيم فيها علماء متصوفة، يستعملون اللغة العربية (الحسانية) التي دخلت الصحراء الغربية (وهي جزء من موريتانيا الحالية) مع جماعات عربية حسانية من بني معقل. ومع ان هؤلاء كانوا يفضلون عموماً الوسائل السلمية لنشر الاسلام، فقد قامت بينهم جماعة رأت ان اللجوء الى القوة هو الاصلح والأنسب. وقد تطور هذا في الصحراء الغربية وفي سينيغامبيا في القرن السابع عشر، على ما سنرى.

غرب افريقيا

يجدر بنا، كي نفهم انتشار الاسلام في غرب افريقيا وتمركزه في بعض المناطق في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد (تمهيداً لما جاء فيما بعد)، ان نلم بأمرين مهمين: الأول، هو قيام دول في غرب افريقيا في هذين القرنين كانت تختلف بعض الشيء عن الدول التي مرت بنا للفترات السابقة؛ والأمر الثاني، الوجود الاوروبي في غرب افريقيا - وفي السواحل أصلاً - في هذين القرنين، وما ترتب على ذلك من قيام التجارة بالرقيق الافريقي. وسنتحدث الآن عن الأمر الاول، تاركين الثاني الى الفصل التالي.

كانت بنين دولة لا يستهان بها في أواسط القرن السابع عشر، وظلت موضع اهتمام من قبل جيرانها حتى أواخر القرن، لكنها انحدرت نحو السقوط في القرن الثاني. وقد حافظت على الأمن والتجارة في المنطقة الواقعة غربي حوض النيجر الادنى، وأفادت من ذلك. لكن الشيء الذي أخذ يعكر صفو الأمن في بنين الدولة هو اقبال الكثيرين على شراء الاسلحة النارية التي أصبح التجار الاوروبيون يحملونها الى الموانىء الافريقية بكثرة. لذلك أصبح الخلاف بين القبائل أو أي ثورة يقوم بها زعيم، تدعو الى قتال عنيف، وبذلك اضطرب الأمن.

خلفت بنين دولة اويو واستطاعت ان تضبط الأمن في المنطقة نفسها لنحو قرن من الزمان بدءاً من حوالى سنة ١٦٥٠. وكانت الميناء الرئيسة لها اجاس (وقد بنى فيها الاوروبيون فيما بعد بورتو نوفو). وقد أصاب اويو ما أصاب بنين فأفلت الزمام الامني من يدها. ومع ان قبيلة الفون التي كانت تقيم في منطقة داهومي انحدرت جنوباً نحو الساحل محاولة أن تحل محل اويو، فإن ذلك لم يتسن لها يومها. وكانت النتيجة قيام دويلات متعددة في الساحل الطويل الممتد من نهر كروس شرقاً الى نهر بنين غرباً (يبلغ طوله نحو ٤٥٠ كلم). هذه الدول - المدن كانت تقوم بالتجارة مباشرة مع الاوروبيين وتؤمن وصول السلع الى الداخل. وقد كانت لكل ميناء او مركز تجاري او منطقة، كبرت أو صغرت، حاكمها المتفرد في شؤونها.

وجاء دور داهومي بالذات. وداهومي الحديثة، وهي التي أطلق عليها مؤخراً اسم

جمهورية بنين، تشغل جزءاً صغيراً نسبياً من المنطقة التي قامت فيها امبراطورية داهومي في القرن السابع عشر. فهذه قامت في الداخل في الأصل وكانت عاصمتها الومي. وكان الباعث لهذه الجماعة (وهي من الفون أيضاً) على توحيد جهودها هو تعرضها لهجوم من الجنوب من الدويلات الساحلية، التي كانت تملك بعض الخيول والأسلحة النارية، مثل دولتي ويداه واردره. هذا الهجوم على الفون كان المقصود منه أسر أفراد منهم وبيعهم رقيقاً للاوروبيين.

في المحاولة الثانية كان ثمة تجمع بين الفون جميعاً، فكانت لهم دولة قومية. وقد بدأ هذا التجمع حوالى سنة ١٦٥٠. وتولى شؤونهم ملوك حرصوا على تمتين الوحدة وتقوية الدولة فدافعوا عن أنفسهم أولاً، ثم أخذوا بالاتجاه جنوباً نحو الساحل. وفي أيام الملك اغايا (حكم ١٧٠٨ - ١٧٤٠) تم للدولة احتلال ويداه واردره وجاكين. وعمل خلفاء اغايا على تقوية الدولة، فأصبحت أقوى دولة في المنطقة، ساحلاً وداخلاً. وأصبحت ويداه أولاً وباداغري ثانياً، أكبر مركزين للتجارة على الساحل الممتد من نهاية دلتا النيجر شرقاً الى مصب نهر فولتا غرباً، وذلك في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر.

كان بين الدول الواقعة في الداخل بالنسبة لساحل غانا الحالية دولة اكوامو، التي جاءت ثروتها من الاتجار بالذهب الذي كان يجمع منطقة نهر بريم، فضلاً عن البضائع الأخرى. إلا انها كانت مضطرة الى الحصول على السلاح من الموانىء الجنوبية. لذلك فقد احتلت جميع المناطق الواقعة الى الجنوب والجنوب الشرقي والشرق (وحتى الشمال) منها، وبلغت أقصى اتساع لها سنة ١٧١٠. وعندها سيطرت على الاتجار مع الانكليز والهولنديين والدانمركيين.

لكن اسانتي كانت هي الأخرى تقوى. وكانت هذه الجماعة الاكثر نجاحاً بين شعوب الاكان. وأصبحت عاصمتها كوماسي، مدينة كبيرة ومركزاً رئيساً للشؤون السياسية والتجارية والفكرية والدينية. وأقام فيها علماء من المسلمين وزعماء من الغابات وتجار من الديولا من جني وغيرها كما سكنها تجار من بلاد الحوسا - من كانو وكتسينا ومواطنون من بورنو.

كان الاسانتي أصلاً فلاحين، يعنون بإنتاج ما يحتاجون من مواد غذائية وبجوز الكولا للتصدير، كما كانوا يتاجرون بالذهب. لكنهم كانوا معرضين لخصومة من الجيران الأقوياء. ومن هنا أقاموا مع قبائل أخرى نوعاً من التحالف لصد الأذى، لكنه كان تحالفاً فضفاضاً. وبعد نحو نصف قرن من هذا النوع من التصرف السياسي والعسكري، اتفق الجميع سنة ١٦٩٥ على القيام بوحدة. وتم ذلك على يد اوسي توتو.

ومع الوقت، قامت امبراطورية اسانتي التي دامت نحو قرنين من الزمان وهي تسيطر على المنطقة الوسطى، مما عرف باسم غينيا الوسطى يومها، وهي التي تشمل

غانا الحديثة (التي كانت تسمى ساحل الذهب قبل استقلالها سنة ١٩٥٧).

وقد كانت ثمة خصومات بين اسانتي وبريطانيا بسبب التجارة والاهتمام بها. لكن هذا لم يكن له علاقة مباشرة بالذي نحن معنيون به الآن.

وقد اعترف أكثر حكام غرب افريقيا بقوة ملكها ومكانته. وأمَّ عاصمته، كوماسي، السفراء والتجار والعلماء. وكم رافق هؤلاء التجار الديولا والحوسا في تنقلاتهم بين كانو وكونغ وجني وغير ذلك من دول السودان الغربي ومدنه. فكان المجال مفتوحاً دوماً لتبادل الآراء بين أهل العاصمة ـ سكاناً وزواراً.

وكان ساحل ليبريا الحالية وجزء من ساحل سيراليون يصعب الوصول اليه إذا قورن بالأجزاء الأخرى من السواحل الافريقية في منطقتنا. ومع ذلك فقد اهتم الفرنسيون بإنشاء مركز لهم في غراند لاهو للاتجار بالعاج والذهب. وظل هذا المكان يتاجر بالذهب الذي كان يحمل من المناجم القديمة في اكان حتى سنة ١٧٨٧.

وقد اهتم التجار البريطانيون بنهر غمبيا وحوضه، وذلك بسبب الأماكن الصالحة لرسو السفن ومناسبات التجارة الواسعة، وكونه طريقاً داخلية الى السودان الغربي.

ولكن أول من أقام مركزاً للتجارة فيه، في سنة ١٦٥١، كان دوقاً المانياً هو حاكم واحدة من عشرات الدويلات التي كانت المانيا تحتوي عليها يومها. إلا ان البريطانيين انتزعوا مركزه القائم في جزيرة جيمز (١٦٦١). ثم أقام الفرنسيون لهم مركزاً في البريدة (١٦٨١). واشتدت المنافسة بين البريطانيين والفرنسيين وأدت الى القتال (في القرن الثامن عشر). وانتهى الامر في نهاية القرن بأن استقلت المنطقة الافريقية. لكن في سنة ١٨١٦ عادت بريطانيا واحتلت غمبيا. إلا ان هذه قصة أخرى.

نعود الآن الى المنطقة التي كانت المركز الأصلي لأنواع المتاجر وإنشاء الدول وانتشار الاسلام في السودان الغربي الاصلي ـ غانا ومالي وسنغاي. هنا نجد، كما ذكرنا قبلاً، ان المنطقة تكاد تكون خالية من الحياة القوية العنيفة التي عرفتها، والمدن قد زالت. وهنا تقدم أهل الريف، وأقاموا لهم دويلات محلية. وكثير منها لم يكن فيه للإسلام شأن. لكن الطوارق تقدموا وأنشأوا لهم دولة في المنطقة حول غاو ونشّطوا التجارة بين سنتي ١٦٨٠ و١٧٣٧. والطريف ان المنطقة اعتمدت حتى دولها الصغيرة، على الجيوش النظامية المحترفة. وهذه كانت أقدر على الاتلاف والتدمير بسبب الاسلحة النارية التي استعملتها.

وفي المنطقة التي كانت فيها غانا القديمة، قامت دولتان من شعب البامبره وهما كارتا وسيغو، وهذه كانت تقوم حول النيجر من تمبكتو الى باماكو.

مؤسس سيغو في الواقع هو صاشري القائد (حكم ١٧١٢ ـ ١٧٥٥). وقد شهدت المنطقة حركة اصلاح اسلامية هي التي يطلق عليها الحركة الفولانية وهي التي سنتحدث عنها في مقال تالٍ.

أشرنا من قبل الى ان سقوط دولة سنغاي جاء في مصلحة الخوسا وبورنو. فقد انتقلت التجارة الغربية الى تلك الجهات. وقد أتيح لبورنو فترة حكم قوي واطمئنان وسلام بين سنتي ١٦١٧ و١٦٥٧، فنشطت التجارة وتقدمت الصناعة. كانت القوافل تحمل السلع من مصر وتونس الى بورنو ومنها توزع على المنطقة. وأتيح للعلم من يعتني به، مثل ماي علي (حكم ١٦٥٧ ـ ١٦٩٤) الذي زار الحجاز مرات ثلاث.

وهكذا فإن الاضطراب الذي أصاب السودان الغربي في القرن السابع عشر عاد فائدة وانتظاماً في القرن الذي تلاه. لكن الخطر جاء الى بورنو والحوسا من طوارق اير. فقد هاجموا المدن الكبرى، فانتهى الامر بها الى شيء من التدهور في أواخر القرن الثامن عشر.

غير أن اليقظة الاسلامية التي عرفتها منطقة واداي وباغرمي كانت أمراً مهماً. وموعدنا معها في حديث تالٍ، ومثلها الامامات التي ظهرت في سينيغامبيا [في فوتا جولون وفوتا تورو (طورو) وبوندو، فهذه جميعها سنتحدث عنها مجتمعة].

٢ ـ التاجر الاوروبي في غرب افريقيا

رغبة منا في التيسير على القارىء نسمح لأنفسنا هنا أن نعيد عدداً من الأمور التي مرت بنا قبلاً، وذلك لأنها تكوّن نقطة انطلاق لموضوعنا الجديد.

أولاً: بعد سنة ١٥٠٠ ازداد التوجه الاوروبي نحو غرب افريقيا. اذ إن خروج اوروبا مكتشفة لأجزاء مختلفة من العالم يعود الى أمرين مهمين: الأول، هو النشاط الذي شعر به الاوروبيون نتيجة لازدياد الثروة والتحكم في وسائل الانتاج. وكان هذا يشمل الاسبان والبرتغاليين والهولنديين والانكليز والفرنسيين. أما الأمر الثاني، فهو تصميم هؤلاء الاوروبيين على كسر طوق الحصار التجاري الشرقي عبر البحر المتوسط بقسميه النشيطين في مصر وبلاد الشام (المماليك) والمدن الايطالية. ومن هنا فإن غرب افريقيا لم يكن هو المقصود بالذات أصلاً من الخروج الاوروبي. ولكن لما تم للأوروبيين التعرف إلى سواحل غرب افريقيا أرادوا ان يفيدوا من تجارتها.

ثانياً: كان الوصول الاوروبي الى غرب افريقيا في أصله برتغاليًا. ففي سنة ١٤٣٤ وصل البرتغاليون الى رأس نون، وفي سنة ١٤٤٦ ألقوا بعض مراسيهم في مصب نهر السنغال، ووصلوا الى خليج بنين سنة ١٤٧٢، وبنوا قلعة المينا (في غانا الحالية). وفي السنة ١٤٨٣ أراحت سفنهم في مصب نهر الكونغو. وكما يعرف القراء دار دياز برأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨، وأخيراً وصل فاسكو دوغاما الهند سنة ١٤٩٩.

ثالثاً: انصرف الاسبان، بعد كولمبس واكتشافه العالم الجديد سنة ١٤٩٢، الى ذلك العالم يزورونه وينهبونه ويحتلونه ويعاملون سكانه بكل أنواع القسوة والشدة.

أما الدول الاوروبية الأخرى فقد ظلت لها أطماعها في غرب افريقيا وفي اسيا، واشتدت المنافسة في ما بينها. وكان الانكليز أبرز المنافسين أول الامر، ومع الوقت قامت مشاركة تجارية بين التجار الاوروبيين وبينهم وبين التجار الافارقة.

رابعاً: وها نحن نورد هنا جدولاً لتبدل الأيدي المستولية على بعض القلاع التجارية (كما كانت المراكز هناك تسمى) في غرب افريقيا، وجميعها منتقاة من منطقة غينيا، والذي سمي في ما بعد ساحل الذهب، ولكن بعد استقلال البلاد أطلق عليه اسم غانا (سنة ١٩٥٧).

خامساً: بدأت العلاقات التجارية بشكل جدي مع ساحل غرب افريقيا في القرن السادس عشر، على غير تخصيص مكاني. وفي القرن السابع عشر كان ثمة تركيز على

الأوروبيون في غرب أفريقيا

المكان	تاريخ بناءه	الفئة البانية
المينا	١٤٨٢	البرتغاليون
	بعد ١٦٣٧	اعادة بناءه
أكسيم	١٥٠٨	الهولنديون
	بعد ١٦٤٢	البرتغاليون
راس كوست	١٦٥٥	اعاد بناءه الهولنديون
	بعد ١٦٦٥	السويديون
كورماتين	١٦٣٨	اعاد بناءه الانكليز
	بعد ١٦٦٥	الانكليز
كرستيانبورغ	بدأ بناءه ١٦٥٢	اعاد بناءه الهولنديون
		السويديون
	بعد ١٦٦١	أتم بناءه الدانمركيون
وفي غامبيا	١٦٥١	الالمان
(قلعة جيمز)	بعد ١٦٦١	اعاد بناءها

تجارة الرقيق (الدول)

الدول	العدد
انكلترا	٢,٠٠٩,٧٠٠
فرنسا	٦١٣,٠٠٠
البرتغال	٦١١,٠٠٠
المجموع	٣,٢٣٣,٨٠٠

تجارة الرقيق (السنوات والعدد)

السنوات	العدد
١٤٥١ ـ ١٦٠٠	٢٧٤,٠٠٠
١٦٠١ ـ ١٧٠٠	١,٣٤١,١٠٠
١٧٠١ ـ ١٨١٠	٦,٠٥١,٧٠٠
١٨١١ ـ ١٨٧٠	١,٨٩٨,٤٠٠

الساحل الغيني بأكمله. وكان القرن الثامن عشر فترة اتساع التعامل التجاري بين الاوروبيين وافريقيا. اذ إنه حوالى سنة ١٨٠٠ لم يكد يوجد شعب ساحلي افريقي من دون علاقة تجارية وثيقة. فضلاً عن ان الاتجار، مع تعدد وسائله وسبله، كان قد تغلغل في كثير من المناطق الداخلية. ويذكر ان التاجر الافريقي كان، الى درجة كبيرة، سيد السوق. كان الاوروبيون أسياد الماء، أما السوق الداخلية فكان النفوذ فيها للافارقة. ولم يتبدل هذا إلا في الفترة المتأخرة من القرن الثامن عشر.

سادساً: ظلت السلع التي تحمل من اوروبا الى غرب افريقيا تشمل الاقمشة والأوعية والأدوات والزجاج والكحول. إلا ان عنصراً جديداً دخل فيها منذ أواخر القرن السادس عشر وهو الاسلحة النارية والذخيرة اللازمة لها، وهذه أخذت أهميتها التجارية تزداد مع الوقت. أما السلع الافريقية فقد شملت يومها، كما شملت من قبل، الذهب والعاج والفلفل وريش النعام. وضم اليها، بدءاً من القرن السادس عشر، الرقيق الافريقي. وحملت أول سفينة شحنة من الرقيق الى العالم الجديد سنة ١٥١٨.

النهب والرقيق

لما وصل الاوروبيون، وخصوصاً الاسبان، الى العالم الجديد، شمروا عن ساعد الاستيلاء على الكنوز الظاهرة والمستترة، وهذه تشمل مناجم الفضة وغيرها من الحجارة الثمينة. وبطشوا بالناس بكل أنواع الشدة والقسوة. وجاء في تقرير اسباني كتب سنة ١٨١٥، ان كوبا لما اكتشفت كان عدد سكانها نحو مليون نسمة، أما الآن (أي سنة ١٥١٨) فلا يزيد عدد السكان على ١١ ألفاً.

وكان ان أخذ الاوروبيون أنفسهم باستغلال المزارع الواسعة التي انتزعوها من أصحابها لينتجوا التبغ والقطن وحاجات زراعية أخرى. أما الذي أقبل عليه الناس هناك فقد كان انتاج السكر، وخصوصاً في جزر البحر الكاريبي. وهنا احتاج العمل الى أيد عاملة، وهذه كانت مفقودة في العالم الجديد، والذي أمكن الحصول عليه من اوروبا لم يكف، فتم الاتجاه نحو غرب افريقيا. والشحنة الافريقية الاولى التي حملت الى العالم الجديد، على ما مر بنا، كان أفرادها قد أسروا ـ والأصح ان نقول اصطيدوا ـ كي يباعوا رقيقاً. وقد اصطادهم زعماء وحكام افارقة للغاية المذكورة. وتطورت التجارة بالرقيق الافريقي بسرعة كبيرة. ونشأ من ذلك ما عرف باسم التجارة المثلثة أي ذات الاتجاهات الثلاثة.

الاتجاه الاول: يحمل تجار اوروبا الى افريقيا، وخصوصاً منطقة سنغامبيا وغينيا، سلعاً رخيصة (نسبياً) هي القطنيات والكحول والأدوات المعدنية وما الى ذلك، مما أشرنا اليه قبلاً. والتجار الاوروبيون يتقاضون ثمن هذه السلع رقيقاً افريقياً يدفعه لهم الزعماء والملوك الافارقة بوصفهم كبار التجار. ولم ير هؤلاء الزعماء والمتسلطون بأساً في بيع الاسرى الذين عندهم أو الذين يأسرونه ـ يصطادونهم ـ لهذه الغاية. فالاتجار بالرقيق قديم. وكان الرقيق الافريقي ينقل عبر الصحراء الكبرى الى الشمال الافريقي لتوزيعه على الاسواق التي تطلبه.

الاتجاه الثاني: يحمل التجار هؤلاء المساكين عبر المحيط الاطلسي في سفن قذرة مكتظة بالركاب وهم، في الغالب، مصفدون. فإذا وصل الجمع الى موانىء العالم الجديد بيع أفراده الى أصحاب المزارع والمصانع ويدفع ثمنهم ـ للتاجر الاوروبي طبعاً ـ التبغ والسكر وشراب الروم. عندها يصبح الافارقة عبيداً ويعاملون كذلك.

الاتجاه الثالث: تحمل هذه البضائع الى اوروبا حيث تباع بأسعار مرتفعة جداً.

وقد أفاد الانكليز، والفرنسيون خصوصاً، من هذه التجارة. فقد باعت مصانع الاسلحة في برمنغهام في انكلترا ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ بندقية الى ساحل غينيا سنوياً في القرن الثامن عشر. والاتجار بالأسلحة كانت له آثار سيئة بالنسبة للافارقة. فقد استعمل أولاً للاقتتال في ما بينهم، وثانياً، مكّن لكثير من الزعماء أسر أعداد كبيرة نسبياً من الرقيق لبيعها للتجار. ومن جهة أخرى قوى استعمال الاسلحة النارية موقف الافارقة ضد الاوروبيين اذا أرادوا ذلك.

وقد جاء في رسالة بعث بها هولندي كان يقيم في المينا وتاريخها سنة ١٧٠٠ قوله: «ولعلك تستغرب كيف يمكن لهؤلاء الافارقة ان يزودوا بمثل هذه الاسلحة. إلا أنه يترتب عليك ان تعرف اننا نبيعهم كميات كبيرة من الاسلحة، ونحن، إذ نفعل ذلك، نقدم لهم السكين التي قد يستعملونها لذبحنا. الا اننا مضطرون للقيام بذلك، لأننا ان لم نبعهم نحن (الهولنديون)، فإنه من اليسير عليهم ان يحصلوا على حاجتهم من البنادق من الانكليز أو من الدنمركيين او من البروسيين. وحتى لو أجمعنا أمرنا نحن مدبري (الوكالات التجارية الرسمية الاوروبية) على ان نمنع شركاءنا من بيع الاسلحة النارية، فإن التجار الخصوصيين من الانكليز او من الهولنديين سيستمرون في بيعها (للافارقة).

يتضح من هذا ان تجارة الرقيق ارتبطت بالطمع والجشع مع اهمال لمعنى الانسان، فضلاً عن المعاملة السيئة التي كان «الرقيق» يلقاها، والخسارة في الارواح على الطريق (نحو سدس المجموعة). وقد أفرغت هذه التجارة افريقيا من أثمن ما عندها من ثروة ـ العنصر البشري. الى هذا فإن تجارة الرقيق، على النحو الذي ذكرناه قبلاً، كانت عاملاً في إدخال غرب افريقيا دائرة النظام الاقتصادي الاوروبي، ولمصلحته، كما كانت مقدمة لفتح باب الاستعمار الاوروبي لافريقيا في القرن التاسع عشر.

الوسطاء

لم يقف جميع الافارقة، والزعماء خصوصاً، من تجارة الرقيق موقف المشجع او المحبذ للفكرة او للعمل. على العكس من ذلك، فقد كان لبعضهم مواقف شديدة ضد تجارة الرقيق.

أولاً: مما وقفنا عليه رسالة كتبها زنغا بمبا ملك باكونغو، الواقعة على مصب نهر الكونغو سنة ١٥٢٦ الى ملك البرتغال، وكانا شريكين تجاريين على عادة ذلك الوقت. كانت الرسالة شديدة اللهجة، وكانت احتجاجاً على تصرف تجار الملك في قضية شراء الرقيق ونقلهم الى الاسواق الغربية. وقد جاء فيها، «ان تجاراً برتغاليين، بالاتفاق مع لصوص ورجال خبيثي الطوية شريرين يلقون القبض على رجالي

ويبيعونهم». وقد أشار الى ان بعض أفراد أسرته قد اقتيد كذلك للبيع. وأضاف أنه لا يريد من البرتغاليين سوى «قسيس وجماعة للتعليم في مدارسنا، ولا نريد سلعاً أخرى سوى الخمر والطحين اللازمين لتحضير القربان المقدس». ويختتم الرسالة، بعد ان يطلب من الملك البرتغالي ان يستدعي تجاره من مملكته بقوله: «ان هذه هي ارادتنا: إنه لا يجوز ان تمارس تجارة الرقيق في ممالك الكونغو، ولا ان تقام أسواق للرقيق أبداً فيها».

لكن الرسالة لم تنفع، لأن الكثيرين من الذين كانوا يديرون البلاد تحت سيادة زنغا كانوا يفيدون من هذه التجارة كثيراً، فلم يكن من اليسير اقناعهم بالتخلي عنها.

ثانياً: لما احتل غايا ملك داهومي منطقة أردره على الساحل (١٧٢٤) كان من بين الامور التي دفعته الى ذلك محاولة وقف الاتجار بالرقيق الافريقي. وقد وجه، مع انكليزي كان يقيم في إحدى المدن الساحلية، رسالة الى الحكومة البريطانية يخبرها بها انه يريد ان يوقف تصدير «الناس» من بلاده. ولم يكن باستطاعة اغايا ايقاف التجارة، ولم يكن نجاحه في هذا الامر أكبر من نجاح زنغا، الا ان اغايا نجح في تخفيف حدة التجارة.

ثالثاً: روى رحالة سويدي، كان يزور فوتا تورو سنة ١٧٨٩ ان إمام هذه الدولة (سنتحدث عن امامة فوتا تورو والامامات الاخرى في المقال التالي) أصدر قانوناً يمنع حتى مرور الرقيق عبر أراضيه. لكن النظام التجاري القوي الذي كان مربحاً للغاية تغلب على نيات الإمام الطيبة.

وعلى كل، فقد كان ثمة بضعة من السفن الفرنسية المعدة لنقل الرقيق تنتظر السلع، كي تحملها وترحل، وكان انتظارها في نهر السنغال. ولما رأى ربابنة السفن أنهم لم يتمكنوا من شراء الرقيق في فوتا تورو، ذهبوا الى الإمام يشتكون اليه «القانون الذي سنّه»، ويطالبونه بإلغائه. فرفض الامام ذلك، واتبع ذلك بأن أعاد الى وكلاء شركة الاتجار بالرقيق الفرنسية هدايا كانوا قد أرسلوها له، وأضاف قوله: «ان كل الثروة التي تتمتع بها الشركة لن يحملني على تبديل رأيي». وعندها تشاور الربابنة الفرنسيون في ما يجب ان يفعلوه، ولما عرفوا ان التجار، من أهل داخل البلاد، الذين كانوا قد نقموا على الإمام وقانونه، اهتدوا الى طريق آخر لنقل الرقيق الى الساحل. فأقلعوا الى السوق الجديدة حيث حملوا ما احتاجوه من الرقيق. وهكذا ظفروا بالبضاعة المنشودة.

من هنا نرى أن الرغبة في الربح كانت تتغلب على جميع الامور: العاطفي والأدبي والخلقي والديني.

تجارة الرقيق

لعله مما يتم موضوعنا عن التجارة الاوروبية ـ الافريقية في القرنين السابع عشر

والثامن عشر، والتي كانت سلعتها المهمة، وإن لم تكن الوحيدة، هي الانسان، أن نشير الى بعض الاحصاءات المتعلقة بعدد الافارقة الذين نقلوا من بلادهم رقيقاً.

أولاً: كانت التقديرات السابقة تعطينا أرقاماً تدل على ان عدد الذين حملوا الى العالم الجديد تراوح بين ١٨ و٢٤ مليون نسمة. لكن التقديرات الاحدث، والتي اعتمدت على دراسات جديدة ووثائق لم تكن معروفة من قبل، انتهت الى القول بأن الذين نقلوا ـ رقيقاً ـ من غرب افريقيا الى العالم الجديد (وقلة الى اوروبا) تراوح أعدادهم بين ثمانية وعشرة ملايين.

ثانياً: في سبعينات القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي بلغت تجارة الرقيق ذروتها، كان معدل ما يرسل سنوياً يقدر بنحو ٥٢,٠٠٠ شخص.

ثالثاً: نقل تجار الدول الاوروبية الثلاث (انكلترا وفرنسا والبرتغال) بين سنتي ١٧٠١ و١٨١٠ أكثر من ثلاثة ملايين.

رابعاً: بين سنتي ١٤٥١ و١٨٧٠ نقل من الرقيق أكثر من عشرة ملايين.

وردت معنا أكثر من اشارة الى بعض المدن التي كانت مراكز تجمعات تجارية واجتماعية. ولعله من الخير لنا ان نلقي نظرة على بعض منها، لعل ذلك يفيدنا في توضيح الصورة اللازمة لنا لفهم تطور الاسلام في غرب افريقيا.

في سنة ١٧٠٠ زار رحالة هولندي هو دييد فان نينديل، مدينة بنين، وكتب عنها: «ان القماش (القطني) المصنوع في هذه البلاد ناعم جداً، وملون بألوان متعددة. تلبس النساء عقوداً جميلة من المرجان ويزين الاذرع بأساور من النحاس اللامع او الحديد. وقد تلبس بعضهن اساور (خلاخيل) في الارجل. وتغطي أصابعهن خواتم من النحاس.

«ان سكان بنين مهذبون جداً وطبيعتهم فيها أنس. وهم ينتظرون من الآخرين ان يعاملوهم بالمثل، وهم دقيقون في أعمالهم، ولن يقبلوا بالتخلي عن أي من عاداتهم القديمة. وعندما نقبل نحن (الاجانب) هذا ونسير على قاعدتهم، فإن أهل بنين يمكن التعامل معهم بيسر».

كتب رحالة انكليزي اسمه جون اتكنز في مطلع القرن التاسع عشر عن ويدا فقال: «انها اليوم أكبر مركز تجاري على الساحل الغيني، بحيث انها تبيع من الرقيق، في رأيي، بقدر ما تبيع المراكز الاخرى مجتمعة. فمنها تخرج سنوياً أربعون أو خمسون سفينة (فرنسية وانكليزية وبرتغالية وهولندية)».

وكتب تاجر أوروبي اسمه جون باربوت (في أواخر القرن الثامن عشر) عن الاتجار مع اردرة وويدا وغيرهما يقول ان الملوك في هذه المدن يحددون أسعار السلع، بما في ذلك الاسرى، ويبعثون وكلاءهم للمساومة مع ربابنة السفن وكانوا يفرضون الضرائب على الاوروبيين، ويضيف «من المألوف ان يهدي الاوروبيون الملك

ثمن خمسين من الرقيق على شكل بضاعة، ليسمح لهم بالاتجار، فضلاً عن دفع الرسوم الجمركية عن كل سفينة. وعليهم (الاوروبيين) ان يدفعوا لابن الملك ما يعادل ثمن اثنين من الرقيق ليحصلوا على الماء اللازم للبحارة، ولكي يؤذن لهم بقطع الاخشاب اللازمة لهم، يدفعون ما يعادل ثمن أربعة من الرقيق».

في سنة ١٨١٧ زار بضعة موظفين انكليز مدينة كوماسي عاصمة اسانتي، فاستقبلوا بحفاوة كبيرة. وقد وجدوا المدينة خيراً مما انتظروا. وجاء في كتابة لأحدهم قوله: «ان أربعة من الشوارع الرئيسية طول الواحد منها نصف ميل (٨٠٠ متر) وعرضه بين خمسين ومئة ياردة (٤٥ و ٩٠ متراً). جميع الشوارع لها اسماء. ولكل شارع ضابط ذو منصب عال يعنى به. وعلى سكان كل بيت ان يحرقوا زبالتهم كل صباح خلف الشارع. والناس نظيفون وحريصون على مظهر بيوتهم حرصهم على مظهرهم».

٣ ـ انتشار الاسلام في القرنين السابع والثامن عشر

نحن نتناول، في هذه الفصول، التطور الذي أصاب الجماعات المختلفة في غرب افريقيا، خلال القرون الاخيرة. وفي هذا المقال بالذات نعرض لما مرت به هذه الجماعات من تجارب واختبارات، وما آل اليه أمر الاسلام في المنطقة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بشكل خاص.

ولنذكّر أنفسنا، مرة أخرى، بأننا نتحدث عن منطقة واسعة متنوعة التضاريس مختلفة المناخ. وأكثر من ذلك، متعددة الاصول الاثنية. فضلاً عن ذلك فقد دخل سواحلها على الأقل عناصر ليست من المنطقة او حتى الجوار أصلاً ـ عناصر اوروبية متنوعة. لعل أكثر هؤلاء لم يقيموا في المنطقة، لكنهم حملوا اليها اشياء جديدة. ولسنا نشك في ان أهم ما حملوه من جديد هو الاسلحة النارية. وقد يكون من الصعب علينا، نحن الذين بلونا، مباشرة او بالواسطة، بالاسلحة الحديثة «المتطورة»، ان نتصور أثر دخول بارودة او بندقية ومعها رصاصات وخراطيش. لكن المهم ليس تصورنا نحن بل ما الذي حدث يومها. كان شر ما عند القوم سهام مسمومة. وهذه تصيب الواحد، لكن لا يمكن ان يطلق منها عدد كبير دفعة واحدة على مجموعة من الناس. أما البندقية فتستطيع ان «تدكها» وترمي بها أكثر من شخص واحد. وإذا تعدد الرماة تعددت الاصابات.

هذا من حيث ما حمل من الخارج. أما في الداخل فلعل أهم ما حدث هو الهجرات الفولانية، من المساكن الاصلية لهذا الشعب في بلاد التكرور حتى وصل القوم بلاد الحوسا. وكانت هجرة في موجات، وكل موجة كانت تحمل معها، بحكم ما يحدث من تطور، أفكاراً جديدة وتنظيمات حديثة.

والمنطقة، كما نعرف، واسعة. ولذلك فالتجارب الزراعية او الصناعية ليست بالضرورة منسقة أو متساوية. ولعل من أهم التطورات في الانتاج الزراعي في المنطقة في القرنين السابع عشر والثامن عشر العناية الشديدة بإنتاج المواد الغذائية بشكل أوسع، أي استثمار مساحات أوسع من الأراضي.

وأحسب ان أهم ما يجب ان نضعه نصب أعيننا، ونحن نتحدث عن الاسلام في المنطقة في القرنين السابع عشر والثامن عشر هو النشاط العلمي الاسلامي الذي بدا، على ما سنتحدث عنه مفصلاً، في المناسبات المختلفة، والذي كان انشاء

المؤسسات التعليمية الاسلامية مؤشره الرئيسي. ونشير الآن الى جماعات التوربده والجاخانكه والديولا، تاركين التحدث عن آثارها ومآثرها الى مكانها من هذا الحديث.

أشرنا من قبل الى التوربده، وإلى الدور الذي قامت به هذه الجماعة في سبيل نشر المعرفة الاسلامية. ولنضف الآن بضعة أمور أخرى، وأهمها أن هذه الجماعات كانت، عندما يتاح لها ان تنظم أمورها عبر دولة من الاسلام، تهتم كثيراً بإنشاء مستقرات، في أماكن لم يكن الاسلام قد وصلها من قبل، او ان دخوله فيها لم يكن ثابتاً. وكانت الجماعات تفرق، عملياً لا نظرياً، بين دار الاسلام ودار الحرب في تصرفها مع الفئات المختلفة. فقد سمحت مثلاً للتجار غير المسلمين أن يتاجروا في مناطق اسلامية عندما يدفعون الجزية على اعتبار وجود دارين: دار الاسلام ودار الحرب. وقد فرض الحاج عمر تلك الذي انشأ دولة التوكولور (في بلاد التكرور) في القرن التاسع عشر الجزية على الفرنسيين كي يسمح لهم بالاتجار في ديار المسلمين.

لم تقلّ جماعات الجاخانكه عن غيرهم من حيث العناية بالعلم. فقد أنشأوا «مستقرات» (أصبح بعضها مستوطنات كبيرة) كانت فيها معاهد للتعليم ـ يدرس فيها كتاب الله وشريعة الاسلام وشيء من الفقه. والمهم ان المعلمين لم يتقيدوا دوماً بمكان معين للتدريس، بل كانوا يتبعون القوم في حلهم وترحالهم كي ينقلوا المعرفة والعلم اليهم.

هذه الجماعات كانت ترى ان نشر الاسلام يجب ان يتم بالطرق السلمية، ولم يقبلوا قط بفكرة نشر الاسلام بالسيف. ومن ثم، فلم يكونوا موضع رضى من فئات أخرى، مثل التوربده التي اتجهت نحو استعمال القوة. وقد كانت مدينة غُنجور المركز الرئيسي للعلوم الاسلامية عند هذه الجماعات الجاخانكه.

وكان ثمة جماعات تجارية تعرف بالديولا. نشطت أولاً في منطقة سينغامبيا، لكن أفرادها بحكم اهتماماتهم ونشاطاتهم، انتشروا في حوض نهر النيجر وغيره في ما بعد. وأسست هذه الجماعات المدارس المختلفة. وحيث لم يفتحوا مدارس او يقيموا منشآت علمية كانوا يدفعون التبرعات السخية. فهم تجار اغنياء كرماء. ولأنهم كانوا يعملون في التجارة على نطاق واسع، فقد كانوا منظمين في أعمالهم. والمجتمعات التي كانوا يقيمونها للتعليم والتدريب كانت واحدتها تسمى «لو». وقد أنشأوا شبكة واسعة من هذه المؤسسات التي كان كل واحد يسكنها معلماً ومتعلماً ومتدرباً على العمل المنظم.

حركات كثيرة

سنعرض لحركات الجهاد الاسلامي المبكرة التي عرفها غرب افريقيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ونود ان نسجل هنا ملاحظة مهمة وهي أن هذه الحركات كانت نتيجة عوامل كثيرة اجتماعية واقتصادية وثقافية ودينية. ولأن هذه

كانت متباينة من حيث الاصل، فإن نتائجها كانت مختلفة بين جزء وآخر من المنطقة. ولنضرب على ذلك مثلاً ان ناصر الدين الذي قام بواحدة من هذه الحركات في القرن السابع عشر، سبق وأعلن الحرب أيضاً على جماعة عربية حسّانية مسلمة كانت تقيم في ما هو الآن جزء من جنوب موريتانيا، لينتزع منها الزعامة التي كانت لها على السودان.

كانت الحركة الاولى في سجل الجهاد المبكر في غرب افريقيا تلك التي بدأها ناصر الدين سنة ١٠٨٤ للهجرة (١٦٧٣ للميلاد) والتي كانت قد سبقتها محاولات قام بها لإحياء الاسلام عن طريق الوعظ والتعليم. فلما لم يفلح لجأ الى القوة، ولكنه بدأ بالنبلاء الحسّانيين (معقل) كما مر بنا. وكان من برنامجه مقاومة الاتجار بالرقيق. وأراد الرجل ان يبرز الناحية الدينية في حركته، فاتخذ لقب الإمام وأمير المؤمنين، وقال إنه المهدي المنتظر، وإن الله هو الذي وجهه نحو هذا العمل. ومع أنه نجح بعض النجاح في حملته الاحيائية فتسلط على فوتا تورو (طورو). وبسبب الخلاف بين أهل الحكم في والو وكايور، تمكن من السيطرة على المنطقة. وقد قتل في حملته على الحسّانيين سنة ١٠٨٥/ ١٦٧٤، ولم تلبث حركته بعده سوى بضع سنوات ثم انهارت وعاد كل شيء الى ما كان عليه.

كان بين الذين تقدموا لقيادة واحدة من حركات الجهاد الاسلامي المبكرة مالك سي، المولود حوالى سنة ١٦٤٠ على مقربة من بودور في فوتا تورو (طورو). وبعد ان تلقى تعليمه في مدرسة قرآنية، انتقل الى معهد عال في السنغال، حيث تعمق في الدراسات القرآنية والشرعية.

وبعد رحلات واسعة النطاق تولى منصب حاكم في جزء من مملكة غادياغا في السنغال. كانت المنطقة يقطنها سكانها الاصليون وهم فلاحون، ويقيم الى جانبهم مهاجرو الفولاني الذين كانوا بحاجة الى أرض يستغلونها. وقد جاءت موجة فولانية جديدة وأخرى من التوكولور (التكرور)، فاستقوى مالك بهم، وتسلح لأنه اعتزم القيام بالجهاد، وقطع علاقته بالملك الاصلي، وفرض سلطانه بالقوة على الجزء الذي كان يحكمه وأنشأ فيه دولة اسلامية (حوالى سنة ١١٠٧/ ١٦٩٦). ثم وسع حدودها بحد السيف، وتلقب بالإمام. وكانت بندو، عاصمة الامامة، على طريق تجاري كبير. اذ كانت تنقل عليه سلع كثيرة أهمها الذهب وجوز الكولا.

هذه أولى ثلاث إمامات قامت في تلك المنطقة من غرب افريقيا، وهي إمامات: بندو وفوتا جلّون وفوتا تورو طورو). وقد استمرت الاولى مدة أطول من غيرها. والامامة هي التي نشرت الاسلام في الرقعة.

أما المحاولة الثانية فقد قامت في فوتا جلّون، التي تقع في أواسط جمهورية غينيا/ كوناكري الحالية. كان السكان الاصليون في فوتا جلون فلاحين يعملون في

الارض. ولكن جماعات من قبائل الفولاني أخذت تنزح عن بلادها الاصلية التكرور الى فوتا جلون. والفولانيون كانوا مسلمين. أما الاصليون فلم يكونوا قد قبلوا الاسلام. وهنا قام ألفا كراموكو (ويسمى أيضاً موسى ابراهيم والفا ابراهيم سمبيغو) فأنشأ ادارة قوامها المجددون والجماعة المؤيدة لهم. وهذه الدويلة أخضعت فوتا جلون لنفوذها وقسّمت البلاد الى تسع ولايات وكان على رأسها امام - فهي من الاصل امامة - هو كراموكو. وكان يتمتع بسلطة دينية، فالدولة اسلامية، وبسلطة عسكرية في سبيل تحقيق برنامجه، الذي هو نشر الاسلام بين الذين لم يعرفوه او لم يقبلوه او قبلوه ولكن على ضعف.

لم يكن حكم كراموكو ديكتاتورياً، بل كان يستشير العلماء، الذين كان عليهم ان يعلّموا الشعب مبادىء الدين. وكان، بحسب النظام الذي سنّ للدولة، الامام ينتخب كل سنتين. ولكن، لأن الانتخاب كان مقصوراً على أسرتين، هما ألفا وسوري، فقد ازداد نفوذ الاسرتين ونفوذ الامام معهما. وكان كراموكو ينتخب المرة بعد المرة لسنتين.

ولما توفي كراموكو سنة ١١٦٣/ ١٧٥١ خلفه ابراهيم سوري (من الاسرة الثانية). وهذا بدّل اللقب الاصلي إمام الصلاة، واتخذ إمام الطاعة. وظل ابراهيم إماماً حتى وفاته سنة ١١٩٤/ ١٧٧١. وأخذت الحركة تتآكل بعد ذلك. لكنها خدمت الفئة المقيمة هناك عن طريق المدارس وأدت الى انتشار الاسلام في مناطق جديدة. وهذه النشاطات العلمية والدينية أعطت الجماعة شيئاً من المنعة الذاتية فاستمرت قائمة مع أنها كانت تتآكل.

ويختلف الوضع في فوتا تورو (طورو)، وهي التي تصاقب نهر السنغال من الجنوب. فالاسلام هنا ظل موجوداً على ما عرف من قبل، مع ان الملوك لم يكونوا مسلمين. وكان للمتصوفة شأن كبير بين الجماعات المسلمة هناك. وفي سبعينات القرن الثامن عشر هبط المنطقة جماعة من المصلحين المسلمين من التوربده بقيادة سليمان بال، الذي تمكّن بعد حروب طويلة من التغلب على حكام المنطقة وهم أسرة سيراتك التي كانت قد حكمت السنغال وجنوب موريتانيا أواخر القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر. وكانوا قد انكسروا في المعارك التي شنها عليهم ناصر الدين، إلا أنهم استعادوا سلطانهم، ولكن على شيء من الضعف. ومن ثم فلم يجد سليمان بال صعوبة في التغلب عليهم، ولو ان الحرب طالت لأنها كانت سجالاً.

قضى سليمان على الاسرة وأنشأ هنا أيضاً إمامة. لكن حكم الامام كان شديداً قاسياً. فقد تحكم الإمام، بحكم منصبه، بالارضين ووزعها بين الذين أيدوه. لكن الحكومة الإمامية أشاعت الأمن والطمأنينة في البلاد، وفتحت المدارس الاسلامية للصغار والمعاهد العليا للدرس والبحث.

سقط سليمان بال قتيلاً وهو يحارب جماعات من المغاربة في الجوار (سنة

١١٨٩/ ١٧٧٦)، وخلفه عبد القادر إماماً بالاختيار. وقاد جيشه الى النصر ،لكنه قتل في سنة ١٢٢١/ ١٨٠٦. وبذلك انتهت الدولة، لكن آثارها ظلت في الجماعة الاسلامية التي دربتها وعلمتها.

انتشار الاسلام

كانت النتيجة البيّنة بالنسبة لحركة الجهاد الاولى التي قامت في الاجزاء الغربية من غرب افريقيا، اي في سينغامبيا، هي انتشار الاسلام في مناطق جديدة. وإمامة بُندو كانت أفضل مثل على ذلك.

والاسلام الذي وضعت أسسه في هذه الدول وعند المؤسسات التي غذت زعماء هذه الدول وكوادرها كان الاسلام العلمي الواضح البعيد عن امتصاص أمور غريبة عنه بحيث تصبح جزءاً منه. ويعود السبب في وجود مثل هذا النوع من الأوضاع قبلاً الى انعدام المعلمين العارفين. فكان ثمة مثلاً، من يكتفي بالصلاة مرتين او ثلاثاً في اليوم بدل الصلوات الخمس.

كان الحكام عادلين وكانوا يعنون بتطبيق أحكام الشريعة. صحيح أن بعض الأئمة لم يكتف بالسلطة الدينية، بل اعتبر السلطة وحدة في جميع وجوهها. وقد يكون بعض الحكام مستبداً، ولكن الغالب عليهم كان العدل وتطبيق أحكام الشريعة.

وقد أصابت عدوى حركة الاصلاح الفولانية بقية المناطق في غرب افريقيا، فانتقلت شرقاً الى أواسط حوض النيجر ثم بعد ذلك الى بلاد الحوسا.

لكن بعض أصحاب النفوذ، حتى في الدول التي أشرنا اليها، كانت له أطماع أساسها المشاركة في تجارة الرقيق، وهو الامر الذي كان الكثيرون ينظرون اليه شزراً، فكانوا يعملون بالسر أموراً تتنافى مع القاعدة العامة. لكن المهم هو النظرة العامة المقبولة.

كان علماء الطوارق المعروفون باسم كل انتصار هم حملة العلم الاسلامي في تمبكتو وجوارها، وكانوا يفسرون الاسلام ويشرحونه لأهل المنطقة المحيطة بتمبكتو وغوا وما اليهما.

وفي القرن السادس عشر هبطت جماعة من الطوارق من أهل العلم منطقة أيَر وهي المسماة كل وي، وهم الذين أخذوا على عاتقهم الاهتمام بنشر الاسلام وتفسيره في الجهات التي كان يسيطر عليها سلاطين أيَر من الطوارق.

وكانت الفئة الاخرى التي تنتشر في أيَر وفي مناطق النيجر، والتي كانت تعمل على نشر الاسلام بالوسائل السلمية، هي فئة المتصوفة. وكانت الطريقة القادرية هي الابرز في تلك الجهات. وقد اثار وجود المتصوفة هواجس سلاطين أيَر وجماعة كل وي، وذلك بسبب نفوذ أصحاب الطرق الصوفية، خصوصاً ان هذه الطرق كانت تتمتع بثروة كبيرة جاءتها من الاهتمام بالتجارة والتجار، ومن التبرعات السخية التي كانت

تمنحها للعمل في سبيل الاسلام. من هنا كان موقف الفريقين الآخرين منها موقفاً عدائياً.

ظهرت في القرن السابع عشر جماعة أخرى من الطوارق عرفت باسم إنْسلمن (ومعناها بالبربرية المَسلَمون). هؤلاء كانوا يرون ان نشر الاسلام بالوسائل السلمية أجدى للاسلام والمسلمين.

إلا أنه من الضروري ان نتذكر ان الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فضلاً عن طبيعة المناطق الواسعة التي كانت هذه الفئات تتفاعل فيها، كان من الممكن ان تؤدي الى افتراق بين أفراد من فئة واحدة أو جماعة واحدة. ومن هنا فإننا لا نستغرب عندما نعرف ان أحد زعماء الانسلمن من البربر تأثر بما حدث في جهات أخرى، فخرج يحاول اصلاح الاسلام بالقوة. هذا هو هَداهدا.

كان هَداهدا عالماً كبيراً طموحاً، وكان حلمه الكبير أن ينشىء امبراطورية اسلامية تمتد عبر غرب افريقيا من تمبكتو الى أيَر، وتكون اللغة العربية لغتها الاصلية (ان هجرة العرب من الشمال الافريقي الى منطقة اير لم تؤد الى انتشار اللغة العربية على نحو ما حدث في الغرب في جنوب موريتانيا الحديثة أي في شنقيط).

بدأ هَداهدا حملته الجهادية حوالى سنة ١٠٤٩/ ١٦٤٠ والتي كانت نتيجتها الاولى تدمير مدن منطقة تدوق المجاورة لأير، وتدمير عدد من الاماكن «المقدسة» (عند السكان) داخل السلطنة (سلطنة اير) وخارجها. وكان مبرر هداهدا في تصرفه انه مجدد، أي إنه المصلح الذي يظهر كل مئة سنة ليعيد الى الاسلام فتوته وقوته. واتهم سلاطين ايَر بأنهم كانوا كفرة، ولذلك فلا حق لهم في طاعة رعاياهم.

عارض هداهدا كثيرون بشدة بسبب تهجمه على السلاطين، واعتبروا عمله موجهاً ضد الاسلام وحده. (سنرى ان مثال هداهدا كان له أتباع منهم الجيلاني في ادزار، وهو الذي جاء في القرن التاسع عشر).

وهكذا كانت سلطنة أيَر قد مرت بها في نهاية القرن الثاني عشر/ الثامن عشر أزمات كثيرة، منها كوارث ونوازل ومشاكل اقتصادية، ومع ذلك فقد كان هناك مراكز للعلم، مثل اغاديز، التي حافظت على مكانتها العلمية. وكان الطلاب يأتون اليها من سوقوتو وكانو.

فولتا العليا

كان ملك سنغاي قد جرب، حتى في القرن التاسع/ الخامس عشر، ان يرغم جماعة من وثنيي افريقيا في حوض الفولتا الاعلى على اعتناق الاسلام، لكنه فشل. وكل الذين نجح في كسبهم الى الاسلام هم الذين أسرهم. لكن الذي حدث بعد زوال امبراطورية سنغاي هو ان عدداً من التجار المسلمين استقروا، في مستوطنات أنشأوها او في قرى كانت قائمة، واقعة على الطرق التجارية التي كانت تصل تمبكتو

وجني بالجنوب الى كوماسي وما جاورها. هؤلاء التجار كانوا عاملاً في انتشار هادىء للإسلام بين السكان الاصليين. ومع ان الحكام أنفسهم لم يعتنقوا الاسلام، فإنهم سمحوا للمسلمين ان يبنوا المساجد والجوامع، حتى في العاصمة وغادوغو (وهي عاصمة بوركينا فاسو الحالية).

وهذا الذي حدث في منطقة موسي جرى مثله في المناطق الواقعة الى الشرق من نهر الفولتا الاسود، مثل مامبروسّي. فإن نشاط التجار والتجارة مع بلاد الحوسا أدى الى قيام نشاط اسلامي فيها وفي «وا» في القرن الحادي عشر/ السابع عشر، كان من آثاره انتشار الاسلام فيهما، وخصوصاً في الاولى أيام اتابيا (حكم حوالى ١١٠٠ - ١١٥٥/ ١٦٨٨ - ١٧٤١).

على ان الجماعات الاسلامية التي استقرت في المناطق الواقعة غربي الفولتا الاسود، كانت تعنى بالدراسات الاسلامية عناية دقيقة، وظلت معتزلة فئات السكان الاخرى. لذلك فإن علماءها كانت معرفتهم بالاسلام أكبر وأعمق، لكنهم لم يعملوا على نشره. وانتشار الاسلام هناك جاء متأخراً. كانت دولة بورنو قوية غنية في القرن الحادي عشر/ السابع عشر، لكنها تضعضعت تجارياً وسياسياً في القرن التالي، وسبب ذلك الاساسي الخلافات بين متولي الامور والطامعين في الوصول الى مراكز السلطة. ثم ان الطوارق هاجموها في ذلك القرن. ومع ذلك فقد استمر للإسلام شأنه وتطور سيره. فقد شجع الملوك العلماء فأغدقوا عليهم الهبات وأعفوهم من كثير من الضرائب والخدمة في الجيش. وكان لأربعة من حكامهم على العلم والعلماء أياد بيضاء وهم (ولقب الملك عندهم ماي):

- ماي علي بن الحاج عمر حكم ١٠٥٣ - ١٠٩٢/ ١٦٤٤ - ١٦٨٠.
- ماي ادريس بن الحاج علي حكم ١١١١ - ١١٢٩/ ١٦٩٩ - ١٧١٧.
- ماي حمدون بن دونما حكم ١١٢٩ - ١١٤٤/ ١٧١٧ - ١٧٣١.
- ماي علي بن دونما حكم ١١٦٤ - ١٢٠٦/ ١٧٥٠ - ١٧٩١.

ويجب ان نذكر أن الغابات المدارية ودلتا نهر النيجر بدأ الاسلام في الانتشار فيهما انتشاراً عادياً بطيئاً، واستمر ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وثمة شعوب وقبائل لم تكن قد عرفت عن الاسلام شيئاً قبل القرن السابع عشر. وقد انتشر الاسلام هناك حوالى سنة ١٧٧٥. ومن بين الداخلين الجدد مجموعة صغيرة من قبيلة يوروبا (في جنوب نيجيريا الحالية) كانت ذات أهمية كبيرة في انتشار الاسلام في ما بعد. وفي دولة اسانتي كان المسلمون مستشارين للملوك، كما كانوا يتحكمون الى درجة كبيرة في تجارة الذهب والكولا والملح والرقيق، وقد كادوا ان يحتكروا الاتجار بالأبقار. لذلك كان لهم نفوذ كبير ودور أكبر في تعريف الناس بالاسلام عملياً.
وأخيراً يجدر بنا أن نذكر أن الإسلام وصل في القرن الثامن عشر، ان لم يكن قبل

ذلك، غابات سيراليون وليبيريا الحاليتين.

أما بلاد الحوسا فقد تركناها الى الفصل التالي لارتباط ما حدث فيها بالجهاد الاسلامي في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر هناك.

يمكن، في نهاية حديثنا عن التجربة الاسلامية في القرنين السابع عشر والثامن عشر في غرب افريقيا، ان نشير الى عدد من الامور لعلها تكون جسراً بين هذه الفترة والفترة التالية.

كانت الضربة التي أصابت الفئات الاسلامية بزوال سنغاي كبيرة جداً، ومع ذلك فإن انتشار الاسلام لم يتوقف، وإن كان تعثر قليلاً. ووجد الاسلام طريقه الى مناطق جديدة، وذلك بسبب المستوطنات التي قامت ليريح فيها التجار المسلمون. والاراحة كانت يومها طويلة. وكان عدد المعلمين والواعظين، المتنقلين والمستقرين، كبيراً. وشكل اللجوء الى الاسلوب السلمي أثره الكبير في انتشار الاسلام في مناطق كثيرة. ومع ذلك فإن المجاهدين، الذين لجأوا الى القوة، لم يعدموا المكافأة على أعمالهم، فقد أوصلوا الاسلام الى كثيرين.

وفيما كانت البنود تخفق فوق رؤوس الجنود الذين كانوا يمثلون محاولة اصلاح أحوال المسلمين ونشر الاسلام بالقوة، وفيما كانت طبول الحرب تقرع هنا وهناك تخفي أطماعاً وتدعي ـ أحياناً ـ نشر الاسلام، كانت ثمة صلوات ترتفع هنا وهناك تدعو الناس الى عبادة الله ونشر دينه بين الناس بأهون سبل السلام. وقد تعددت هذه الاصوات، لكن المجال لا يتسع لها جميعها، لذلك فإنني أكتفي بالتحدث عن صوت واحد وصاحبه، وهو الشيخ سيدي المختار الكبير الكونتي (الكُنتي) الذي امتدت حياته من سنة ١١٤٢ الى ١٢٢٧ (١٧٢٩ الى ١٨١١)، على وجه التقريب.

ولد الشيخ سيدي المختار في اراوان الواقعة الى الشمال من تمبكتو، وعاش حياة مليئة بالجد والنشاط والعمل في سبيل الاسلام نشراً وتعليماً وتوضيحاً وإصلاحاً لأتباعه وحياتهم.

كان عالماً كبيراً عارفاً بالشريعة، محيطاً بالمعرفة النابعة من الحقيقة، صوفيّاً معرفة وزعامة في الطريقة القادرية، وضع نحو ٣٠٠ كتاب ورسالة في شؤون الدين، على ما أدركها.

قضى حياته يدعو الى الجهاد الاكبر الروحي، جهاد القلب المؤمن، والعقل المتزن واللسان الدافىء. وعاش في العالم فلم يعتزله ولا دعا الى اعتزاله. كان يشجع الناس على العمل في التجارة، وكان في ذلك يتأسى بالرسول الكريم (ص) الذي عمل في التجارة قبل الدعوة الى النبوة وكان يقسو على المدعين من المسلمين في نقده. أما أتباعه فرأوا فيه العالم والصوفي والولي.

وقد توفي في جهات تمبكتو، على ما روينا.

٤ ـ الاصلاح والجهاد في القرن التاسع عشر

يجدر بنا ان نضع أمام القارىء بضع ملاحظات عامة تساعده وإياناً على تتبع انتشار الاسلام وتطوره في غرب افريقيا في القرن التاسع عشر.

١ ـ الجماعتان اللتان مرتا بنا الكونتا (الكنتا) والتوربدة، واللتان كانتا تزودان المنطقة بالمعلمين والمفكرين المسلمين كانتا وراء انتشار الاسلام ونشره في القرن التاسع عشر، على خلاف بين الفريقين في الاسلوب المتبع. فالكونتا كانوا يميلون الى التعليم والتفسير والشرح ونشر الاسلام بالوسائل السلمية على الفئات التي يتصلون بها، كان التوربدة يريدون اصلاح المسلمين بالقوة وفرض الاسلام على غير المسلمين بالأسلوب نفسه.

٢ ـ البربر الغربيون الذين كانوا يقيمون في المناطق التي هي موريتانيا الآن، وفي ما جاور ذلك (وغالبيتهم من صنهاجة) كانوا قد تعربوا تماماً، وكانوا بطبيعة الحال، مسلمين تماماً. أما البربر الذين ظلوا يقيمون في الاجزاء الوسطى، فقد حافظوا على الكثير من قواعد السلوك البربرية، مع أنهم كانوا مسلمين. كما انهم حافظوا على استعمال اللثام، وهم المدعوون بالطوارق.

٣ ـ يذكر ان الطرق الصوفية التي أخذت سبيلها الى انحاء غرب افريقيا، كان لها أثر كبير في نشر الاسلام وفي توجيه السبل وتعيينها. وأقدم الطرق المعروفة هناك هي القادرية التي حملها الى المنطقة الشيخ عمر (المتوفى حول سنة ٩٦٠/ ١٥٥٣) إذ أُلبس الخرقة اثناء تأديته فريضة الحج.

وكان أتباعها، مثل جماعة الكنتا، يفضلون أساليب السلم والتعليم. ومع ان القادرية أخذت بالانكماش فإن الشيخ سيديا الكبير وحفيده الشيخ سيديا الصغير دفعا بها الى الأمام في القرن التاسع عشر.

وفي أواخر القرن الثامن عشر أسس أحمد التجاني الطريقة التجانية في الجزائر، ثم انتقل الى المغرب، مع ان عين ماضي ظلت المركز الرئيسي لهذه الطريقة. ولما توفي مؤسسها (سنة ١٢٣٠/ ١٨١٥) كانت قد أصبحت قوية، وكانت من الأصل، حركة مقاومة. لذلك لما انتشرت في سينغامبيا في القرن التاسع عشر كانت طريقة «مقاتلة». وفي هذه الفترة كان انتشار التجانية في منطقة ما يتم على حساب

القادرية، ان كانت هذه قد وصلت قبلها. ومن هنا فقد كانت جماعة التوربدة مؤيدة للتجانية، كما كانت تستمد منها عوناً روحياً.

٤ ـ كانت ثمة طرق صوفية أخرى معروفة في أصقاع غرب افريقيا ـ مثل الشاذلية (المغربية الأصل من القرن الثالث عشر) ووليدتها الجزولية (في القرن الخامس عشر) والفاضلية التي يعود تأسيسها الى محمد فاضل (توفي ١٢٨٥/ ١٨٦٩). وقد كانت الطريقة السودانية الأصل قلباً وقالباً هي المريدية التي أسسها أحمد بمبا (توفي ١٢٤٥/ ١٩٢٧)، والتي يتبعها الآن ما لا يقل عن نصف مليون افريقي. والسنوسية التي أنشأها محمد بن علي السنوسي في ليبيا في أواسط القرن التاسع عشر، انتشرت، عن طريق الجغبوب والكفرة في كانم وبورنو وإندي. لكن الحملات الفرنسية ضدها هدمت زواياها ومؤسساتها هناك (بين سنتي ١٩٠٢ و١٩١٣) بحيث انها قضت عليها.

وعلى كل، ففي القرن التاسع عشر كان كل مسلم تقريباً إما تابعاً للقادرية او للتجانية. والقادرية كانت شائعة في شمال نيجيريا وكانم وباغرمي. في سنة ١٩٦١ كنت في مرزق (مرزوق) في فزان، وعرفت ان الطريقة القادرية كان لا يزال لها يومها أتباع، مع ان السنوسية كادت ان تكون الطريقة الرسمية ـ اذا جاز التعبير ـ في ليبيا.

٥ ـ على كل، بسبب سعة الرقعة التي نتحدث عنها وبسبب تعدد الاتجاهات وحتى وجهات النظر، ولأن الأحوال الاقتصادية كانت تتبدل كثيراً، فقد تعرف بعض اجزاء من غرب افريقيا لثورة دينية سياسية اجتماعية عبرت عن نفسها بحمل السلاح وإنشاء دول أساسها الاسلام قاعدة وحكماً، و«فرضته» ديناً على رعاياها. على أننا يجب ان لا ننسى ان بعض هذا القتال الذي سنتحدث عنه لم يكن دوماً لوجه الله تعالى. فقد دخلت فيه الأطماع الشخصية والخصومات الاسرية والأحقاد.

الاصلاح الديني

الحركات التي سنتعرض لها في هذه الفصول كانت ترمي مبدئياً الى خلق مجتمع مسلم مثالي يعيش مبادىء الاسلام الحق ويتصرف بموجب أحكام الشريعة. وكي يتاح للحركات تحقيق هذا الهدف الاصلي الأصيل كان عليها أن تقوم بعملين متلازمين زمناً، وقد يتلازمان مكاناً. أما الأول فهو تقويم اعوجاج الفئات الاسلامية الموجودة. وكان المصلحون يكادون ان يروا اعوجاجاً في كل مجتمع عرفوه. والأمر الثاني هو فرض الاسلام على الجماعات التي تقيم في حدود الدولة الاسلامية المثالية التي تسعى الحركة الى اقامتها. والمهم هو ان هذا كله كان يحقق بقوة السلاح. ومن هنا فقد أطلق «الجهاد» على هذه الحركات.

ويذكر ان العلماء كانت لهم يد طولى في تغذية هذه الحركات بالآراء والتفاسير التي اتخذ منها الزعماء سلّماً يصعدون عليه في سيرهم، الذي كان طويلاً في أحيان

كثيرة. فهؤلاء هم الذين شغلوا أنفسهم بقراءة ما وضعه الغزالي أو ما ألفه السيوطي ثم ما جاء به المغيلي معقباً عليهما.

ولعل أشهر هؤلاء الزعماء المجاهدين الذين عرفتهم المنطقة في مطلع القرن التاسع عشر هو عثمان بن محمد بن فودي المعروف باسم عثمان (او عسمان) دان فوديو (أو فيديو) الذي ولد سنة ١٧٤٥ هـ. وقد تتلمذ عثمان هذا على الحاج جبريل بن عمر، الذي كان من أوائل من دعا الى الجهاد في بلاد الحوسا.

كان عثمان من جماعة التوربدة التي كانت تقيم في غوبر متمركزة حول مدينة دغل (في شمال نيجيريا الحالية). ولما كان المعلمون من التوربدة يدعون الناس الى اعتناق الاسلام الصحيح وإصلاح ما فسد من الذين اعتنقوه ولم يفهموه، وكانوا يشيرون الى وجوب استعمال السلاح لتحقيق هذه الامور، فقد اتخذ حكام بلاد الحوسا موقفاً قوامه وقف الجماعة عند حدها. فأصدر الحاكم أمراً (سنة ١٢١٢ هـ/ ١٧٩٧ ـ ٨م) يمنع بموجبه جميع الدعاة من القيام بالوعظ أو الخطابة في موضوع الاصلاح وأساليبه باستثناء عثمان نفسه. وصدر بعد ذلك بنحو خمس سنوات، أمر حكومي يطلب فيه من عثمان وأسرته التخلي عن جماعته من المسلمين في دغل والانتقال الى مكان آخر. ومع ان عثمان تردد في الامتثال لهذا الامر أولاً، إلا انه قبل بذلك وهاجر سنة ١٢١٩/ ١٨٠٤ الى غودو متأسياً، كما قال، خطى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته من مكة المكرمة الى المدينة المنورة. وقد انضم اليه عدد كبير من المهاجرين من مختلف العناصر القبلية، الحوسا والفولاني والطوارق، فكانوا عزوة له في مقره الجديد. وفي المقر هذا انتخب عثمان، وهو زعيم أهل الجهاد، إماماً وأمير المؤمنين.

في تلك السنة نفسها أعلن عثمان، في رسالة سميت «وثيقة السودان»، آراءه وخطته في العمل. وقد جاء فيها: (١) على المؤمن ان يعلن الجهاد، وينفذه ضد الحكام من غير المسلمين. (٢) وعلى المجاهد ان يستولي على دولة إذا فسد حكامها المسلمون بانحرافهم عن أصول الاسلام. (٣) لكن لا يجوز لمسلم ان يهاجم المسلمين المقيمين في بلد اسلامي. (٤) لا يجوز لمسلم استرقاق المؤمنين سواء أقاموا في بلد اسلامي أو في غير ذلك. (٥) شدد عثمان انه على المسلم ان يدعو دوماً الى الخير وأن ينهى عن المنكر.

فضلاً عن هذه الوثيقة وضع عثمان مؤلفات عدة لعل أهمها اثنان: كتاب الفرق وتعليم الاخوان. ويتناول الأول النواحي التنظيمية التي يصر الاسلام على تطبيقها كما أدركها عثمان، من مثل العناية بالقضاء بحيث يعهد الى رئيس القضاة التأكد من صحة تصرفهم، والاهتمام بأن تكون الضرائب قد شرّعها الاسلام دون شطط في فرضها

وجمعها. وحمل عثمان في هذا الكتاب على حكام لم يكونوا يراعون أحكام الاسلام في تصرفاتهم، من بين الجماعات المجاورة لمركز حركته.

يبدو ان يُنفا، حاكم الحوسا يومها، أراد ان يقضي على حركة عثمان منذ البداية، لذلك أغار على غود في أوائل سنة ١٢١٩/ أواخر ١٨٠٤. لكنه لما وصل وجد ان عثمان وجماعته قد أخلوها. الا ان الفريقين اشتبكا في معركة قرب تبكن كوتو، بعد ذلك بمدة قصيرة. في هذه العركة انتصر المسلمون فشبهها عثمان بمعركة بدر تيمناً بالنصر المؤزر. لكن المعركة التالية كانت وبالاً على عثمان ومؤيديه، فقد اشتبكوا بعد النصر الاول بمدة قصيرة مع قوات يُنفا، وخسروا المعركة. وقد روي فيما بعد ان ألفين من أهل العدم من المسلمين قتلوا في هذه المعركة.

ومع ذلك فقد اجتاح المسلمون مناطق في شمال نيجيريا واحتلوها مثل كبي وكاتسينا، واتخذوا من مدينة غواندو (في لبي) عاصمة لهم. وفي سنة ١٢٢٣/ ١٨٠٨، وكانت قوات عثمان قد زادت ودربت على القتال، هاجم عاصمة غوبر، وكان زعماء كانو وداورا وسواهما قد قبلوا بسلطان عثمان. كما ان عثمان هاجم في السنة نفسها بورنو، وهي دولة اسلامية.

في سنة ١٢٢٤/ ١٨٠٩ كان محمد بلو بن عثمان قد اتخذ من سكوتو مستقراً لحركة الجهاد، فأقام المؤسسات التي حسبها صالحة وضرورية للإدارة والعمل. وبعد ثلاث سنوات قسّم عثمان البلاد بين ابنه محمد بلو (في المشرق) وأخيه عبدالله (في المغرب) وحكام محليين موالين له في الشمال والجنوب، واحتفظ هو لنفسه بمنصب الخلافة إذ كان قد سمي أمير المؤمنين. وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٢٣٣/ ١٨١٧، فخلفه في المنصب ابنه محمد بلو.

كانت قد بدت، في السنوات الأخيرة من حكم عثمان، أمور خالف فيها أصحاب السلطة في المناطق أحكام الاسلام. وتلا ذلك، بعد موت عثمان، قيام ثورات محلية، لم تلبث ان ازداد عددها اذ إنها أزعجت محمد بلو. وقد لجأ الخليفة يومها الى بناء الرباطات في انحاء امبراطوريته كي يحتوي الثوار الذين لم يستطع ان يقهرهم حربياً او الذين لم يكونوا يستحقون حملة عسكرية.

ولعل من أهم ما يلفتنا في هذه الامبراطورية/ الخلافة في سوكوتو في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو، فضلاً عن الخلافات المستحكمة والمنازعات حول الخلافة في كانو وغيرها، الحركة المهدية التي شغلت المسلمين في رقاع كثيرة من افريقيا. فالأسطورة التي كانت تقول بأن مصلحاً سيأتي في مطلع (رأس) كل مئة سنة ليجدد نشاط المسلمين ويخلّصهم من مشاكلهم وقضاياهم، انتعشت يومها، على ان القادم هو المهدي الذي سيملأ العالم عدلا بعد ان امتلأ جوراً. ويعزى الى عثمان أنه لم يعترض لما أشير اليه على أنه المهدي المنتظر إلا بعد ان استقر له الأمر، فقد

أفاده ان يرى فيه الناس المهدي. وكان لغرب افريقيا مهديه في شخص هياتو الذي ادعى المهدية ولقي التأييد من عامة الشعب بحيث أنه أصبح سنة ١٣٠٨/ ١٨٩٠، سيداً وحاكماً لمنطقة واسعة في ادماوا التي كانت جزءاً من خلافة سوكوتو. وقام مهدي آخر هو معلم جبريل في غومبي في الوقت نفسه.

والذي يتوجب علينا ان نذكره هو ان مثل هذه الحركات المحلية (لدولة مهدية) انما كانت تقليداً لقيام المهدي السوداني الذي أعلن ذلك سنة ١٢٩٨/ ١٨٨١.

ولم تعرف خلافة سوكوتو، حتى ولا أيام عثمان دان فوديو، استقراراً تاماً. لكن الامر ازداد سوءاً بالتدريج. وقد خلف عثمان في الخلافة محمد بلو، ولو انه احتفظ لعمه بمنصبه الذي منحه إياه عثمان قبل وفاته. ولما توفي عبدالله انفرد محمد بلو بالسلطة حتى وفاته (١٢٥٣/ ١٨٢٩). ونجح أخوه أبو بكر عتيق بالاستيلاء على السلطة وحكم الى سنة ١٢٥٨/ ١٨٤٢ متخطياً بذلك ابن محمد بلو سعيد الذي اتجه نحو جماعة ادماوا. ولما توفي أبو بكر خلفه في سدة الرئاسة علي (١٢٥٨ ـ ١٢٧٦/ ١٨٤٢ ـ ١٨٥٩).

كانت المشاكل المختلفة من خلاف على السلطة ونزاع مستمر بين الامراء في خلافة سوكوتو والثورات المحلية قد أضعفت السلطة المركزية الى حد ان أيام علي شهدت انتقال السلطة نهائياً الى حكام الولايات المتحدة والامراء المحليين. وانتشر الطوارق في المنطقة منحدرين مع نهر النيجر وأصبحوا حراس التجارة والتجار. لذلك، لما وصل البريطانيون الى تلك المناطق التي كانت تشمل القسم الاكبر من شمال نيجيريا (الحالية) سنة ١٩٠٣، لم يجدوا مقاومة تذكر. وتم احتلالهم للبلاد سنة ١٣٢٢/ ١٩٠٤.

صحيح ان عثمان دان فوديو لم يستطع ان ينشىء الدولة الاسلامية المثالية التي خطط لها وسعى في سبيلها. لكن قيام خلافة سوكوتو كان له أثر في المنطقة. فحركة الجهاد هذه أثارت في نفوس الكثيرين الرغبة في التعرف إلى الاسلام الاصيل. ومن هنا فقد اتسع نطاق التعليم بين السكان، وخصوصاً في المدن والقرى. ورأى الناس انه من الممكن ان تقوم حكومة اسلامية مركزية لها عناصر الدولة وتشرف على منطقة واسعة. وهذه الحركات أدت الى انتشار الاسلام في بلاد الحوسا. ومع ان الكثيرين في الاطراف ظلوا وثنيين، فقد أدرك عدد لا يستهان به من المسلمين ان الاسلام فيه مجال واسع للسير قدماً.

السنغال

كان من زعماء الاصلاح مع الجهاد في تلك المنطقة الحاج عمر بن سعيد التل (او التال). ولد الحاج عمر حوالى سنة ١٢٠٩/ ١٧٩٤ وكان أبوه مدرساً في كتاب في فوتو تورو في شمال السنغال. لذلك نشأ على الرغبة في العلم. ولأن أباه كان من

جماعة التوربده، فقد كان يؤمن بالاصلاح عن طريق الجهاد. ويبدو ان عمر بن سعيد التل خرج من بيت والده في سن مبكرة طالباً الاستزادة من العلم. فقد قيل إنه كان في سن الخامسة عشرة لما بدأ رحلة العلم الطويلة (وهناك من يضيف بضع سنوات فيقرب سنه من العشرين). وكان عمر قد مال الى التصوف فأخذ يبحث عن شيخ من شيوخ إحدى الطرق. وقد لقي بين جماعة فوتا جلّون بغيته لما اتصل بالتجانية التي كانت قد وصلت المنطقة قبل مدة قصيرة (والتجانية هي حديثة العهد) فاتخذه أحد معلميه مريداً، أي إنه لم يقبل عضواً كامل العضوية. في سنة ١٢٤١/ ١٨٢٥ اتجه نحو مكة المكرمة لأداء فريضة الحج والاستزادة من العلم والمعرفة عند المجاورين فيها. وقضى ثلاث سنوات في الطريق اذ كان يقيم في كل مكان يجد فيه متصوفة وفقهاء. فعل هذا في كل من مسينا وكونغ وسوكوتو وأيَر وبورنو والفزان ومصر. وقضى في مكة المكرمة ثلاث سنوات، فحج ثلاثاً وجاور مع من جاور طالباً ومدرساً، وفي هذه المدينة قبل عضواً تام العضوية في التجانية، فأصبح من شيوخها (الصغار).

ولما اعتزم العودة الى بلاده ومنطقته مر ببورنو، وكان الكانمي حاكمها من أتباع القادرية. وأقام ست سنوات في سوكوتو أيام ولاية محمد بلو وقد تزوج ابنة هذا الأخير فولدت له احمدو الذي أصبح خليفته فيما بعد. ومر بمسينا وأقام فيها ضيفاً على حاكمها احمدو لبو الأول. وأخيراً وصل الى فوتا تورو ثم انتقل الى فوتا جلّون. وفي سنة ١٢٥٦/ ١٨٤٠انشأ مركزاً لدراسة الاسلام وتعليمه وللدعوة بين غير المسلمين، وكان داعية للتجاني. وكان هذا المركز في دياغوكو ثم اضطر الى تركه والذهاب الى دنغيري. ومع ان الحاج عمر كان يعتبر الاوروبيين كفاراً فإنه لم يمتنع عن الاتجار معهم: مع البريطانيين في سيراليون ومع الفرنسيين في سان لويس وفي حوض نهر السنغال. إلا ان الحاج عمر لم يكن يبتاع من الفريقين إلا الاسلحة والذخيرة مقابل الرقيق الذي كان يأسره من المناطق المجاورة. وكان يدعو الى مقاطعة البضائع الاوروبية.

اعتبر إمام (المامي) تمبو في فوتا جلّون الحاج عمر مصدر خطر عليه. فقد كان الرجل يوحي بالقوة والسلطان، وكانت دعوته تلقى الكثير من التأييد. وأراد الحاج عمر ان يتحاشى الاحتكاك مع هذا المامي فهاجر، اسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم، الى دنغيري (سنة ١٢٦٨/ ١٨٥١). وفي ٢ ذي الحجة ١٢٦٩/ ٦ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٢ أعلن الحاج عمر لأتباعه ان الله أمره بالجهاد.

كان موقف الفرنسيين من الحاج عمر في الاربعينات موقف استفادة من الاتجار معه والسماح لهم بالاتجار مع الآخرين، بل انهم ايدوه في خططه لفرض السلام في حوض السنغال وبقية سينغامبيا. لكن الامر تبدل اعتباراً من حوالى منتصف الخمسينات، لما تقوى مركز الفرنسيين وزادوا قواتهم المحاربة وأدركوا ان خطراً كبيراً

قد يهددهم من تقوية الحاج عمر. لذلك عمدت الادارة الفرنسية الى تقوية نقاط الدفاع وبناء حصون جديدة في المنطقة. ومع ان قتالاً حصل بين الحاج عمر وحلفاء الفرنسيين، فإنه وجد من المناسب ان لا يناصبهم العداء موقتاً الى ان يتاح له ان يقوي دولته، ويوسع أملاكه. والفرنسيون، من جهتهم، تركوه يتجه شرقاً نحو بمبرا ومسينا اللتين احتلهما في سنتي ١٢٧٨/ ١٨٦١ و١٢٧٩/ ١٨٦٢ على التوالي. والذي دعا اليه الحاج عمر الآن هو هجرة المسلمين، من ديار يسيطر عليها حكام غير المسلمين، ومعنى هذا كان انتقال المسلمين من سينغامبيا الى سلطنته.

على ان الحاج عمر قتل في ثورة قامت في مسينا ضده. وكان ذلك في رمضان سنة ١٢٧٩/ شباط (فبراير) ١٨٦٣. لكن ابن أخيه، الذي خلفه في القيادة، انتصر على قوات مسينا وتمبكتو في السنة التالية. وهكذا فإن دولة توكولور التي انشأها الحاج عمر، والتي كانت تشغل حيزاً كبيراً في حوضي النيجر الاعلى والأوسط استمرت وعلى رأسها احمدو بن الحاج عمر الى ان قضى عليها الفرنسيون سنة ١٣١١/ ١٨٩٣.

تولى احمدو، وهو ابن الحاج عمر من زوجته بنت محمد بلو خليفة سوكوتو، شؤون الامبراطورية التي أنشأها أبوه نحو ثلاثين سنة، منذ مقتل والده حتى خسارة الدولة أمام الهجوم الفرنسي.

لكن كانت هناك مشاكل جعلت حكم احمدو ضعيفاً إذا قيس بما فعله أبوه. فالرجل لم تكن له قوة الشخصية الجذابة التي كان أبوه يتمتع بها. ولما قتل الحاج عمر كانت هناك مشكلة تتعلق بالخلافة. فأنصار احمدو قالوا إن الوالد كان قد اختار احمدو خليفة له، ومنحه البركة ليتم العمل. والراجح ان هذه الرواية صحيحة. لكن أخوي احمدو من أم ثانية لم يقبلا بانتخاب خليفة للحاج عمر على نحو ما كان يجري أيام الخلفاء الراشدين. ويبدو ان الاخوين كانا يشجعان هذه الجماعة. لذلك لما تولى احمدو السلطة استقل أول من استقل عملياً ابن عم له فتولى شؤون مسينا؟ واستقل الاخوان كل بولاية. ونشبت في البلاد حرب أهلية سنة ١٢٨٧/ ١٨٧٠ بسبب محاولات الخروج على السلطة المركزية والاستقلال عنها، ودامت الحرب سنتين وأضعفت جميع الفرقاء. وخلال هذه السنوات التي تلت الحرب الأهلية كان الفرنسيون يتظاهرون بالتعاون مع احمدو فيما كانوا يضغطون على حكام من زعماء الامبراطورية التوكولورية ليعملوا ضد احمدو ويقوّضوا سلطانه.

ثم قرر الفرنسيون القضاء على الدولة واحتلال المنطقة، فتم لهم ذلك خلال بضع سنين.

ونحن عندما نحاول تقييم الدور الذي قامت به الدولة الجهادية التي أنشأها الحاج عمر، نجد انها لم تكن الدولة الاسلامية المثالية التي تصورها خلال رحلاته في طلب العلم. فالرجل لم يعمر طويلاً ليطور الاشياء على ما نوى. لذلك نجد ان بمبرا

مثلاً كانت تدار أيام احمدو كما كانت تدار قبل أيام الحاج عمر. ولم يستطع الحاج عمر ان يبدل الكثير من تقاليد المجتمع، لكن الرجل نجح في نشر الاسلام بين عدد كبير من الوثنيين وفتح أعين المسلمين الذين لم يكونوا يدركون كنه الدين الى وجوب التعرف إليه. وكان للتجانية دور كبير في الأمرين، اذ لا شك ان التجمعات أقرب الى نفوس الناس من التفرد بالعمل، ودعا الى التنشيط والعبادة.

ولا شك ان من أهم ما أنجزته دولة الحاج عمر، مثل دولة الخلافة في سوكوتو، هو نشر التعليم في انحاء البلاد وتشجيع الناس على الالتحاق بالمؤسسات التعليمية، ولو انها كانت ابتدائية، لكنها كانت جدية.

فضلاً عن هذين المثلين الكبيرين، هناك عدد لا بأس به من هؤلاء المصلحين الجهاديين. منهم الشيخ احمدو لوبو (الأول) في مسينا، وساموري في حوض النيجر الاعلى ووادي ميلو، وديا خوبا في سينغامبيا، والفامولو في المنطقة نفسها. ومحمد لامين (الامين) التجاني في خاصو. على ان التحدث عن هذه الحركات بالتفصيل يؤدي بنا الى متاهات جغرافية وتاريخية.

٥ ـ انتشار الاسلام في القرن التاسع عشر

كان لقيام الحركات الاصلاحية الجهادية ونشوء الدول الاسلامية التي عرضنا للأهم منها في المقال السابق، أثر مهم جداً بالنسبة للاسلام في غرب افريقيا، بل في افريقيا جنوبي الصحراء بأكملها. وهو أن الاسلام الذي كان حتى أواسط القرن الثامن عشر يشغل منزلة شبه هامشية من الناحية الرسمية، أصبح في القرن التاسع عشر يتوسط البؤرة في الحكم والمواقف الرسمية.

وكان القائمون على شؤون الدول الاسلامية يتشددون بوجوب التقيد بأحكام الاسلام، وكان من الطبيعي ان يكون موقف الدعاة هو ان الاسلام وحده هو الدين القويم، الذي لا يقبل مساومة ولا مقاسمة في نقلة كبيرة في سبيل انتشار الاسلام انتشاراً صحيحاً.

على ان القرن التاسع عشر شهد انتشار الاسلام في رقاع مختلفة من غرب افريقيا، من دون ان يكون ذلك عن طريق الجهاد، بل بالأساليب السلمية والدعوة اليه دعوة نشر وتوضيح. ومثل ذلك ينساب على المحاولات الاصلاحية الاسلامية التي عرفتها بعض المناطق.

وإذا نحن أخذنا بعض اجزاء الصحراء الغربية في جزئها الجنوبي، وهي التي تكوّن الآن جزءاً من جمهورية موريتانيا الاسلامية، وجدنا فيها تطورات اساسية كان لها دور فعال في تطور الاسلام وانتشاره لا في المنطقة فحسب، بل خارجها أيضاً.

فقد عرفت احياء للزاويا التي أصبحت مقراً لعلماء أجلاء أصلهم من المغرب وحتى من المشرق العربي. وهؤلاء العلماء كانوا يجيدون اللغة العربية. وقد نبغ في موريتانيا (الحالية) الشيخ سيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم التبجيكجي والشيخ سيديا الكبير وهو الذي عني بالطريقة القادرية، والشيخ محمد الحافظ بن مختار الذي أسس مكاناً للطريقة التجانية في موريتانيا.

على أيدي هؤلاء القوم ومن لف لفهم وسار على نهجهم، أضيفت مداميك للعمل الثقافي الاسلامي الذي عرف قبلاً في تلك الربوع. وبذلك أصبح الاسلام في القرن التاسع عشر، حتى خارج مناطق الاصلاح الجهادي، عاملاً مؤثراً وقوة دافعة في المجالات الفكرية والسياسية والاقتصادية، فضلاً عن المجالات الدينية. وكانت واحدة

من نقاط الانطلاق لهذا كله هذه البقعة الجنوبية من الصحراء الغربية، والتي عرفت باسم شنقيط.

كانت زوايا القادرية والتجانية مراكز العمل الاساسية. وقد أصبح إتباع الواحدة او الاخرى من الطريقتين معناه أن المرء مسلم. وكان على كل معلم/ شيخ في الزاوية ان يدل على شيخه ثم يتبع ذلك بتوضيح السلسة التي توصل الشيخ القائم بالقطب الاصلي أو بشيخ ذي مقام خاص في الطريق.

وكان ثمة منافسة ومزاحمة بين الطريقتين، وخاصة بعد ان انضم أتباع الشاذلية الى التجانية. وكان للحاج عمر وأتباعه فضل في نشر الطريقة الاخيرة في سينغامبيا وما اليها. وقد كان المجال أوسع أمام التجانية، ولعل جدتها (فهي من بنات العقدين الاخيرين من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر) كان لها أثر في قبولها. على كل، فإننا نجد ان التجانية لا تزال مستمرة الوجود حتى في أيامنا هذه، في شمال نيجيريا وكانم وباغرمي، فضلاً عن وجودها في المناطق الغربية الساحلية. أما القادرية فقد استمرت صاحبة النفوذ في ودّاي.

وكان من المنتظر ان يكون للسنوسية شأن في افريقيا الواقعة جنوبي الصحراء، لولا ان الفرنسيين هدموا زواياها المحصنة في بوركو واندي وكانم خلال حروب الاحتلال للسودان الوسط (١٩٠٢ ـ ١٩١٣).

وقد مر بنا، ولكننا نكرر هذا هنا لضم الاشياء الى بعضها البعض، خبر محمد الفاضل (توفي ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٠ م) الذي انشأ ما يمكن ان يسمى طريقة جديدة وهي الفاضلية.

موريتانيا

كان للشيخ سيديا الكبير (١١٩٤ ـ ١٢٨٥ هـ/ ١٧٨٠ ـ ١٨٦٨ م) دور كبير في حياة موريتانيا. ولد الشيخ في قرية صغيرة تخص أولاد بيري، وهي من القبائل النافذة في المنطقة. لكن لما توفي الشيخ سيديا الكبير كانت قبيلته قد أصبحت واحدة من أكبر القبائل نفوذاً في المجالات الاقتصادية والسياسية والفكرية في جنوب موريتانيا. ويعود الفضل في ذلك كله الى شخصية سيدي الكبير. وقد شملت نشاطاته المنطقة الواسعة الممتدة من المغرب شمالاً حتى سينغامبيا جنوباً وحتى تمبكتو شرقاً.

كان أولاد بيري من الجماعات ـ الزوايا التي لم تقبل باللجوء الى القوة لحل المشكلات والقيام بالاصلاح في المجتمعات الاسلامية او لنشر الاسلام. بل على العكس من ذلك، اعتبرت نفسها بين رعاة الحياة الفكرية والدينية والتراث الثقافي في المنطقة المذكورة وحماتها. والزوايا التي انتشرت في منطقة شنقيط أخذت نفسها بالاهتمام بالرعي والزراعة والتجارة. وقد اهتم الشيخ نفسه بتنظيم القوافل الكبيرة التي كانت تنقل المتاجر الى مسافات بعيدة. وكانت هذه القوافل تحمل الملح والذرة

والتمر الى انحاء الصحراء الغربية المتباعدة. وكان الشيخ يولي جمع الصموغ وبيعها ونقلها للتجار الاوروبيين المقيمين على سواحل المحيط الاطلسي وفي حوض نهر السنغال. وكان تجاره يعودون بالقوافل وقد حمّلت بالاقمشة والورق. ومع ان الصمغ كان يتبادل به بالاسلحة والورق، فليس من المؤكد أن الشيخ سيديا نفسه كان له ضلع في هذه التجارة بالذات.

كان أتباع الشيخ الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية المتنوعة، يعنون بالحياة الدينية للفئات التي كانوا يعيشون بينها ويتاجرون معها. ومن هنا كانت قوته الاقتصادية مرتبطة تماماً بأثره الديني. فقد كان الرجل مرجعاً كبيراً في الفقه والشرع والتصوف لفئة كبيرة من الناس. وكان كثير الكتابة، اجابة لأسئلة هامة ترسل اليه، أو تطرح عليه. فضلاً عن ذلك فقد تعبد شعراً لما نظم قصيدة في مدح الرسول (ص). وقد أجمل أحد دارسي أثره في انه وضع المعرفة في متناول مواطنيه.

ويمكن القول اجمالاً ان العلوم الاسلامية والبحث فيها عرفت نهضة شاملة في تلك الجهات، ويعود الفضل الى الشيخ سيديا الكبير في ذلك.

ومن علماء المسلمين الذين عملوا في حقل الدعوة الاسلامية محمد الحافظ بن مختار (توفي ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م). كان السيد أحمد التجاني قد انتقل من الجزائر الى فاس تحاشياً للاصطدام بالسلطات العثمانية. وهناك لحق به محمد الحافظ ابن مختار بعد ان سمع ذكره وهو يؤدي فريضة الحج. واختاره التجاني مقدماً لطريقته في الصحراء الغربية حيث كانت قبيلته، اداو علي، تقيم. وقد كان نجاح مختار في نشر التجانية في بلاده محدوداً، لكنه نجح في نشرها في سينغامبيا نجاحاً منقطع النظير.

تشاد

تقع بورنو في الجبهة الجنوبية الغربية لبحيرة تشاد، وكانت عاصمة امرائها المدعو واحدهم ماي، مدينة برني. أما الاسرة الحاكمة فيها فهي أسرة سيفاوه التي تعود في تاريخها الى القرن السادس عشر على الاقل. وقد بدأ عثمان دان فوديو يتدخل في شؤون بورنو عن طريق التآمر مع الحكام التابعين لها. وكانت النتيجة أن خسرت بورنو مناطق لا يستهان بها.

كان ماي بورنو في مطلع القرن التاسع عشر ماي احمد بن علي (١٢٠٦ ـ ١٢٢٣/ ١٧٩١ ـ ١٨٠٨) الذي استعان بالشيخ الكانمي العالم الاسلامي الكبير، الذي وزر له بعض الوقت وأعانه، لأنه استطاع ان يدعو عرب الشوا لنصرته. لكن بعد مدة تعرضت الدولة لهجوم كانت نتيجته ان هرب الماي دونما لفيامي الى الشرق. وكان قد حكم من سنة ١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ (١٨٠٨ ـ ١٨١١). فاستنجد بالكانمي ثانية وعاد الى الحكم سنة ١٢٣٠/ ١٨١٤ وظل في الحكم الى سنة ١٢٣٣/ ١٨١٧. لكن عودة الكانمي هذه المرة كان معناها سيطرته التامة على شؤون الدولة حتى سنة وفاته ١٢٥٣/ ١٨٣٧. وفي سنة

١٢٣٠/ ١٨١٤ بنى لنفسه عاصمة خاصة في كوكوا وأحاط نفسه بأتباعه وعشيرته. لم يحاول اسقاط الاسرة الحاكمة (سيفاوه)، وترك للماي بلاطه ومظاهر التشريف اللائقة به.

لما توفي الشيخ الكانمي خلفه في منصبه ابنه الشيخ عمر الذي ظل في عمله حتى سنة ١٢٩٨/ ١٨٨٠ (ويبدو ان أباه أشركه في الحكم معه سنتين قبل وفاته). وفي مدة سلطانه سقطت الاسرة الحاكمة سنة ١٢٦٣/ ١٨٤٦. ذلك بأن الماي ابرهيم، الذي تولى الامر بعد دونما لفيامي سنة ١٢٣٠/ ١٨١٤، بدأ يتآمر على عمر، فراسل صاحب ودّاي كي يعينه. فاكتشف عمر أمر المؤامرة بعد أن هاجمت قوى ودّاي بورنو وهدمت كوكوا. وبعد مقتل ابرهيم عين ابنه علي مايا، لكن عمر لم يسمح ببقاء الاسرة فطارد أفرادها، وأصبح الحاكم صاحب السلطة التامة. لكنه لم يتخذ لقب ماي بل ظل يلقب بالشيخ. وقد خلفه في الحكم ثلاثة من أسرته أبو بكر وابرهيم وهاشم. وقد هاجم رابح بورنو، وهو زعيم بدوي جاء من الشرق فهدم وقتل وأتلف ونهب مع جماعته. كان ذلك سنة ١٣١١/ ١٨٩٣، وكان هذا ايذاناً بانتهاء كيان هذه الدولة.

من الطريف ان الشيخ عمر استقبل في عاصمته كوكوا (التي كان قد أعاد بناءها بعد هجوم ودّاي على بورنو) أربعة مكتشفين ورجال اوروبيين وهم بارد (١٨٥١ ـ ٥٢) وفوغل (١٨٥٦) ورلفس (١٨٦٤) وناختيغال (١٨٧٠). وقد زودنا هؤلاء بمعلومات مفيدة عن بورنو (وعن غيرها من المناطق التي زاروها). فمن قراءة ما كتبوا نعرف ان بورنو مثلاً لما تبدلت فيها الاسرة من سيغاوه الى الشيوخ الكانميين، لم يكن هناك تبدل في النظام العام، ولم تنشأ في البلاد حكومة اسلامية جديدة. وكل ما طرأ من تبدل كان تتمة لأمور بدأت من قبل وسارت بأسلوب عادي. وقد أدرك «المايات» أهمية الجيش الدائم، فتخلصوا بذلك من الاعتماد على الأعيان الذين يرقون مناصبهم وقد لا يعنون بالدولة. ولم يخرج عمر عن ذلك، فكان له جيش فيه ألف من المشاة وألف من الفرسان، كانوا مسلحين بالأسلحة النارية. وكان هناك ثلاثة آلاف رجل كانت أسلحتهم مؤلفة من الحراب والقسي.

أما الشيخ فكان صاحب السلطة المطلقة، وكل من يعين في منصب حكومي كان يعرف أن بقاءه في منصبه يتعلق برضى الشيخ. وكان ثمة مجلس مكوّن من الامراء، وهو الذي اعتبره ناختيفال أثرًا من آثار دستور ارستقراطي قديم.

كان أثناء حكم «الشيوخ» اهتمام خاص في اظهار الطبيعة الاسلامية للدولة والحكم. ومن هنا كانت هناك وظائف أهمها القاضي. وكان الشيخ الكانمي قد أصلح الضرائب حيث تكون لها الصيغة الشرعية. لكن يبدو أن هذا الامر لم يدم طويلاً.

أغفل الشيخ عمر الشؤون السياسية عامة، وصرف جل همه في متابعة العلوم الاسلامية، وكان ماهراً فيها. وعمرت العاصمة كوكوا بالطلاب، اذ كان فيها بضعة

آلاف منهم. وكان العلماء وطالبو العلم يقصدون العاصمة للدرس وللتدريس. ولم يعطل معالمها إلا رابح (١٣١١/ ١٨٩٣) في هجمته الشرسة.

ومن الدول التي تعنينا باغرمي، التي تقع الى الجهة الجنوبية الشرقية من بحيرة تشاد. كانت باغرمي تدخل في نطاق سلطة بورنو. لكن حاكمها عبد الرحمن غورانغ (١١٩٩ ـ ١٢٢١/ ١٧٨٤ ـ ١٨٠٦)، لما وجد ماي بورنو مشغولاً في معالجة مهاجميه ومزاحميه، أعلن خروجه عن طاعته. وعندها تقدمت ودّاي، مدافعة عن بورنو، فهاجمت، في شخص حاكمها (ولقبه كولك) عبد الكريم صابون، باغرمي فتهدمت العاصمة وحمّل من ابنائها عشرون ألفاً الى أسواق الرقيق. ووقعت باغرمي بين ودّاي وبورنو في فترة نزاعهما وقتالهما، فنقص عدد سكانها. وزاد الطين بلة ان جماعات من الفزان كانت تغير على باغرمي متصيدة رقيقاً من ابنائها. وجاءت حملة رابح لتزيد مصائب البلد. وأخيراً تقدم حاكمها من فرنسا طالباً حمايتها (١٢٩٧/ ١٨٧٩). ومع ان رابح هاجمها ثانية فإن القضاء عليه سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠ أعاد الأمن والسلام الى باغرمي.

وقد اهتمت خلافة سوكوتو بباغرمي بسبب موقعها الجغرافي الذي جعل منها المنفذ الشرقي للخلافة المذكورة.

كانت باغرمي معروفة بعلمائها واهتماماتها في العلوم الاسلامية. لكن الصعاب التي جابهتها وخاصة اعتبارها مكانا «لصيد الرقيق»، الأمر الذي أنقص سكانها وقض مضاجعهم، لم يعن العلماء على الاقامة فيها او العمل الجدي. فضلاً عن ذلك فإن السلطة في باغرمي، اذ كانت تخشى العدد الكبير من الحجاج الذي يعبر أراضيها متجهاً شرقاً، عمدت الى منع الحاج من المرور بالبلد قطعاً.

وهكذا، فمن حيث الدور الذي أدته باغرمي في القرن التاسع عشر نحو انتشار الاسلام او اصلاح حال المسلمين كان ضئيلاً بالنسبة لما كان ينتظر منها.

وكانت ودّاي، التي تقع على مسافة بعيدة الى الشمال الشرقي لبحيرة تشاد، تختلط فيها تقاليد محلية مع النظرة الاسلامية. وهو وضع كانت تشارك فيه اقطار أخرى مثل باغرمي. ويمثل كلارك على ذلك بقوله إن القوم كانوا يؤمنون بأن السلطان يقوم بواجبه على أساس انه أمر إلهي، فيما كان السلطان نفسه يجب ان يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بالواجب الاسلامي والنظرة الاسلامية للحكم.

كان نظام التعليم الاسلامي في ودّاي أكثر تقدماً منه في بورنو. وقال ناختغال ان التعليم أمر الزامي على أهل ودّاي بشكل لا يقل عن الالزام في بلده، المانيا. وأضاف ان كل قرية في ودّاي فيها مدرسة، وهي مدرسة قرآنية (كتاب) بطبيعة الحال. وقد ذكر هذا الرحالة ان البلاد كان فيها نحو ثلاثين مؤسسة منتشرة في انحاء البلاد وهي التي تعلم فيها العلوم الاسلامية!

لم تكتف ودّاي بتدريب الدعاة، بل كانت تبعث بهم الى الخارج، مع العلماء الذين تدربوا في معاهدها. وقد بلغت شهرة علماء ودّاي، مثل الشيخ يومس، درجة عالية. وقد شهد بذلك بارت الذي قال عن علماء ودّاي ان شهرتهم في المنطقة لا تعلوها شهرة. وكان كثيرون من أهل العلم من أتباع الواحدة او الاخرى من الطرق الثلاث المعروفة هناك: القادرية او التجانية او السنوسية. وبسبب ان اعتناق الاسلام كان يتم عن سبيل هذه الطرق، فقد كان هذا الاقبال جماعياً لا شخصياً. اذ إن الجماعة التي تنتقل الى الاسلام كوحدة تحصل على نتائج، من زوايا الطريقة، هي اقتصادية في طبيعتها: تجارية وزراعية، فضلاً عن الفوائد الاجتماعية التي تلازمها. ولعل السنوسية تعطينا مثلاً جيداً، اذ ان الطريقة، لما اتخذت الكفرة مركزاً لها، توسعت جنوباً نحو دارفور وودّاي، كما كان دعاتها يتجهون نحو كانم وأيَر. وترتب على هذا ان الطريقة السنوسية امنت الطريق التجاري الطويل من الجنوب عبر واحة الكفرة الى برقة وطرابلس، فأصبح من الناحية التجارية أهم طريق عبر الصحراء في أواخر القرن التاسع عشر. هذا، الى ان الزوايا السنوسية أنعشت الحياة الثقافية في أماكن كثيرة واتخذت من الطريق التجاري سبيلاً لنشر الثقافة والعلوم الاسلامية. ومع ان السنوسية عملت على نشر الاسلام في تلك المناطق، فانها كانت تتخذ دور اعتزال بالنسبة للشعب. لذلك كان أثرها أقل من اثر الطريقتين الاخريين.

يذكر القراء اسم رابح الذي ورد في هذه المقالة. ونحسب انه آن الآوان لأن نلقي بعض الضوء على شخصيته التي كانت عنوان التخريب والتدمير خلال عشرين سنة، فأدى ذلك الى تدمير منطقة بحيرة تشاد. كان رابح بن فضل الله جلابًا (أي تاجر رقيق) وكان نفسه رقيقاً. لكنه بحكم نشاطه وذكائه أصبح واحداً من أصحاب الزبير باشا، تاجر الرقيق الكبير في السودان النيلي. ولكن بعد انكسار سليمان بن الزبير ومقتله سنة ١٢٩٦/ ١٨٧٨، تولى قيادة ما تبقى من فلول الجيش الزبيري، وقام بعمليات غزو وصيد للرقيق في مناطق مجاورة، دامت نحو سبع سنوات. ثم اتخذ لنفسه دور المؤيد للمهدي السوداني محمد احمد وخليفته عبدالله التعايشي، وألبس جنوده الجبة المرقعة دلالة على ولائه للدعوة وزعمائها. وفي هذه الاثناء ضم ولايات من ولايات المنطقة تحت سلطانه. وكان له جيش منظم. واستمر في ذلك حتى أصبح سيد منطقة تشاد. فبنى لنفسه عاصمة اسمها دكوة الى الجنوب من بحيرة تشاد. واستمر في حملاته المدمرة على المناطق المختلفة حيث كان يأسر الناس رقيقًا، ويهدم المدن، وينهب ما يمكن نهبه. وكان جيشه يتكون من نحو عشرين ألفاً، كان بينهم من أربعة الى خمسة آلاف مزودين بالأسلحة النارية.

من الطبيعي ان لا يكون رابح عاملاً على نشر الاسلام. فلا هو كان مهتماً بالاسلام، ولو انه ركب جواد المهدية لأنه كان ورقة رابحة، ولا الاحوال التي خلفتها

السنوات العشرون من حملاته وهجماته كانت تتيح للناس فرصة العمل في سبيل نشر الاسلام. لكن الفترات الهادئة التي كانت تمر بالبلاد عندما كان المحارب يستريح ويريح، كان الناس يتصلون بالعلماء ويتعلمون منهم. وعندها يعتنق البعض الاسلام، وقد ينشره بين الجيران والاقارب والخلان.

الفولتا

كانت تقيم في حوض نهر الفولتا مجموعات من السكان الافارقة الذين وصلهم الاسلام في أوقات مبكرة ومختلفة. من هذه الجماعات قبائل الموسي. مع ان المسلمين والاسلام أصبحا موضع احترام من قبل غير المسلمين، وهم أهل السلطة، فقد كان هناك تحفظ أساسه الخوف من ان يكون الاسلام عامل هدم للنظام السياسي المعمول به. ذلك ان الحاكم المسلم لن يشترك في تقديم القرابين للموتى. ومثل هذا يؤدي الى اختلال في العلاقة بين حكام الموسي والاسلاف من جهة، وبين الحكام والمواطنين من جهة ثانية.

لكن الذي حدث هو أن من حكام الموسي الاربعة الذين حكموا في القرن التاسع عشر كان منهم دولوغو وسوداوغو وكوتو مسلمين، ولذلك كانوا يشجعون الناس على اعتناق الاسلام ويشجعون العلماء والدعاة على تفسيره. أما الرابع نانمه فلم يكن مسلماً ولم يسمح للمسلمين بإقامة شعائرهم علانية. لكنه احتفظ بالموظفين المسلمين. وعندما كان يسمح بإقامة الشعائر الاسلامية علانية فكان يحضرها غير المسلمين. وهذا الحاكم غير المسلم كان هو الذي يعطي إمام الجامع شارة المنصب ـ العمة والثوب الابيض. وكان الامام يقسم امام الله والرسول صلى الله عليه وسلم بأن يطيع الحاكم ويخلص له الولاء.

هذا الموقف ـ خاصة مع وجود حكام مسلمين ـ أدى الى انتشار بطيء للاسلام. لذلك كان عدد المسلمين [حول سنة ١٩٠٠] نحو ثلاثين ألفاً من أصل مجموعة بشرية قدرت بنحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة في احدى المنطقتين. أما المنطقة الثانية فقد كان فيها نحو سبعة آلاف مسلم من مجموعة سكان قدرت بنحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة.

ومع ذلك فقد كان لهذه الفئة المسلمة القليلة أثر يفوق عددها بكثير. ذلك بأن الحكام، على مختلف المستويات، كانوا يستعملون مستشارين مسلمين. فضلاً عن ذلك فقد كان للمسلمين، وهم من أهل البلاد وليسوا طارئين، دور كبير في التجارة في المنطقة بأسرها، وكانت التجارة مصدر ثروة وقوة وسلطان!

شهد القرن التاسع عشر، كما عرف القرنان اللذان سبقاه استقرار تجار من المسلمين في شمال اسانتي، وقد جاؤوا البلاد من النيجر الاعلى وبلاد الحوسا. وازداد عدد التجار القادمين من بلاد الحوسا. ذلك ان الغاء الرق حمل تجار اسانتي على الاتجاه نحو الشمال للحصول على ما يحتاجون من الاقمشة والجلود وأمور أخرى.

وكان تجار الحوسا يحصلون على هذه السلع من أسواق متعددة ويحملونها الى سوق سلفا حيث يبادلونها بجوز الكولا والذهب.

وهكذا فإن المجموعة الاسلامية في سلفا نمت وتطورت حول الاسواق. وكانت خدمة هؤلاء القوم للاسلام هي في النظام التعليمي الذي طوروه. فقد جذب علماء الى سلفا، مثل الحاج عمر السلغاوي الذي جاء من كانو حول السنة ١٢٨٧/ ١٨٧٠. وقد كان التعليم في متناول جميع السكان، فأفادوا منه. وقال ويلكس في بحث له حول الموضوع إن هذه المدينة الاسلامية (سلفا) يكاد كل رجل فيها يقرأ العربية ويكتبها.

ولما تأخرت سلفا من حيث انها سوق كبيرة، انتقل كثير من مسلميها الى جهات أخرى في اسانتي، وحملوا معهم الاسلام الى جماعات جديدة.

وهذا النظام التعليمي الاسلامي الذي روينا بعض أخباره عامةً، كان أيضاً ذا مكانة في المناطق الواقعة الى الغرب من روافد الفولتا العليا. ومع ان مثل هذاالنظام انما كان يقصد منه أن يخدم المسلمين أنفسهم في شرح الدين الاسلامي وتفسير قواعده وأحكامه كي تظل هذه حية في نفوسهم ومجتمعهم، فإنه كان من الطبيعي ان تؤدي هذه المعرفة، بانتقالها الى الجيران، الى كسب بعض الافراد ثم الجماعات للاسلام. ولو ان هؤلاء كانوا من العرق (العنصر) نفسه الذي كان مسلماً من قبل. ومن الاسباب التي حالت دون انتشار الاسلام بين الفئات الاخرى، ان هذه كانت ريفية، والاسلام في تلك الاصقاع نما حول المدينة، اذ كان المسلمون هم أهل التجارة الداخلية والخارجية.

المهم أن هذه الجماعات التي تحدثنا عنها الى الآن في هذا الفصل، هي الجماعات التي تركت الاسلام ينتشر بالدعوة الحسنة. صحيح ان الانتشار كان، في بعض الاحيان، بطيئاً، الا انه كان أقوى وأمتن وأنصع.

ومثل هذا الذي تحدثنا عنه كان موقف الاسلام والمسلمين من قضية انتشار الاسلام في المناطق المدارية والساحلية الجنوبية. وهذا ما ننوي التحدث عنه الآن.

نيجيريا وجوارها

المناطق التي انتقلنا اليها الآن تشغل بالنسبة لخارطة افريقيا السياسية الحديثة، اجزاء من الكاميرون ونيجيريا وداهومي وغانا وساحل العاج وليبيريا وسيراليون.

١ ـ بالنسبة لمنطقة يوروبا، في الجزء الجنوبي الغربي من نيجيريا، فقد ظل الاسلام دين أقلية في النصف الاول من القرن التاسع عشر. ذلك بأن القوم كانوا يرون في انتشار الاسلام خطراً على النظام السياسي والاجتماعي الذي ألفوه، وخطراً على الثقافة والمعرفة التي قام عليها مجتمعهم. فضلاً عن ذلك، فإن الدويلة المجاورة لهم في الشمال كانت قد أصبحت جزءاً من خلافة سوكوتو. ومعنى هذا في نظرهم ان الاسلام وانتشاره قد يؤديان ببلادهم الى ان تُبتلع وتصبح جزءاً من امبراطورية (خلافة) سوكوتو.

لكن أموراً مختلفة أدت الى تبديل الاوضاع، وكانت النتيجة تسارع في انتشار الاسلام خلال العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر. منها ان نظام التعليم الذي كانت تنعم به المناطق المسلمة كان مدعاة للاحترام عند الجماعة، ومنها أن الكثيرين من دعاة الاسلام في تلك الجهات فضلوا التساهل بعض الشيء في الامور العادية، ومنها ان المنطقة جاءها أفراد علماء ممتازون استقروا في ايلودين، التي اصبحت محجة المسلمين الراغبين في العلم والتعلم والتعليم. وقد حدث سنة ١٩٠٢ ان أسلم الزعيم المسيحي كوكو، وتبعه أفراد عشيرته ثم آخرون. وقد بلغ عدد المسلمين في الربع الاول من القرن العشرين في ولاية اجيبو نحو خمسين ألفاً. لكن المهم هو انه في أواخر القرن التاسع عشر أدرك الحكام التقليديون في منطقة يوروبا ان الاسلام لا يكوّن خطراً على كيانهم او كيان دولهم. ومما زاد في انتشار الاسلام، لما زال التخوف منه من نفوس الحكام، هو ان أهل تلك المنطقة من نيجيريا (الحالية) هم بناة مدن كبيرة. والمدينة طريق مهم لانتشار الاسلام. وفي تلك المنطقة كان هناك ترابط وتواصل بين المدينة والقرية، ومن ثم فإن طريق انتشار الاسلام كان هنا مهيئاً اجتماعياً على الاساس الطوبوغرافي.

وابادان تعطينا مثلاً جيداً على مناسبة المدينة لتطور الاسلام عدداً ومقاماً. ففي ثلاثينات القرن التاسع عشر كان في المدينة جماعة مسلمة صغيرة ليس بين أفرادها رابط، لأن هؤلاء جاؤوا من الخارج. فلم تكن بينهم روابط اجتماعية او قبلية. هذه الفئة القليلة أصبحت في السبعينات جماعة كبيرة لها دور نافذ في حياة المدينة، اذ تولى الكثيرون منهم مناصب ادارية رفيعة، مثل محمد لاتوسيسا الذي شغل اكبر منصب في المدينة لمدة أربع سنوات في أواسط الثمانينات. وقد أصبح المسلمون في ابادان حوالى سنة ١٣٠٨/ ١٩٠٠ نحو عشرة في المئة من مجموع السكان.

وثمة حالة خاصة بلاغوس. فبعد إلغاء الرقيق في انكلترا (١٨٠٧) وفرنسا (١٨١٧) عاد الكثيرون من سكان المنطقة الى بلادهم، وكان بينهم مسلمون سبق أن اصطيدوا رقيقاً وأرسلوا الى الخارج. وإذ كان بينهم من تعلم الانكليزية في الخارج وآخرون تعلموا البرتغالية، ومن ثم فقد أصبحت الجالية المسلمة تتمتع بمركز مرموق بسبب هذه المعرفة.

وانتشار الاسلام في مملكة داهومي القديمة التي هي جزء من جمهورية بنين الآن، جاء عن طرق متنوعة. فقبيلة دندي تلقت الاسلام من الشمال. وقد قدر ان عشرة آلاف نسمة، من جماعة دندي البالغ عددهم ستة عشر ألفاً كانوا قد اعتنقوا الاسلام في مطلع القرن العشرين. وقبيلة دندي هذه، توزع الكثيرون منها في المدن التجارية الواقعة على طريق تجار الحوسا في انتقالهم الى الجنوب الغربي مثل مدينة تكي، فانتشر الاسلام بواسطتهم في المناطق التي استقروا فيها. وكان لتجار الحوسا

أثر في ان يقبل فريق من قبيلة بريبا على اعتناق الاسلام. ولما أقبل الزعماء على ذلك ارتفع عدد المسلمين حيث أصبح أربعة آلاف نسمة من السكان البالغ عددهم ١٢٥,٠٠٠ نسمة (في مطلع القرن العشرين). وقد استقرت جماعة من تجار المسلمين في جنوب داهومي وتاجرت، كما تاجر الآخرون، بأنواع السلع المختلفة، البشري منها وغيره.

عاد في أواسط القرن التاسع عشر عدد من المسلمين الذين كانوا قد بيعوا رقيقاً وأرسلوا الى البرازيل. استقر هؤلاء العائدون في ميناء ويدا ونجحوا في بناء مجتمع اسلامي هناك. وبعض هؤلاء كان قد اعتنق المسيحية في البرازيل، فلما عاد الى داهومي رجع الكثيرون الى الاسلام، لكنهم حافظوا على اسمائهم الجديدة. وقد ظلت فئات منهم على المسيحية. لكنهم ظلوا اصدقاء اوفياء لبعضهم البعض بسبب هذه الصحبة التي نشأت بينهم أيام الاسترقاق. وقد استقرت فئات مسلمة في الموانىء الاخرى في القرن التاسع عشر. وهذه جاءت من أماكن مختلفة من السنغال ومن نيجيريا. كما وجدت فئات مسلمة في أكثر المدن الكبرى في داهومي في أواخر القرن التاسع عشر. وكان ثمة مساجد كبيرة جامعة في عدد من المدن، فضلاً عن مساجد الاحياء، ومدارس قرآنية.

وكانت الجماعات الاسلامية، في أواخر القرن التاسع عشر، قد تعرضت لتوترات محلية. فالذين عادوا من الاسترقاق كانوا يعتبرون أنفسهم متعلمين وأرقى من الباقين، الامر الذي كان مزعجاً الى درجة ما. أما عنصر التوتر الآخر فقد جاء من اولئك الذين ذهبوا لأداء فريضة الحج، فلما عادوا أرادوا ان يصلحوا اخطاء الجماعة الموجودة في داهومي.

على كل، فقد جاء الاستعمار الاوروبي، وكان للإسلام شأن آخر، في داهومي وغيرها.

تقع توغو بين غانا الحالية غرباً وجمهورية بنين داهومي شرقاً، ولها ساحل على الاطلسي، وتمتد شمالاً حتى نهر الفولتا. وقد وصل الاسلام الى البلاد على دفعتين: الاولى، من الشمال وكانت في القرن الثامن عشر، وقد استقر المسلمون في ولاية تشوكوي التي أنشئت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فكان المسلمون بين سكانها الاوائل. واختاروا عاصمة الولاية لأنها تقع على طريق التجارة بين بلاد الحوسا ومدن نهر الفولتا. وكان أكثر القادمين من الحوسا وكونغ.

أما الدفعة الثانية فجاءت في القرن التاسع عشر وانتشرت فئات في أواسط البلاد وجنوبها، وهي التي قدمت من بلاد الحوسا ومن مدينة سلفا. وظل المسلمون في توغو يعيشون في أحياء خاصة بهم، على نحو ما كانت الحال في عدد من البلاد الافريقية حيث كان المسلمون أقلية في بلد غير اسلامي.

كانت كوماسي، على ما مر بنا، عاصمة اسانتي بأكملها. لكن لما احتلت بريطانيا الاجزاء الجنوبية وأنشأت مستعمرة ساحل الذهب التابعة للتاج البريطاني (١٢٩١/ ١٨٧٤)، أصبحت كوماسي عاصمة الاقسام الشمالية من اسانتي. والذي نعرفه هو ان ألف مسلم كانوا يقيمون في كوماسي في السنوات المبكرة من القرن التاسع عشر، وكانوا بقيادة شخص عرف باسم بابا، والجميع، الزعيم والباقون أصلهم من الشمال. وكان هؤلاء المسلمون يعيشون في حي خاص بهم، وكانوا يطبقون الشريعة (الاسلامية) بشكل خاص، إن في البيت أو المسجد أو المدرسة.

كانت العلاقات بين المسلمين وحكام المنطقة جيدة، لكنها كانت دقيقة وتحتاج الى لباقة للإبقاء عليها. فقد تمتع كثير من المسلمين بمراكز مرموقة في البلاد وولوا مناصب ادارية رفيعة، وكان لهم لذلك صوت حتى في مجلس الشيوخ.

كان المسلمون ذوي نفوذ في كوماسي. فمنهم كبار التجار، وكانوا يكتبون العربية ويقرأونها، وكانوا على صلة مع الولايات الشمالية. وكان الكثير من السكان، من غير المسلمين، يحبون «الحجب» التي كان يكتبها بعض رجال الدين المسلمين.

منع ملك كوماسي (وما اليها) المسلمين الشماليين من دخول العاصمة، وقد استمر هذا نحو ثلاثين سنة حتى احتل البريطانيون كوماسي (سنة ١٢٩١/ ١٨٧٤). وكان معنى هذا، بالنسبة للمسلمين المقيمين هناك، انه لم يصلهم دم جديد طوال هذه العقود الثلاثة، وبذلك حدّت من امكان نشر الاسلام في المنطقة. لكن الامر تبدل بعد تلك السنة (سنة الاحتلال) على ما سنرى في الفصل التالي.

كان لانتشار الاسلام في المناطق المتبقية من مناطق الغابات ما يشبه ما مر بنا. فالمراكز التجارية، سواء في تلك الموانىء او مدن الداخل، كانت الجاذب الاكبر لدخول المسلمين تلك الجهات. وكان المسلمون الذين يرحلون الى تلك المناطق يخرجون غالباً من فوتاتورو وفوتاجلون (في سينغامبيا) الى جنوب ساحل العاج، ومن الاماكن المذكورة الى سيراليون وليبيريا، وقد جاء حوسيون الى ساحل العاج، كما انتقل مسلمون من يوروبا الى سيراليون وليبيريا. وقد كان للجنود المسلمين الذين رافقوا الحملة الفرنسية، وهم من شمال افريقيا - من الجزائر - أثر في نشر الاسلام في مناطق متنوعة.

وإذ كانت ثمة طرق متعددة تصل، مثلاً، فريتون (سيراليون) بفوتا جلون ومدن النيجر الاعلى والأوسط، فالحركة كانت دائمة، والتنقل مستمر: تنقل التاجر والمهاجر. ومع هذين كان الاسلام ينتقل ويستقر، ثم يعود وينتشر من مواطنه الجديدة.

على ان الانتشار لم يكن يسير دوماً على وتيرة واحدة وقياس واحد. لذلك فإننا نجد كثافات مختلفة في غرب افريقيا.

٦ ـ احتدام الصراع الفرنسي ـ البريطاني

بدأ اتصال اوروبا بغرب افريقيا في القرن الخامس عشر، وكان الساحل الافريقي مداه ومنتهاه. وعبرت السفن المحيط بعد سنة ١٥٠٠، واتسع حجمها وازداد نشاطها. لكن الساحل بموانئه ظل المدى الذي تحركت فيه وحوله. ذلك ان العوائق الطبيعية ظلت قائمة خلال فترة طويلة. وهذه يمكن اجمالها بما يقوم في الساحل الافريقي من تجمعات مائية في برك ومستنقعات (وهي المسماة بالانكليزية لاغون)، وبالغابات التي كانت تغطي السواحل الى مسافات بعيدة لا يعرف ما تخفيه من أخطار.

الى ذلك، فهناك الاوبئة التي كانت أقوى مما يستطيع الاوروبي تحملها، وأخصها بالذكر الاسقربوط الذي كان يصيب الناس بسبب نقص الفيتامين في غذائهم. واكتشف البرتغاليون فيما بعد أنهم كانوا يقاومون مرض الاسقربوط لأنهم يكثرون من استهلاك البرتقال وما اليه. وهو النوع الوحيد من الفاكهة الصالح لذلك. وكانت البرتغال البلد الوحيد الذي ينتج كميات كبيرة من هذه الفاكهة.

على أنه من المناسب ان يذكر ان الاسلام كان قد عرف في مناطق مختلفة من غرب افريقيا. بل انه كان قد تجذر في مناطق متعددة لأنه كان قد وصل اليها في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد.

ولنذكّر أنفسنا بأنه بين سنتي ١٥٠٠ و١٨٠٠ تقريباً كانت السلعة الرئيسة التي تحمل من غرب افريقيا هي الرقيق. لكن إلغاء الرقيق في بريطانيا سنة ١٨٠٧ وفي فرنسا ١٨١٧ أدى الى تبدل أساسي في التجارة. فقد اضطر التجار الى العودة الى ما يمكن تسميته التجارة المشروعة، وكان هذا يشمل زيوت النخيل والفستق فيما تلا ذلك. وفي العقود المتأخرة دخلت بذور (او نوى) النخيل، اذ صارت هذه تستعمل لاستخراج زيوت صناعية وغذاء للحيوانات. فكانت المانيا تصنع منها المرغرين وهولندا تستعمل المتبقى من ذلك علفاً للأبقار.

والذي توصل اليه الباحثون في تجارة افريقيا في ذلك الوقت، هو أن تجارة الرقيق (طبعاً قبل الالغاء) كانت تنتج نحو أربعة ملايين استرليني، أما بعد إلغاء الرقيق، والعودة الى التجارة في المواد المشروعة، فقد كان الناتج هو ثلاثة ملايين ونصف المليون جنيه استرليني.

وترتب على تحرير العبيد، وبعض هؤلاء حرروا في اميركا الجنوبية وعادوا الى بلدهم، هو إنشاء مراكز في سيراليون وليبيريا.

ومع أننا سنتحدث بعض الشيء عن الناحية الاقتصادية كعامل من عوامل الانتشار الاوروبي في افريقيا، فإننا نرى ان نستبق الحوادث ونتحدث عن التوغل الاوروبي في غرب افريقيا.

التوغل المقصود كان في أصله وطبيعته وتنفيذه فرنسياً/ بريطانياً. وقد اتخذ شكلين متباينين. فالتوغل الفرنسي، ومن ثم الاستيلاء والاحتلال، خطط له ونفذه عسكريون. فأخذوا من سنت لويس في السنغال نقطة انطلاق نحو النيجر والسودان (الاوسط). كما احتل الفرنسيون مناطق من ساحل غينيا. أما التوغل البريطاني في غرب افريقيا فقد تحكم فيه الاقتصاد والتجارة.

وإذا نحن عدنا الى التوغل على أيدي الفريقين، لتوضيح مسار كل منهما، وجدنا ان فرنسا بدأت التقدم الحربي سنة ١٨٧٩ من السنغال عبر السودان الغربي فوصلت الى باماكو (التي تبعد نحو ألف كيلومتر الى الداخل) سنة ١٨٨٣. واحتلت القوات الفرنسية تمبكتو سنة ١٨٩٣. كما ضمت المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد سنة ١٩٠٠. وفي الوقت نفسه اتجه جناح من الجيش الفرنسي جنوباً موغلاً في منطقة فوتا جلون وساحل العاج وداهومي. والتقى هذا الجناح فريقاً فرنسياً متقدماً من ساحل غينيا.

نشير هنا الى ان الدول الافريقية المستقلة التي كانت من قبل جزءاً من الامبراطورية الفرنسية ـ الافريقية كانت: موريتانيا والسنغال ومالي والنيجر وفولتا العليا وغينيا (كوناكري) وساحل العاج وبنين (داهومي سابقاً).

وبريطانيا، التي لجأت الى المدفع لتثبيت وجودها في افريقيا الغربية، كانت صاحبة القول الفصل في جمهورية نيجيريا وسيراليون وغانا وغامبيا. ويذكر ان الممتلكات الفرنسية في غرب افريقيا وجوارها كانت واسعة، اذ إنها اتصلت بالجزائر الى الشمال وأصبحت افريقيا الاستوائية هي قلب محاولة خلق للامبراطورية الفرنسية في تلك المنطقة الواسعة.

ومع ذلك فقد قدّرت تجارة فرنسا وبريطانيا مع غرب افريقيا بأربعة أخماس تجارة القارة الافريقية مع الخارج. ومن هذه الكميات الضخمة من التجارة الخارجية فإن بين ثلثي هذه التجارة وثلاثة أرباعها كان حصة بريطانيا التي كانت تتحكم في ما بين ٥٣ في المئة و٦٠ في المئة من التجارة مع غرب افريقيا. وليس من شأن أمر مثل هذا ان يؤدي الى استقرار في العلاقات بين دولتين تتنافسان على أسواق واحدة للتصدير والاستيراد.

ومهما قيل في الاحتلال الاوروبي لغرب افريقيا، فالأمر الذي لا يجب ان يغيب عن البال هو أنه أدى الى وقف الحروب الداخلية (التي كانت تستنزف الكثيرمن

الجهود المحلية) وإشاعة الأمن وتحسين طرق المواصلات. وهذه أمور كانت ذات تأثير في التطور الداخلي لأفريقيا الغربية.

وقامت المانيا في وسط الثمانينات بتقدم لا يمكن ان يوصف بالكبير، الا انه وطد اقدامها في توغو (الواقعة بين ساحل العاج وداهومي) وفي الكامرون (على الجانب الشرقي لدلتا النيجر).

توقف تجارة الصحراء

كان لا يزال ثمة بقية من تجارة الصحراء حتى العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر. ولم تتوقف التجارة توقفاً شبه نهائي إلا في القرن العشرين. فقد ذكر اوروبي مقيم في طرابلس خبر قافلة، لعلها كانت الاخيرة، غادرت المدينة الى أواسط افريقيا سنة ١٩٠٧.

أشرنا الى الاحتلالات الاوروبية لمناطق في غرب افريقيا، وهنا يجدر بنا أن نتوقف لنتساءل لماذا دخل الاوروبيون هذه المنافسة العسكرية التي انتهت بتقسيم افريقيا؟.

لعل مفتاح هذا كله موجود في عبارة أساسية هي: التنافس بين فرنسا وبريطانيا على الاسواق الافريقية من حيث انها أسواق لبيع ما كانت تنتجه المصانع الاوروبية، وخصوصاً البريطانية. وقد كان الاتفاق قد تم على «حرية التجارة»، أي تجنيب الاتجار العوائق الرسمية من حيث الجمارك التي تفرض، وطريقة جبايتها. لكن فرنسا وجدت نفسها تتعرض لخسارة. فمع ان أسواقها (قبل الاحتلال) كانت واسعة، الا ان السكان كانوا فيها قلة: أقل بكثير من سكان المناطق الأقل مساحة، والمرتبطة ببريطانيا. ومن هنا فقد لجأت فرنسا (قبل بدء الاحتلال) الى أسلوبين في كل منهما شيء من «العدوانية» بالنسبة للاتفاق القائم. أما الاول، فهو إنشاء شركتين فرنسيتين: الاولى الشركة الفرنسية لأفريقيا الاستوائية (١٨٨٠) وشركة السنغال (١٨٨١). وكان الغرض من ذلك الدخول، عن طريق الشركة على أنها السبيل الانسب، الى الأسواق البريطانية. وبدأت الشركتان بالاتجار مع دلتا النيجر، وسرعان ما نمت لهما فروع امتدت حتى نهر بينو. الا انه لم يلبث ان تبين للفرنسيين ان مزاحمة الانكليز في أدق ما يملكون من وسائل السوق، وهي التجارة، ليس بالأمر الممكن. ولذلك فقد انتهى الأمر بأن ابتاعت الشركة الافريقية الوطنية (وهي شركة بريطانية) الشركتين الفرنسيتين (١٨٨٤).

أما الاسلوب الثاني او الخطوة الثانية، في جدول التصرف الفرنسي، فكانت في التلاعب في الرسوم الجمركية. ذلك ان الاتفاق حول حرية التجارة كان يقضي بأن تفرض الرسوم الجمركية على أسس ثابتة متساوية. لكن الحكومة الفرنسية كانت بحاجة الى مال، فأخذت تتلاعب في الرسوم. فكانت على سبيل المثال ترفع الرسوم الجمركية على الاقمشة القطنية (البريطانية الصنع) وتخفض الرسوم على المنتجات

التي تتميز بها فرنسا. فالواقع انه ليس ثمة تفرقة مباشرة ولكن هناك تلاعب، لا يختلف عن التفرقة إلا في المظاهر.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا التنافس الى ما انتهى اليه الامر ـ احتلال كل من الدولتين المناطق التي ترى ان مصلحتها التجارية فيها تأتي في الدرجة الأولى. وكان ان امتشق الحسام، لكن الى جانب المدفع، فاحتل الاوروبي مناطق في غرب افريقيا لتأمين مصلحته، من دون ان يعنى بهذا الانسان الذي جاء يستعبده.

ولما احتل الفريقان مناطق افريقية مختلفة أصبح الكل يتحدث عن واجب الرجل الابيض في حمل الحضارة الى الشعوب المتأخرة.

حتى الاستيلاء على افريقيا الغربية لم يكن قد سمح به بحرية، بالنسبة للدول الاوروبية وعلى أيدي هذه الدول نفسها. ذلك ان مؤتمر برلين (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥) وهو غير المؤتمر الآخر الذي عقد سنة ١٨٨٧، استن بضع قواعد لاستيلاء دولة من الدول على منطقة افريقية تمهيداً للاستقرار فيها. ولم يخطر ببال أي من الدول التي ساهمت في هذا المؤتمر ان يتعرف الى رأي أي حاكم افريقي. فقد أقر المؤتمر انه قبل ان تعلن دولة (اوروبية) أنها تدير شؤون دولة افريقية (سابقة) يترتب على الدولة الاوروبية ان تكون قد قامت فعلاً بعملية الاحتلال والسيطرة التامة على المستعمرة (المستوطنة)، مع تفاصيل تبين مدى ذلك، وان لا تقف الدول المشاركة في الاحتلال الواحدة في طريق الاخرى، وأن يكون ثمة تعاون في سبيل الاستفادة من هذا الاحتلال أو تلك السيطرة. وقد بدا أن مؤتمر برلين هذا قد وضع أسس التعاون بين شركات مغامرة عدوانية، آخذاً مصلحة هذه الشركات بعين الاعتبار. وكان من الطبيعي أن يخطط لإدارة البلاد المحتلة.

نهجت فرنسا، او على الاصح أعلنت انها ستنتهج سياسة في الادارة أساسها «تمثل» الشعوب التي أصبحت تتولى شؤونها. فهي ترى ان البلاد الواقعة تحت نفوذها يجب ان ينظر اليها على أنها «وحدة»، وان فرنسا تعتبر هذه «الوحدة» الافريقية جزءاً منها. وقد أطلقت عليها «فرنسا وراء البحار». والمتعارف عليه لدارسي تاريخ الاستعمار الفرنسي في غرب افريقيا هو ان فرنسا كانت تنوي ان تمنح رعايا مستعمراتها الافريقية الحقوق ذاتها التي يتمتع بها الفرنسي، وأن تعاملهم معاملة الفرنسي في بلده. فضلاً عن ذلك، فقد اتفق دعاة هذه السياسة الفرنسية على ان تطابقاً تاماً سيسود العلاقات السياسية والادارية والاقتصادية بين فرنسا ومستعمراتها في غرب افريقيا.

أما لما جاء دور الممارسة فقد بدت الامور مختلفة عن ذلك اختلافاً تاماً. فقد كان عدد الافارقة الذين منحوا الجنسية الفرنسية ضئيلاً، وهذا العدد الصغير هو الذي أتيح له ان يتمتع بالحقوق الفرنسية. واتضح في العقد الاول من القرن العشرين

ان سياسة «التمثل» قد استغني عنها، وشرع باتباع خطة أخرى هي خطة «المشاركة». وتتلخص هذه الخطة في ان فرنسا تدير مستعمراتها الافريقية الغربية على أنها «وحدات» أساسها ما كان قائماً قبل الاحتلال من حكم سلطان او أمير أو إمام. وتدار هذه الوحدات بوساطة مؤسساتها الافريقية، سياسية كانت أم اجتماعية، لا على أساس المؤسسات الفرنسية التي كانت خطة «التمثل» تقضي بإدخالها الى غرب افريقيا. وإذ كان عدد الفرنسيين الذين يمكن ان يعتمد عليهم في ادارة هذه المنطقة الواسعة قليلاً، فقد لجأت فرنسا الى الزعماء الافارقة فعهدت اليهم ان يكونوا صلة الوصل بين مراكزها الرئيسة في افريقيا الغربية (وأهمها سنت لويس) وبين الشعوب المختلفة. على ان السلطات الفرنسية جردت هؤلاء الزعماء من أسباب نفوذهم او زعامتهم الحقيقية الاصلية من سلطات. فالذي قام في المستعمرات الفرنسية هو حكم «غير مباشر»، ومن ثم سمح للحاكم العام، الذي كان يتولى منطقة واسعة عادة، ان يتصرف ببعض الحرية بالنسبة للزعماء وطريقة «توصيلهم» أوامره ومقرراته الى شعوبهم.

قبل احتلال الدول الاوروبية لغرب افريقيا كان المألوف أن يتولى الملوك والزعماء ادارة شؤون شعوبهم والمناطق التي يسكنونها. ولما احتلت بريطانيا المناطق التي ذكرناها أفادت من هذا الوضع، فأدخلت نظام الحكم غير المباشر. وبذلك كان هؤلاء الملوك والزعماء هم الذين يتولون الشؤون المحلية ولكن تحت إشراف الحاكم المعيّن للمنطقة. وبسبب اختلاف التجارب التي مرت بها الشعوب المتنوعة التي أصبحت تابعة لبريطانيا، فإن أساليب هذا الحكم تنوعت تبعاً لذلك، اذ إنها كانت أوسع مجالاً أحياناً أو أضيق اطاراً في أحيان أخرى. فقد خلقت الادارة البريطانية الاستعمارية زعماء او ملوكاً محليين في أماكن لم تعرفهم من قبل، كما أنها قللت من شأن البعض من الاقوياء ليسهل تطبيعهم. وأقامت هذه الادارة مؤسسات شبه دستورية او شعبية حيث لم تكن، وحيث وجد الشخص المسؤول الجو صالحاً لذلك. ويعتبر لوغارد المندوب السامي لشمال نيجيريا (١٩٠٠ ـ ١٩٠٦) وحاكم نيجريا بكاملها (١٩١٢ ـ ١٩١٨) واحداً من الذين طوروا نظام الحكم غير المباشر في المنطقة. لكن، لأن خلفاءه لم يراعوا، لما تولوا الحكم في مناطق مختلفة، الفروق بين فئة وفئة وشعب وشعب ومنطقة ومنطقة، لذلك تشققت أوعية هذا النوع في بعض الاماكن مثل اجزاء نيجيريا الشرقية، فيما كان أسلوباً جدياً بالنسبة للأجزاء الشمالية الشرقية. لكن هؤلاء الزعماء المحليين لم تقلم اظفارهم، بل على العكس فإن البعض منهم قوي مركزه. والأمر الذي لا يجوز أن يغرب عن البال هو أن هؤلاء الملوك والزعماء كانوا من قبل، وفي أغلب الحالات، يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن الجماعات التي يحكمون، ومن ثم يشعرون بالمسؤولية نحوهم، وكأنهم يتطلعون الى نيل ثقتهم. أما بعد وصول

البريطانيين واستقرارهم في تلك المناطق، فقد أصبح هؤلاء الملوك والزعماء مسؤولين أمام الحاكم الاجنبي.

حكم مباشر

إذا كانت فرنسا قد أقامت لها اسلوباً ادارياً فيه فكرة المشاركة مع الافارقة، وإذا كانت بريطانيا بدأت العمل في افريقيا عبر أهل الزعامة المحليين مفيدة من وجودهم، فإن الدولتين سارتا في طرق صعبة معوجة مفجعة (بالنسبة للسكان) لتثبيت الأقدام في غرب افريقيا. فإن الاصل كان الافادة من ثروة البلاد وأسواقها. لذلك، فما قد يعيق الافادة يقتضي ان يزول.

ولو حاول عدد من الذين درسوا أوضاع اوروبا في افريقيا، من خلال التدبر في ما تم وما منع وما سمح به بالنسبة الى شعوب المنطقة، لوجدوا ان فرنسا وبريطانيا لم يكن لأي منهما سياسة خاصة او موقف معين من الاسلام. ويمكن الواحد منا ان يتناول الموضوع بوضوح ليعرف ان الحاكم المقيم في جزء من المستعمرة، فرنسياً كان او بريطانياً، كان له حرية كبيرة في تنفيذ السياسة. فالامر هنا كان يختلف، بالنسبة لفرنسا مثلاً، عن موقفها في الجزائر وتونس، ذلك ان القطرين كانا أقرب الى باريس، لذلك كان من الطبيعي ان يعود المسؤول المحلي الى العاصمة مستأذناً مستشيراً. أما بعد غرب افريقيا عن باريس فقد قلّص من عودة المسؤول المحلي الى العاصمة مستأذناً مستشيراً، وأصبح له قول أبعد في شؤون الادارة وتنفيذ سياسة بلاده.

أما بالنسبة لبريطانيا فقد كان مألوفاً في الادارة في المستعمرات ان يعطى الحاكم شيئاً من حرية التصرف ما دام الأساس قد اتفق عليه.

الى ذلك فالعقود الاخيرة من القرن التاسع عشر كانت متأثرة، في مجالات النخبة من سكان اوروبا، بشيء من فلسفة اوغست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) الوضعية، وآراء تشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) التطورية. وجماع آراء هذين المفكرين وكتابات الفلاسفة وعلماء الاجتماع الآخرين، كانت تتيح لأهل الثقافة أن ينظروا الى المجتمعات التي تختلف عن مجتمعاتهم نظرة متطورة بالنسبة الى سابقيهم. فعندما يحدث ان يختار للقيام بدور الحاكم في مستعمرة أحد النابهين من المتعلمين، فقد يكون موقفه فيه من المرونة ما يؤدي الى خير الفريقين. ويبدو، من مراجعة تراجم عدد من الذين عهد اليهم بإدارة المستعمرات الفرنسية والبريطانية في افريقيا (الغربية)، ان الحكام الذين جاءوا من خلفية عسكرية بين الفرنسيين أكبر عدداً من نظرائهم البريطانيين.

على ان الامر الذي كان يقرر الخطوة النهائية او الفاصلة هو مدى ما كانت تقبل به الجماعات الافريقية المختلفة من حيث تيسير افادة المستعمرين من ثرواتها. فإذا كان ثمة عصيان في النهاية، او حتى اعاقة لتنفيذ الغايات، فإن العقاب الشديد، وقد يكون شرساً، جاهزة وسائله وأساليبه.

أشرنا من قبل الى استعانة الادارة البريطانية الاستعمارية بالحكام الوطنيين. ولنضرب مثلاً على ذلك من شمال نيجيريا، وهي منطقة كان للإسلام فيها وجود كبير واضح. كان عدد الموظفين البريطانيين ضئيلاً، ولم تكن الاموال متوفرة. فقد كان كل نحو ٢٠٠ ألف شخص ينالهم موظف بريطاني واحد، (هذا كان حتى في أوائل القرن العشرين). فكيف تحل المشكلة الادارية؟ ان حكومة امارة كانو التي كانت تنظم شؤونها السياسية والادارية عصبة من الامراء، على نحو ما كانت عليه الحال في شمال نيجيريا. اذن فليستعمل هؤلاء الامراء المحليون اداة للادارة، وعلى شكل واسع. ولكن هذه المنطقة مسلمة في اكثريتها، وإذن فإنه من المترتب على الحاكم هو الابتعاد عما يثير حساسية خاصة عند الامراء والشعب معاً. ومن هنا كانت الادارة لا تسمح للمبشرين المسيحيين ان يعملوا في المناطق الاسلامية، فكان عملهم محصوراً في المناطق غير المسلمة، عموماً. وظلت هذه الخطط متبعة الى نهاية الحرب العالمية الثانية. لكن الامراء أخضعوا لنوع من تطوير الادارة. فبدلوا في نظام الضرائب. ولم يعد للأمير ان يفرض ما يريد فرضه، زيادة او نقصاناً من الضرائب على هواه. ومنع كذلك، من ارتجال طلب مبالغ من السكان. وكان للأمير سلطات قضائية واسعة، فجرد الامراء من بعضها مثل فرض الحكم بالاعدام.

أنشأ الفرنسيون في بعض المدن الرئيسة في مستعمراتهم مدارس، هي التي سموها «الكليات الفرانكو - آراب» وكانوا يستعملون لها اسم «مدرسة» (وهي مدرسة عربية مبرمجة على اللفظ المستعمَل في المغرب العربي). في هذه المدارس كانوا يعلّمون اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية الى جانب اللغة العربية والعلوم الاسلامية. وكان خريجو هذه المدارس (الكليات) يوظفون في الاعمال الحكومية لتيسير الامور. وهذا المشروع منقول أصلاً عن التجربة الفرنسية التي تمت في الجزائر.

أما في شمال نيجيريا فقد قررت الادارة ان لا تكون الانكليزية لغة التعليم في شمال نيجيريا (لعل البريطانيين استفادوا من تجربتهم في مصر حيث جعلوا اللغة الانكليزية لغة التعليم حتى في الصفوف المتقدمة من المدارس الابتدائية، فتجنبوا الوقوع في الخطأ نفسه). وقد وقع هذا القرار موقعاً حسناً لدى امراء شمال نيجيريا، اذ اعتبروا اللغة الانكليزية هي لغة المسيحيين. ولقد ترتب على ذلك انه كان في سنة ١٩٥٢ فقط ١٨,٠٠٠ شخص يعرفون الانكليزية في امارة باخي البالغ عدد سكانها مليون نسمة؛ أما في كانو، التي كان يبلغ سكانها ثلاثة ملايين ونصف المليون، فقد كان فيها ٢٣ ألفاً فقط ممن يعرفون الانكليزية. ومعنى هذا ان الادارة لم تجد الأعداد اللازمة لشغل المناصب البسيطة في دوائر الحكومة.

أما فيما يتعلق بأبناء البلاد، وبما تصوره الاداريون انه حاجة أهل البلاد، فقد كان ثمة دروس اضافية باللغة الانكليزية لمن شاء ذلك. أما بالنسبة للتعليم الذي كان ابناء

المنطقة يحصلون عليه وينعمون به، فقد كان يدور حول اتقان اللغتين العربية والحوسا، والعلوم الاسلامية، مع الاهتمام بالناحية الشرعية، لأنها مرتبطة مباشرة بحياة المسلمين.

ولاحظ أحد أساتذة التاريخ «ان السياسة الاستعمارية نحو الاسلام، فيما اذا كان من الممكن التحدث عن سياسة من هذا النوع، كانت تنتزع أسسها من آراء وضعية تعود الى اوغست كونت، ونظرات «تطورية» تشمل التطور الانساني والثقافي والاجتماعي والديني، وقد ملّت عليها نفوسها (فيما بعد) فوجدت بالنفعية مخرجاً».

بل ان الادارة البريطانية في غرب افريقيا تقدمت خطوة معدودة لمصلحتها، وهي أنها شجعت المسلمين على دعوة الناس الى اعتاق الاسلام.

وقبل ان ننتقل الى الموضوع التالي أود ان أدوّن هنا ملاحظة تتعلق بأجزاء ومناطق في غرب افريقيا كانت معرفتها بالاسلام، حتى بين سنتي ١٩٠٠ و١٩٦٠، اما ضئيلة او معدومة. ولنكتف بالاشارة الى النوع الثاني وهذا يدخل فيه: اجزاء من السنغال وجنوب ساحل العاج وفولتا العليا وهضبة موسى في نيجيريا، والمنطقة الوسطى في نيجيريا، والمناطق المحيطة بغرب نوريمبا.

٧ ـ مقاومة ... واستقلال

جثم الاستعمار الاوروبي على غرب افريقيا بكلكله. وكان للدول المختلفة، على ما رأينا، وسائلها المتنوعة لإدارة البلاد والتحايل على العباد. فالأوروبيون يتقدمون بقفاز من قطيفة (مخمل) عندما يكون الفريق الآخر مسالماً، فإذا بدا من هذا بعض ما يقلق البال في الجانب الآخر، انسحبت اليد المغلفة بقطيفة لتبدو محلها أداة حادة تهاجم وتحتل وتؤذي. وقد يبلغ بها الامر التدمير والتخريب.

فماذا كان رد الفعل بين الجماعات الاسلامية لهذه الانواع المتفاوتة من الضغط او الاكراه او حتى التعاون؟

مر بنا انه لم يكن ثمة سياسة استعمارية معينة موجهة ضد الاسلام والمسلمين. ومن ثم فإن ردود الفعل كانت أيضاً متباينة. ان المنتظر من المسلمين ان يكون موقفهم واحداً من اثنين: إما ان يجاهدوا بالسيف الى ان ينتهي الامر، او ان يهاجروا الى بلد لا يتحكم فيه غير المسلمين، أي الكفار. وقد رأينا، من قبل، كيف تم الامران في بلاد الحوسا. فقد هاجرت جماعة من المؤمنين الذين لم يكن لهم قِبل على القتال الى الشرق من ديارهم. أما الذين استطاعوا فقد جاهدوا وقاتلوا وانتصروا وانكسروا على ما يحدث في المعارك عندما يطول أمدها.

لكن جماعة من المسلمين في ابادات، في غرب نيجيريا اليوم، لم يكن لهم على قتال المحتلين الاوروبيين (البريطانيين)، ولم تساورهم على الهجرة من بلادهم رغبة، وجدوا ـ على ما تبين لهم ـ للوضع مخرجاً. هذه الجماعة هي «الباميديل» والمخرج كان «الانكفاء» على أنفسهم، فقاطعوا المحتلين فكرياً وروحياً وثقافياً، وتجاهلوا حتى وجود شيء اسمه اوروبي في ما يتعلق بحياة الروح أصلاً، وبالتصرف الاجتماعي عموماً. وكانت هذه الجماعة شديدة العناية بإظهار اسلامها والتمسك بهويتها الاسلامية في تصرفها: فلم ترتد سوى الثياب المتصلة بالحياة الاسلامية، ولم تتكلم إلا العربية أو لغتها المحلية. وكانت هذه الجماعة ترى ان تطهير الحياة الاسلامية وإصلاحها هما الخطوة الاولى والأساسية في سبيل التغلب على الاستعمار والمستعمرين.

ولم تكن جماعة «الباميديل» وحيدة في الميدان، بل كانت هناك جماعة «صوبانو» في مالي، التي يعود قيامها الى سنة ١٩٤٠.

الى هاتين الجماعتين، اللتين لا يمكن اعتبارهما من الطرق الصوفية، لأن زعماءهما لم يقولوا بتسلم دعوة من قطب من الاقطاب الكبار ـ كان هناك طريقتان جديدتان هما المريدية والحمليّة. وقد كان لهما دور في التطور الذي أصاب الحياة الاسلامية والمسلمين سنعرض له فيما بعد. على كل فلنضعها في خانة «المقاومة» او «المعارضة» على الاقل.

كان هناك نماذج أخرى للمقاومة او المعارضة للاستعمار ورجاله. اذ إن المجتمع الافريقي، كان بحكم مسكنه وتطوره وتاريخه وانتشار الاسلام في ربوعه مجتمعاً متنوع الاتجاهات. ومن هنا فإننا نقع على جماعات مسلمة هنا وهناك التي لم ترفض الكثير من مظاهر الحياة الاوروبية بل اقتبستها، إلا انها رفضت آراء الاوروبيين والوسائل التي كانوا يلجأون اليها لتحقيق أغراضهم. فهذه الجماعات قبلت بإطار الحياة الجديدة مرغمة، مفيدة منه من دون ان تسمح له بأن يؤثر على حياة أفرادها الروحية. وكانت مقتنعة بأن هذا الاطار الغريب سيزول قطعاً. فانتظرت حتى تحقق أملها في الستينات والسبعينات من قرننا الحالي، وذلك ببلوغ الدول الافريقية استقلالها.

كان الى جانب هذه المقاومة المنظمة، بشكل او بآخر، مقاومة من نوع آخر يقوم بها أفراد نذروا نفوسهم لله، وكانوا يسمون «المرابط» و«المعلم». ولم يكن «المرابط» بالضرورة مقيماً في رباط، بل كان، في واقع الامر، كثير التنقل معلماً واعظاً خطيباً مثيراً للعواطف. والمعلم كان مثله، إلا ان المرابط كان يتمتع بمركز اجتماعي ارفع قليلاً (فضلاً عن انه قد يكون من قبيلة يعتبر جميع أفرادها مرابطين). فالمعلم هو أيضاً كان يشرح الاسلام للمستمعين، طلاباً في الصف، ومؤمنين في المساجد او أماكن أخرى للاجتماع.

هؤلاء ـ المرابطون والمعلمون ـ كان باستطاعتهم في أحيان كثيرة ان يثيروا من الشغب ضد الادارة الاجنبية ما قد لا تنجح فيه هيئات منظمة، اذ إن هذه كانت تحت المراقبة. أما هؤلاء الافراد فقد كانوا كالزئبق.

على ان ما يجب ان نذكره هو ان مقاومة الاستعمار في افريقيا الغربية لم تكن وقفاً على المسلمين ولا حكراً عليهم. فالجماعات والزعامات الافريقية غير المسلمة، وهي الوثنية خصوصاً في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خسرت نفوذاً ومنزلة وأرباحاً وزعامات بسبب الاستعمار، فكان من الطبيعي ان تقاوم هذا الوباء الوافد. فالعمل كان قائماً، وقد تم بالاشتراك فيما بعد، وإن كانت زاوية النظر الى العمل والمقاومة تختلف من الفريق الواحد الى الفريق الآخر.

بعد هذه الملاحظات العامة ننتقل الى دراسة نماذج من المقاومة الفعلية، اذ إن مثل هذا التفصيل يضعنا في الموقع المناسب لمتابعة تطور انتشار الاسلام في غرب افريقيا، فيما تبقى من هذا القرن.

ونحسب أننا لا نخطىء اذا نحن خرجنا من دراستنا للموقف العام النيجيري من بريطانيا بقولنا ان السكان كانوا يرون سياسة بريطانية نفعية بالنسبة لها ومنها الكثير من التعسف عندما تتعرض مصالحها او وجودها للخطر. وهل ذهب المستعمرون الى مكان إلا ليستفيدوا قبل كل شيء؟ وقد ينتج عن وجودهم خير للبلد المستعمر، لكن ذلك لم يكن مقصوداً بل جاء مصادفة. هذا كان رأي غاندي لما أشار صحافي مرة في حديث معه الى الامور الحضارية التي أدخلتها بريطانيا الى الهند. فلم ينكر غاندي ذلك لكنه، بعد الاعتراف بصحة الملاحظة، أضاف: هذا كله قد جاء مصادفة. فبريطانيا لم تأت الى الهند لتحمل الحضارة الاوروبية الينا.

نماذج

لعله من الخير لنا ان ننتقل، بعد هذه الملاحظات العامة الى نماذج خاصة نتناول فيها مواقف الافارقة من دول الاستعمار في مناطق رئيسة. ولنبدأ بموريتانيا (جمهورية موريتانيا الاسلامية الحالية). يبدو أن المحاولة الجدية من قبل فرنسا لاستعمار موريتانيا تعود الى مطلع القرن العشرين، بعد ان كانت فرنسا تتدخل في شؤون القبائل المقيمة في المنطقة. وأسلوب التدخل كان، في غالب الاحيان، يتخذ شكل محاولة اصلاح ذات البين بين أميرين. وحدث هذا سنة ١٩٠٢ اذ كان ثمة خلاف بين زعيمين في امارة ترارزة، وقد نجح المندوب في رأب الصدع وفي اعلان الحماية الفرنسية على أواسط موريتانيا وجنوبها. وفي سنة ١٩٠٤ عين مندوب فرنسي للعناية بشؤون موريتانيا متخذاً عاصمة له مدينة سانت لويس في السنغال. ونجح المندوب في التوصل الى نوع من الاتفاق مع الشيخ سيديا بابا وهو حفيد الشيخ سيديا بابا الكبير.

لكن هذا الاتفاق كان يمثل فريقاً واحداً من سكان البلاد، اذ إن زعماء آخرين، وهم من أصحاب المراكز والنفوذ في موريتانيا، كانوا معادين لفرنسا. ومن هؤلاء الشيخ ماء العينين (١٢٥١ ـ ١٣٢٨/ ١٨٣٥ ـ ١٩١٠) العالم المتصوف، وهو أول من نظّم الهجوم على المراكز الفرنسية في موريتانيا، اذ إنه كان له ضلع في الهجوم على تدجكجا (١٩٠٥). إلا ان ماء العينين، بالتآزر مع اميري ادرار وتفانت، جرب الحيلولة دون الفرنسيين واحتلال هاتين المنطقتين. وقد تلقى ماء العينين عوناً عسكرياً ودعماً سياسياً من المغرب. لكن الفرنسيين تمكنوا من الاستيلاء على المنطقتين المذكورتين (بين ١٩٠٦ و١٩٠٩)، وبذلك تم لهم السيطرة على القسم الاكبر مما هو اليوم جمهورية موريتانيا الاسلامية.

وهذا الجهاد الذي قاده ماء العينين ضد دولة غير اسلامية تحاول السيطرة على المسلمين استمر بعد وفاته (١٣٢٨/ ١٩١٠). ولعل من أقوى ما تم على يد وجهه (وهوقريب لماء العينين) ومكري ولد بخاري من مهاجمة للمراكز الفرنسية في ادرار،

وهي جزء من شمال موريتانيا، سنة ١٩٢٣، كان مما شجع آخرين على القيام بأعمال المقاومة في العشرينات وحتى في الثلاثينات من القرن العشرين. ومثال ذلك مهاجمة الرغيبات لمدينة نواذيبو (بورت اتيان) سنة ١٩٢٤، والهجوم الكبير على الجيش الفرنسي في ترارزة (١٩٣٢) الذي أدى الى انكسار الاخير وتكبده خسارة فادحة.

على ان الجهاد ضد فرنسا أخذت تخبو حدته بدءاً من أواسط الثلاثينات، وخصوصاً في ادرار وغيرها من المناطق الموريتانية. وقد بدأ هذا لما توصل زعماء ما عرف يومها بالصحراء الاسبانية، واسمها الاصلي ساقية الذهب (وهي المنطقة الصحراوية التي يقوم الخلاف حولها بين المغرب والبوليساريو اليوم) الى اتفاق مع اسبانيا. ثم تبع ذلك تفاهم تم بين فرنسا وبعض الزعماء المسلمين (١٩٣٦) ومنهم خلفاء ماء العينين.

ويذكر انه حتى قبل سنة ١٩٣٠ كان بعض زعماء موريتانيا قد اتخذوا قراراً بالتوقف عن المقاومة الحربية لفرنسا. وكان الشيخ سيديا بابا (١٢٧٩ ـ ١٣٤٣/ ١٨٦٢ ـ ١٩٢٤)، وهو حفيد الشيخ سيديا الكبير، على ما مر بنا، الذي كان يومها كبير العلماء في معهد بوتيليمت، أحد هؤلاء.

كان الشيخ سيديا زعيم الفرع المحلي للطريقة القادرية، وكان يتمتع بنفوذ سياسي وديني وعلمي وأدبي في موريتانيا وفي سينغامبيا. وقد اتجه همه الى اصلاح حال المسلمين وتنقية الاسلام مما علق به ومن ثم نشره، وذلك عن طريق التعليم ونشر الدعوة اليه.

سلك بعض زعماء المسلمين في السنغال، مثل سعيدو نورو التل، حفيد الحاج عمر، ومالك سي، وهما من زعماء التجانية مسلك الشيخ سيديا بالنسبة لفرنسا. لكن آخرين، مثل الشيخ حمى الله وزعماء صوبانو، خالفوا هؤلاء واستمروا في خصومتهم للاستعمار الفرنسي، أيامها وفيما بعد، على ما سنرى.

احتاجت فرنسا عشرين سنة (١٨٩٧ ـ ١٩١٧) حتى تم لها احتلال النيجر والسيطرة عليها. وقد لقيت مقاومة شرسة وعنيفة على أيدي فئات من الطوارق وفئات أخرى من الكونتا، على ما كان بين هذين الفريقين من خلاف وخصومة كانت تصل الى حد الاشتباك في معارك. وقد أفادت فرنسا في أحيان كثيرة من هذه الخصومة، فأيدت الكونتا لبعض الوقت، الامر الذي أثار حفيظة الطوارق فتشددوا في خصومتهم لها. لكن مع ان فرنسا استطاعت أخيراً احتلال المنطقة الواسعة، فإنها ظلت تحس بأن المقاومة لها شديدة. وكانت فرنسا متأكدة، انه في حال قيام حرب فمن الراجح ان ينضم الكثيرون في النيجر الى اعداء فرنسا.

موريتانيا والنيجر تمثلان العمل الفرنسي ورد الفعل الذي ووجه به. ولنأخذ الآن مثلاً من العمل البريطاني متمثلاً بنيجيريا.

تتلخص المواقف النيجيرية من بريطانيا في أربعة أمور: الاول، ولعل أتباعه هم الاقل عدداً، هو الذي أخذ به اولئك الذين قبلوا وعود البريطانيين بأن الاسلام سيترك حراً وشأنه، من دون ان تتدخل الدولة المحتلة في العقائد اوالنظم او الحياة عامة. ولذلك فضل هؤلاء أن يتنكبوا عن طريق المقاومة، والثاني الهجرة التي رأى البعض ان يلجأوا اليها فغادروا بلادهم آملين العودة عندما يزول حكم غير المسلمين. والثالث الجهاد ضد البريطانيين. أما الرابع فقد جاء في شكل مقاومة تحت راية المهدية. وعندما نترك الامر او النوع الاول جانباً، نجد ان هذه الاساليب كانت كثيراً ما تتلاحم فيما بينها في مقاومتها، وقد تختلف. ومن هنا فإن رد الفعل ضد الاستعمار في نيجيريا كان معقداً في حركاته ومتنوعاً في تحالفاته وخلافاته، على ان المجال لا يتسع هنا لتتبع خطاه ولو باختصار.

لما بدأ البريطانيون زحفهم على خلافة سوكوتو في سنة ١٩٠٠، كان مخططهم أن يتموا العمل عسكرياً، اذ إن هذا هو السبيل الوحيد اذا أرادوا وضع البلاد تحت نفوذهم. فاحتلوا عدداً من الامارات في الشمال (بين سنتي ١٩٠٠ و١٩٠٢) بينها زاريا.

ولم يكن سلطان سوكوتو يومها، عبد الرحمن (١٣٠٩ ـ ١٣٢١/ ١٨٩١ ـ ١٩٠٢) ينوي القبول بالقادمين حكاماً، وأعلن ذلك في رسالة بعث بها الى القائد البريطاني منذراً اياه بأن لا بد من القتال بين الفريقين. وكان السلطان معنياً بحماية الاسلام. وتقدم الجيش البريطاني واحتل كانو ثم سوكوتو (١٩٠٣). ومع ان الحياة سارت سيراً شبه طبيعي في كانو وغيرها، فإن الشعور بالرفض للوضع الجديد احتفظت به القلوب.

كان عبد الرحمن قد توفي وخلفه الطاهرو الذي كان يرى رأي عليو، أمير كانو، أي اللجوء الى الهجرة. ولكن الهجوم البريطاني لم يترك مجالاً للهجرة فقاد الطاهرو القتال، لكنه لم ينجح في منع المهاجمين من احتلال سوكوتو. فقرر عندها الهجرة، وكانت هجرة غير منظمة: سار السلطان وسار خلفه الناس على غير هدى أو وعي، والقصد مكة. وقد كانت الجموع تنضم الى المهاجرين في طريقهم. وكان ممن انضم اليه، في اتجاهه نحو الشرق، فئة من المؤمنين بالمهدية وفئة من أتباع التجانية.

من الطبيعي أن الذين ظلوا في بلادهم، امراء وشعباً، كانوا بحاجة الى تبرير لعملهم ـ أي عدم انضمامهم للمهاجرين ـ فجاءهم هذا من بعض العلماء الذين طلبوا من الناس ان يأخذوا بما أوصى به عثمان دان فوديو، وهو ان يتابعوا أعمالهم كالمعتاد. واذ إنه ليس بمستطاعهم ان يخرجوا المحتلين، فليقبلوا بهم ظاهراً، على ان لا يداخل نفوسهم او قلوبهم بقبول هؤلاء الغاصبين حكاماً لهم. وعندما تواتيهم الفرصة فإن المسلمين سينتصرون ويستعيدون استقلالهم.

لما وصل الطاهرو وجماعته بورمي اشتبكوا مع الجيش البريطاني، وكان قد انضم الكثيرون من المقاتلين المحليين الى الطاهرو، لذلك نجح النيجيريون في التغلب

على البريطانيين في المحاولة الاولى، لكنهم خسروا الجولة الثانية التي قتل فيها الطاهرو نفسه (١٩٠٣).

على ان المهدية ظلت قوة دينية سياسية ذات نفوذ قوي ونشاط في الدعوة كبير واتصال مع من تبقى من أتباع المهدي السوداني. وظلت الادارة البريطانية حتى سنة ١٩٢٣ تعتبر المهدية مشكلة سياسية من الدرجة الاولى.

الانتشار

من المفارقات التي يمكن للمؤرخين ان يقعوا عليها، ما تم في غرب افريقيا (وقد تم في غيرها من المناطق الافريقية أيضاً) هو ان الاسلام أتيح له المجال للانتشار في فترة الاستعمار اكثر مما أتيح له في أي من العصور التي سبقت... وسنتناول هذه الناحية ببعض التفصيل في الفصل التالي، إلا اننا نود أن نتوقف هنا عند ذكر بعض الاحوال والظروف التي أدت الى ذلك. وسنكتفي هنا، بما كان له ارتباط مباشر بوجود الدول المستعمرة. فقد أدى استيلاء بريطانيا وفرنسا على تلك المناطق الى وقف الحروب المحلية الكثيرة ونشر الامن وبناء الطرق وتحسين وسائل المواصلات العامة. وهذا يسر للناس، على اختلاف عناصرهم وطبقاتهم التنقل في مناطق لم يكونوا يصلون اليها قبلاً. وفي الفترة الاستعمارية اتسعت بلدان صغيرة وقرى كبيرة وأصبحت مدناً وذلك بسبب وجود الاعمال فيها، فتجمهر فيها العاطلون عن العمل في الريف. وكانت هذه المدن قد نشأت فيها أعمال تحتاج الى عمال وخدم ومساعدين، فأقبل الريفيون عليها. والاسلام كان دوماً في غرب افريقيا الدين المحبب الى أهل المدن.

فضلاً عن ذلك، فقد لجأت الادارة الفرنسية والحكومات البريطانية الى الافادة من المسلمين، لأنهم متعلمون ولأنهم أكثر خبرة، فعينوهم في مناصب حكومية تتيح لهم الاتصال بالآخرين لأنهم أصبحوا صلة الوصل بين الحكومة والشعب. وقد أتاح هذا الظرف لكثيرين من أتباع الاديان الافريقية المختلفة ان يتعرفوا الى الاسلام وأن يروا في تصرف هؤلاء الموظفين ما شجعهم على اعتناق الاسلام.

عنيت الادارتان، الفرنسية والبريطانية، بالزعماء الذين كانوا أصحاب نفوذ في المناطق المحتلة، فقدمتاهم. أما الفرنسيون فقد قصوا من اجنحة هؤلاء الزعماء وقللوا من نفوذهم، لكنهم ظلوا في مركز الرئاسة، على الاقل بالنسبة للشعب. أما بريطانيا فقد اتخذت من هؤلاء الزعماء المسلمين حكاماً للمناطق التي كانوا «أمراء» فيها، والتي قد يكون سكانها إما وثنيين او مختلطين من مسلمين ووثنيين او مسلمين. وفي جميع الحالات كان الزعيم المسلم وبلاطه يؤثر في نفس الوثني، وقد يؤدي ذلك الى اعتناق أفراد للإسلام، او الى اقبال أسر كبيرة او حتى مجموعات أكبر على الانضمام الى جماعة المؤمنين.

هذا جدول مختصر للدول الافريقية في المنطقة التي نتحدث عنها، والتي خرجت مستقلة من النير الاستعماري.

١ ـ ليبيريا وعاصمتها منروفيا. يعود نشوء هذا القطر الى سنة ١٨٢٢. ذلك بأن إلغاء الرق (بريطانيا سنة ١٨٠٧ وفرنسا ١٨١٧) أدى الى تحرير عدد كبير من الارقاء الذين تجمعوا في أماكن مختلفة بحثاً عن عمل. وكان ثمة عدد لا يستهان به من الافارقة الذين كانوا في الرق في اميركا، والذين لما تحرروا عادوا الى افريقيا، فتجمعوا مع آخرين في المنطقة المحيطة بمنروفيا. وتكاثر عددهم، وأخيراً أعلنت ليبيريا جمهورية مستقلة سنة ١٨٤٧ برعاية الولايات المتحدة التي حافظت عليها. (عملة ليبيريا هي الدولار الاميركي المقسم الى مئة سنت). سكان ليبيريا يعتنقون أدياناً افريقية، الا انه فيها أقلية مسلمة ومثلها أقلية مسيحية بروتستانتية.

٢ ـ غانا وعاصمتها أكرا. أصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني باسم ساحل الذهب سنة ١٩٠١. في سنة ١٩٥٦ انضمت اليها توغو البريطانية (وهي التي صارت الى بريطانية بعد تقسيم توغولاند التي كانت املاكاً المانية حتى الحرب العالمية الاولى). استقلت غانا سنة ١٩٥٧.

٣ ـ غينيا وعاصمتها كوناكري (وتسمى عادة غينيا كوناكري تمييزاً لها عن غينيا بيساو). أصبحت مستعمرة فرنسية سنة ١٨٩٠ واستقلت سنة ١٩٥٨. يدين أغلبية سكانها بالأديان الافريقية المحلية الفتشية (أي عبادة الدكاكير ـ الاصنام) وفيها أقلية مسلمة وأخرى مسيحية.

٤ ـ النيجر وعاصمتها نيامي. استقلت سنة ١٩٦٠. احتلت فرنسا النيجر سنة ١٩٠٠، واعتبرت هذه مستعمرة فرنسية سنة ١٩٢٢. سكانها ٨٥ في المئة مسلمون ويدين ١٤ في المئة منهم بالأديان المحلية. وفيها «رشة» صغيرة مسيحية.

٥ ـ نيجيريا وعاصمتها لاغوس. احتلت بريطانيا لاغوس سنة ١٨٦١ وأصبحت مناطق نيجيريا الشمالية والجنوبية محمية سنة ١٩٠٠ ومستعمرة ١٩١٤. وقد استقلت سنة ١٩٦٠. وفي سنة ١٩٦١ انضم اليها الجزء الشمالي من الكاميرون البريطانية. نحو نصف سكانها مسلمون وهم يسيطرون على الجزء الشمالي. ويبلغ المسيحيون ربع السكان عدداً. أما ما تبقى فتتوزعه الأديان الافريقية المحلية.

٦ ـ الكاميرون وعاصمتها ياوونده. احتلت المانيا الكاميرون واتخذتها محمية لها سنة ١٨٨٤. اقتسمت بريطانيا وفرنسا الكاميرون فكانت الاولى في الجزء الشمالي، فيما اتبع الجزء الجنوبي فرنسا. في سنة ١٩٦٠ استقلت الكاميرون (الفرنسية) وفي السنة التالية انضم اليها القسم الجنوبي من الكاميرون البريطانية (أما القسم الشمالي من الكاميرون البريطانية فقد انضم الى نيجيريا). سكان الكاميرون لا يزالون في غالبيتهم الاعم على الوثنية.

٧ ـ مالي وعاصمتها باماكو. كانت جزءاً من السودان الفرنسي. وقد استقلت سنة ١٩٦٠. سكانها ٥٣ في المئة مسلمون و٤٥ في المئة يتبعون ديانات محلية. وبين الفريقين فئات مسيحية قليلة.

٨ ـ بوركينا فاسو (وكانت الى قبل وقت قصير فولتا العليا) وعاصمتها اوغادوغو. اتخذها الفرنسيون محمية سنة ١٨٩٦. في سنة ١٩٣٢ قسّمت بين جاراتها، لكنها أعيدت اليها وحدتها سنة ١٩٤٧ لتكون جزءاً من الاتحاد الفرنسي. استقلت سنة ١٩٦٠. يمكن اعتبارها، من حيث السكان، مسيحية.

٩ ـ توغو وعاصمتها لومي. كانت توغولاند. وضعتها المانيا تحت حمايتها في ثمانينات القرن التاسع عشر. لكن أثناء الحرب العالمية الاولى، وفي مطلعها، احتلت بريطانيا ثلث البلاد الغربي، ووقع ما تبقى حصة لفرنسا. وأيدت عصبة الامم هذا الوضع سنة ١٩٢٢. في سنة ١٩٤٦ وضع القسمان تحت وصاية الامم المتحدة. وقد جرت انتخابات عامة في عام ١٩٥٦، انضم بعدها (١٩٥٧) القسم الذي كان تابعاً لبريطانيا الى غانا، وظلت الاجزاء التي كانت تابعة لفرنسا مستقلة استقلالاً داخلياً. وأخيراً منحت البلاد استقلالها سنة ١٩٦٠، وأصبحت تعرف باسم توغو. ويبلغ أتباع الديانات الافريقية المحلية ٧٥ في المئة من السكان، وثمة ٢٠ في المئة منهم مسيحيون و٥ في المئة منهم مسلمون.

١٠ ـ بنين (داهومي سابقاً) وعاصمتها بورتو نوفو. ضمتها فرنسا الى ممتلكاتها سنة ١٨٩٣، وبعد تقلبات متنوعة تمت جميعها في اطار السلطة الفرنسية منحت البلاد استقلالها سنة ١٩٦٠. تغلب الوثنية على سكانها.

١١ ـ السنغال وعاصمتها دكار. استقلت سنة ١٩٦٠ بعد ان ظلت جزءاً من الممتلكات الفرنسية منذ العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر. يبلغ عدد المسلمين فيها ٨٠ في المئة من السكان، وفيها من أتباع الاديان الافريقية المحلية ١٥ في المئة وما تبقى ٥ في المئة مسيحيون. وقد كان أول رئيس لها، عند الاستقلال، ليوبولد سنغور، مسيحياً.

١٢ ـ موريتانيا وعاصمتها نواكشوط اعتبرت أنها في مجال النفوذ الفرنسي منذ أوائل القرن التاسع عشر. وقد نظمت فرنسا أمرها محمية سنة ١٩٠٣ وضمت الى «غرب أفريقيا الفرنسي» في السنة التالية. واعتبرت مستعمرة سنة ١٩٢٠ ثم جمهورية مستقلة وأخيراً استقلت سنة ١٩٦٠. السكان جميعهم مسلمون.

١٣ ـ سيراليون وعاصمتها فريتاون. أنشئت مدينة فريتاون سنة ١٧٨٧ مستوطنة للرقيق الاميركي المتحرر. وقد انشأتها أصلاً جمعية بريطانية كانت ضد الرق. وفي سنة ١٨٠٨ أصبحت المدينة مستعمرة بريطانية، أما مناطق الجوار فقد جعلت محمية

بريطانية سنة ١٨٩٦. استقلت سنة ١٩٦١. تغلب على سكانها الاديان الافريقية، وفيها نحو ٢٠ في المئة مسلمون و٥ في المئة مسيحيون.

١٤ ـ غامبيا وعاصمتها باثورست. اصبحت مستعمرة بريطانية سنة ١٨٤٣، ونالت الحكم الذاتي (١٩٦٣) ثم استقلت نهائياً سنة ١٩٦٥. يغلب على سكانها الاسلام، ومع وجود اقلية مسيحية، وأخرى تتبع الاديان الافريقية.

١٥ ـ غينيا بيساو وعاصمتها بيساو (تضاف الى اسم العاصمة تمييزاً لها عن غينيا كوناكري). وهذه كانت مستعمرة برتغالية حتى استقلالها سنة ١٩٧٤. يغلب الاسلام على سكانها.

٨ ـ الدين هوية ... يواجه الاستعمار

أشرنا في المقال السابق الى بعض العوامل التي كان لها أثر في تسريع انتشار الاسلام في غرب افريقيا في الحقبة الاستعمارية، وقد تناولنا هناك العوامل الظرفية. على أننا نود ان نضيف هنا أموراً هي، في رأينا، أعمق أثراً في عملية الانتشار القوي والسريع للاسلام في تلك المنطقة.

عملت دولتا الاستعمار الرئيستان، بريطانيا وفرنسا، على إنشاء محاكم شرعية للنظر في القضايا التي تخص المسلمين، وعينت لها القضاة المختصين. وكان معنى هذا في نظر بعض الجماعات الوثنية ان «شريعة هذا الدين» تستحق التكريم، ولذلك فقد يكون في أتباعها خير. وقد وصف سبنسر ترمنغهام هذا بقوله «ان الوثني اصبح يشعر انه خير له ان يتسمى بمحمد وان يلبس جبة». وبهذه المناسبة فإن أموراً مثل هذه لا يمكن أن يستهان بها. فالتقليد في المجتمعات البشرية له أثر كبير في نقل نواحي السلوك وما يتعلق بها من جماعة الى جماعة.

وإذا كانت القبائل المختلفة تتجاور، فقد كان من الطبيعي ان تنتقل العدوى من فئة الى أخرى. فقبيلة تمنه اسلمت في القرن التاسع عشر، فأصيبت جارتها قبيلة منده بالعدوى، واعتنقت الاسلام في مطلع القرن العشرين. ومثل ذلك يقال بالنسبة لقبائل السوسو المقيمة في غينيا الغربية، التي اعتنقت الاسلام بسبب وجود المسلمين في فوتا جلون، وهم أهل الجوار.

على ان هناك أمرين قد لا ينتبه لهما المرء: الاول، ان الاسلام كان له تسعة قرون او اكثر وهو معروف ومألوف في السودان الغربي منذ ان جاء أول تجار الى غانا ومالي. ومن هنا، فالاسلام بالنسبة لابن غرب افريقيا دين افريقي وطني متجذر هناك. وقد يقاومه الوثني، وقد يخشاه، وقد يتحاشاه، لكنه لا يستطيع ان ينكر عليه حق المواطنة. ولذلك فإذا انتقل فرد او اسرة او عشيرة او قبيلة من الوثنية الى الاسلام فالأمر لا يبدو غريباً بقدر انتقال الوثني الى المسيحية مثلا. اذ إن هذا الوثني رأى المسيحية ديناً جديداً جاء بمواكبة الاستعمار. وهو، مع ما قد يكون قد ناله من الاستعمار من تحسن مادي، فإنه لا يستطيع ان ينسى أن الدول المستعمرة جاءت جيوشها ومعها البطش والحديد والنار وما يمكن ان يرافق ذلك.

الى ذلك فإن المسلم الافريقي كان يتكلم لغة القبيلة التي كان يتكلمها الوثني.

صحيح أن اللغة العربية كانت واسعة الانتشار بين المسلمين، لكن الافريقي الوثني قد ألف وجودها في ربوعه عند جيرانه المؤمنين. فهي بالنسبة له، ليست غريبة وليست حديثة الوصول. أما المبشر المسيحي فقد فتح مدرسة وجاء معه بلغة جديدة بشكلها ونطقها وكتابتها.

كان المبشر المسيحي رجلاً أجنبياً بالنسبة للافريقي. كان غريباً في لون شعره ولون عينيه وقامته. كان غريباً في ثيابه وهندامه. كان غريباً في عاداته على تنوعها. أما بالنسبة لنشر الاسلام فإن الداعية والمعلم وخطيب المسجد والواعظ والمتصوف كانوا جميعاً من ابناء البلد: سحنهم متشابهة وشعورهم متماثلة وثيابهم وهندامهم على نمط واحد، وعاداتهم في الاكل والمسكن فيها شيء كثير من وحدة العمل الجماعي. فكان من الطبيعي ان تتجه تلبية الوثني اذا اعتمد تلبية النداء نحو مواطنه المسلم بدل ان يقبل على المبشر الغريب.

أذكر انه في أوائل الاربعينات من القرن الجاري كنت أتحدث الى مبشر كان يقيم يومها في القدس، لكنه كان قد عمل في غرب افريقيا. وتطرق يومها الى القول إنه وزملاءه كانوا يجدون صعوبة في التبشير بالمسيحية بين وثنيي افريقيا. فسألته يومها في ما اذا كان يحتفظ «ببدلته» الاوروبية أثناء إقامته في البلاد وبين العباد فأجاب طبعاً. عندها قلت له يا سيدي ان الداعية المسلم في افريقيا هو من ابناء البلاد وأنت أجنبي غريب. أليس من الطبيعي ان تكون استجابته لابن جلدته أقرب من استجابته لدعوتك؟ وسكت محدَثي، لا لأنه لم يقبل وجهة نظري، لكن أظن انه لم يخطر له مثل هذا الرأي من قبل. وأحسب أن مثل هذا التصرف طبيعي وعادي.

والذي يجدر بنا ان نذكره أيضاً هو ان الحروب التي قامت في غرب افريقيا بين السكان أنفسهم ثم بين الجيوش الاوروبية الغازية والسكان، والبطش الذي لقيه السكان، أدى الى تشريد عدد كبير منهم عن مواطنهم. هؤلاء فقدوا «هوية المنزل والقبيلة». وهو أمر في غاية الاهمية لتلك الجماعات، اذ كانت القبيلة دوماً أساس العلاقات الفردية والاجتماعية بين الناس. ومن هنا فإن المؤسسة التي كانت تقدم لهؤلاء القوم بديلا عما فقدوه كانت هي الاهم في نظرهم. فعلى سبيل المثال فإن الطريقة المريدية التي يسرت لأولئك الذين اقتلعوا من مواطنهم، كائناً ما كان السبب، قيادة تخفف آلامهم وتقدم لهم عملاً يقومون به و«جماعة» ينضمون اليها، استطاعت ان تستقطب العدد الكبير من الناس ـ وأكثرهم اعتنق الاسلام ـ وفي طريقه الى الانضمام الى الجماعة. فبين سنة ١٨٨٦ وسنة ١٩١٢ نما عدد أتباع المريدية من فئة قليلة من الاتباع والمريدين الى مؤسسة قدر أتباعها بنحو سبعين ألفاً.

والطرق الصوفية، مثل المريدية والتيجانية، استطاعت ان تصل الى أعداد كبيرة من الناس لأنها دعتهم الى التعرف الى أهم ما في الاسلام من قواعد الايمان وأصول

السلوك. فكان لذلك قبول لدى عامة الشعب. وتركت دروس الفقه والشريعة وبقية العلوم الاسلامية للمدارس والعلماء. وليذهب اليها من يقدر على ذلك.

الطرق الصوفية

لعله من المستحسن ان نلقي نظرة على الدور الذي قامت به الطرق الصوفية في سبيل نشر الاسلام في فترة الاستعمار هذه.

الطريقة الاولى التي تجذبنا اليها هي المريدية لأنها الأحدث عهداً. فقد أنشأها احمدو بمبا (١٢٦٧ ـ ١٣٤٦/ ١٨٥٠ ـ ١٩٢٧) في سنة ١٣٠٤/ ١٨٨٦ ولم تكن في بدء أمرها سوى فرع من الطريقة القادرية. وأقبل عليها فئتان من الناس: واحدة أخرجت من منازلها بسبب احتلال فرنسا للسنغال، وثانية، تبدلت أساليب حياتها بسبب التوسع في زراعة الفستق والاهتمام بما رافقها من نواح اقتصادية. وكان الذين انضموا الى الطريقة هذه، إضافة الى الفلاحين، فئات المحاربين، وحتى الحكام الذين فقدوا ما كان لديهم من عمل.

ومع ان المريدية كانت أصلاً، كما قلنا، فرعاً من القادرية، فإن افق احمدو بمبا الواسع مكّنه ان يتخذ من أوراد القادرية والتيجانية ومن ادعيتهم مزيجاً كان له نكهة خاصة بالنسبة لأذواق هؤلاء المصابين. وأضاف الى ذلك بضعة تنظيمات خاصة. فأصبح للمريدية هوية خاصة. ولعلّ من أهم ما ميز المريدية عن الطريقتين الاقدم والأقوى أصلاً، هو اصرار احمدو بمبا على أهمية العمل الجاد وقيمة النظام فيه. وكان له موقف خاص من العمل ـ ان الشغل في رأيه تعود قيمته أصلاً الى الباعث الروحي الذي يحمل المرء على العمل. العمل الجاد هو عبادة روحية قيمته مثل قيمة الصلاة. كان الرجل يريد من أتباع المريدية أن تكون حياتهم فعّالة نافعة خلقية.

في ثمانينات القرن التاسع عشر تعرض اثنان ممن قاوموا الزحف الفرنسي على السنغال، وهما لات ديور وممدو لامين (محمد الامين) لهزيمة ادت الى تجريد أتباعهم من السلاح. هؤلاء المحاربون المهزومون ـ الى الاعداد الكبيرة التي قضي عليها في المعارك وخارج المعارك ـ كانوا بحاجة الى من يأسو جراحهم وينشّط أرواحهم ويملأ بالماء أقداحهم وبالزاد صحافهم. صحيح أن الادارة الفرنسية الاستعمارية أقامت لهم قرى سمتها «قرى الحرية» لكنها لم تكن في الواقع سوى ثكنات يقيم فيها هؤلاء المشردون وكأنهم وضعوا فيها كي يأتي المحتاجون الى العمال فيحصلوا عليهم بأرخص الاجور.

هنا جاء دور المريدية وعلى رأسها احمدو بمبا. فأقام ما عرف باسم «دارا» وهي في الواقع «مزرعة جماعية». وكان انتاج الفستق العمل الرئيسي فيها. وكان هناك «دارات» للعلم حيث كان المريدي يتعلم قراءة القرآن الكريم وتجويده وشيئاً من

الشريعة والعربية. وكان ذلك كله ـ العمل والتعليم والمعيشة والاجتماعات ـ يتم في جو اسلامي وطني. ومن هنا عاد الى الناس شعورهم بوجودهم وكيانهم.

كان احمدو بمبا، على ما كان من تجنبه للقتال، موضع ريبة عند السلطات الاستعمارية، اذ إن خصومه ومنافسيه كثيراً ما زوّروا التقارير ضده. لذلك فقد نفي الى الغابون سنة ١٨٩٥، الامر الذي زاد من أهميته في نظر أتباعه، ولم يقلّ أثر نفيه الى موريتانيا سنة ١٩٠٢ عن ذلك.

وكان بين العاملين في سبيل الاسلام، نشراً ومحاولة اصلاح أحوال المسلمين، الشيخ حمى الله، زعيم «الحملية»، وهي حركة اصلاحية نشأت في كنف التيجانية، فنفي هو الآخر مرات.

حوالى سنة ١٩١٢ كان الفرنسيون قد وطدوا أقدامهم في السنغال، وقد ارتأى احمدو بمبا ان يعزف عن العداء المفتوح لهم. فسمح له ان يقيم في اقليم باول (السنغال). ومن هنا أخذت طريقته بالانتشار وترافق انتشار الاسلام مع انتشارها. ولم تبخل السلطات الفرنسية عليه بالمساعدة، الامر الذي زاد من انتشار المريدية، ومن ثم في انتشار االسلام.

بعد وفاة احمدو بمبا (١٣٤٦/ ١٩٢٧) استمرت المريدية في التوسع، لكنها ضعفت بعض الشيء بسبب الخلافات على الزعامة. ومع ذلك فقد كان عدد أتباعها سنة حصلت السنغال على استقلالها، نحو نصف مليون، كثيرون منهم اعتنقوا الاسلام على يد الدعاة المريديين.

مر بنا من قبل خبر الطريقة التيجانية. لكن ذلك لا يمنعنا من العودة اليها، لأنها كانت ذات أثر كبير في حياة المسلمين في السنغال وما جاورها. كان عبد اللاه من اسرة نياس عالماً كبيراً وزعيماً من زعماء التيجانية. وكان يتصل بالتيجانية في شمال افريقيا. وقد أدى فريضة الحج، وبعد اقامة في غامبيا وفي فاس استقر في كاولاك سنة ١٩١٠. ولما توفي سنة ١٩٢٢ كان قد جعل من اسرته نياس قادة التيجانية في سيني ـ سلوم وفي غامبيا. ومع ان عبد اللاه استخلف ابنه محمد بعده، فإن الابن الثاني ابراهيم قرر في أواخر العقد نفسه أن ينفصل عن أخيه ويقيم فرعاً مستقلاً خاصاً به من التيجانية. وكانت مبادئه تشمل العناية بالتصوف، وأتباع الرسول (ص) في حياته. وقد استبعد الجهاد ودعا الى جهاد النفس.

ادعى ابراهيم في عام ١٩٣٠ انه هو «منقذ الزمان». ولما أدى فريضة الحج (١٩٣٧) مر في طريق عودته بفاس حيث انبأه خليفة (زعيم) التيجانية انه يترتب عليه ان يكون زعيم التيجانية. وقد قبل به زعماء كثر من نيجيريا، فضلاً عن زعماء من غانا وغينيا (كوناكري) وغامبيا وساحل العاج وموريتانيا وتوغو وفولتا العليا (بركينا فاسو) ومالي. وقد تنقل ابراهيم كثيراً في غرب افريقيا، ونال تأييداً كبيراً. وكان يعتبر نفسه

مكلفاً باتمام مسيرة الحاج عمر. وأهم ما كان يميز ادارته هو انه كان يقبل باستعمال جميع وسائل الاعلام ـ الراديو والتلفزيون والمسجلات ـ في سبيل نشر آرائه والدعوة للإسلام. وكان يرى وجوب اشتراك النساء والاطفال في الممارسات الدينية. ولم يقبل الفرع الابراهيمي هذا بأن تحجّب النساء.

لقيت آراء ابراهيم نياس اقبالاً كبيراً لا من المحتاجين والمقتلعين والمهجرين فحسب، بل تقبلها الكثيرون من اصحاب الاعمال والقيادات الدينية. ومع وجود من انتقده في أفكاره فقد جذب اليه، على ما يرى مؤرخوه، الملايين من الخلق. وقد اهتم بالتعليم الاسلامي (القرآن والحديث والفقه) وعلوم اسلامية أخرى، وأنشأ عدداً لا يستهان به من الزوايا. الى ذلك فقد كان له مقامه في المؤسسات الاسلامية العالمية مثل المؤتمر الاسلامي العالمي وعصبة العالم الاسلامي.

قامت في غرب افريقيا في فترة الاستعمار منظمات كان القصد منها إحياء الاسلام ونشره. وقد تأثرت هذه بمساعي ابراهيم نياس وأساليبه، وأهمها التعليم ونشر الاسلام واللغة العربية. لذلك أصبحت اللغة العربية والاسلام عنصري الهوية للمسلم في غرب افريقيا. وبسبب أن المدارس الاسلامية كانت جيدة فقد كان يؤمها الاولاد، بقطع النظر عما اذا كانوا مسلمين ام من الوثنيين.

ومن هنا فإن السنغال كانت، سنة ١٩٦٠، مسلمة في غالبيتها الكبيرة.

السنغال

كانت دويلات السيرر في السنغال في سيني وسلوم مناطق غير اسلامية حتى مطلع القرن العشرين. صحيح ان سَلوم الغربية كان فيها اقلية لا يستهان بها من المسلمين. لكن الاغلبية من السيرر لم تكن قد اعتنقت الاسلام يومها، بل قاومت انتشاره في ربوعها. ولعل العوامل المختلفة التي ساعدت على انتشار الاسلام في غرب افريقيا، كان الكثير منها ذا أثر هنا. يضاف الى ما ذكر ان كاولاك، وهي مدينة كانت فيها غالبية مسلمة كبيرة، جعلت (١٨٩٨) عاصمة سيني ـ سلوم، وبذلك جذبت اليها عدداً كبيراً من التجار المسلمين.

بدأت السيرر باعتناق الاسلام في تسعينات القرن التاسع عشر، وأصبح عدد من زعمائها مسلمين حول سنة ١٩٠٠. وفي سنة ١٩١٣ كان ٤٣ في المئة من أهالي السيرر في سلوم الغربية قد اعتنقوا الاسلام. وكانت سَلوم الدنيا في العام نفسه قد أصبح ٨٠ في المئة من سكانها مسلمين، أما سيني فقد بلغ المسلمون فيها ١٥ في المئة من السكان. وعند نهاية الفترة الاستعمارية كان ٥٠ في المئة من جميع السيرر قد أصبحوا مسلمين.

ولنذكر أنفسنا بالدور الذي قامت به المريدية والتيجانية في هذا المجال.

كانت بركينا فاسو (فولتا العليا) تضم عدداً صغيراً من المسلمين حتى حوالى

سنة ١٩٠٠. وقدر عددهم في ولاية اهيغونيا بنحو ٣ آلاف من أصل ٤٠٠ ألف نسمة. أما ولاية وغادوغو فقد كان فيها ٧ آلاف مسلم من أصل ٣٠٠ ألف نسمة.

وفي سنة ١٩٤١ كان في مدينة وغادوغو وحدها ٢٧ مدرسة اسلامية، أما الولاية فكان فيها ٢٥٩ مدرسة اسلامية، وكانت كلها يُقرأ فيها القرآن وتُعلم العلوم الاسلامية. وكان لتجار اليارسي المسلمين اليد الطولى في هذا التطور. كان التاجر اليارسي يصل القرية حاملاً سلعته وهي الملح والكولا، يبيعها ويتحدث الى الناس ويرحل. لكنه قد يعود بعد مدة، وقد جمع بعض الثروة، الى القرية نفسها فيفتح مدرسة او يبني مسجداً. وقد نقل عن كلوزال، الذي كان وكيلاً للحاكم الفرنسي لمنطقة السنغال الاعلى والنيجر (وكانت فولتا العليا جزءاً من المنطقة يومها) قوله إنه في كل مرة يزور يارسي قرية ما ثم يغادرها يترك فيها جزء من ديانته.

وفي سنة ١٩٤١ كان في وغادوغو (الولاية) ثلاثون ألف مسلم، كما كان المسلمون في ولاية واهيغويا قد ارتفع عددهم الى ثمانين الفاً.

ثم جاء دور كان فيه الاهتمام بنشر الاسلام أكبر، وكانت النتائج جيدة، وذلك بين ١٩٥٠ و١٩٦٠. فقد ارتفعت نسبة المسلمين الى مجموع السكان الى ما بين ٢٠ في المئة و٢٥ في المئة. أما في مدينة وغادوغو فقد اصبحت نسبة السكان المسلمين الى مجموع السكان ٣٢ في المئة. وفي سنة ١٩٥٣ بني المسجد الرئيسي في وغادوغو. وأنشأت كل من الطريقة القادرية والتيجانية فروعاً لها في وغادوغو.

كانت الطريقة الحملية، التي أسسها الشيخ حمى الله سنة ١٣٢٧/ ١٩٠٩ (توفي الشيخ منفيّا في باريس سنة ١٣٦١/ ١٩٤٢)، وهي في الواقع تفرع عن التيجانية، تدعي القصد بإصلاح شأن التيجانية لأن المشرفين عليها قد ضلوا سواء السبيل. وقد كانت السلطات الفرنسية تشك في أمر الشيخ حمى الله، فنفته مرات. على ان هذه الطريقة جذبت الكثير من الطلبة/ الاتباع في فولتا العليا اولا ثم في موريتانيا والسنغال ومالي والنيجر وغينيا (كوناكري) وساحل العاج. وعد من أتباع الشيخ في ثلاثينات هذا القرن ٦٨ ألف شخص في فولتا العليا وحدها. ويمكن إجمال موقف الشيخ حمى الله وبعض صغار الشيوخ الى جانبه انهم لم يكونوا خصوماً عنيفين للاستعمار الفرنسي، ولو انهم لم يدعوا الى مهادنته.

اختصر الشيخ حمى الله الصلاة، وأخذ بصلاة السفر، وحجته انه كان يقيم في بلد غير اسلامي، لذلك فهو على استعداد لمغادرته في أي وقت، وهو اذن مستعد للسفر دوماً.

وبسبب ان معتنقي الاسلام في فولتا اثناء الفترة الاستعمارية كانوا من رجال التجارة ومن الموظفين، وكان منهم العلماء والمدرسون، فقد أصبح اعتناق الاسلام له

دلالة اجتماعية طبقية خاصة. ولعل هذا ما حمل الآخرين على الانضمام الى هذه النخبة الاجتماعية الجديدة.

وهذه الجماعة - الحملية ومن لفّ لفها - كانت تبدي تساهلاً نحو الاديان الاخرى. وقد رفضت القيم الاوروبية، وخصوصاً تلك المتعلقة منها بالحياة الاجتماعية، رفضاً تاماً. ومال الكثيرون من أتباعها نحو التصوف.

في سنة ١٩٥٨ أنشئت في وغادوغو الجماعة الاسلامية (وأصبحت الجماعة الاسلامية في فولتا العليا سنة ١٩٦٢).

ومن المناطق التي كانت تحت النفوذ الفرنسي والتي انتشر الاسلام فيها في الفترة الاستعمارية: ساحل العاج. فقد كانت تعتبر في العقود الاولى من القرن الحالي انها بلد غير اسلامي، اي ان المسلمين من سكانها قلة، اذ إنهم لم يتجاوزوا حتى سنة ١٩٢١ نسبة ٧ في المئة من السكان. وفي سنة ١٩٦٠ اصبحت نسبتهم ٢٢ في المئة.

والذي نعرفه أن الادارة الفرنسية، بعد ان ضمنت سيطرتها على البلاد، وأنشأت الطرق الى الداخل، يسّرت للتجار الوصول الى المناطق النائية. بل إن الحكومة تبرعت بمبالغ، ولو زهيدة، لبناء مساجد لرعاياها المسلمين - من ذلك التبرع سنة ١٩٠٤ بمبلغ مئتي فرنك ثم بمئتين وخمسين فرنكا لبناء مسجدين في قريتين هما تومودي وتياسالي. لكن هذا الموقف تبدل سنة ١٩١٠، فأصبح التنقل مسموحاً به للأفراد من قبيلة الديولا لأنهم تجار، فيما منع المعلمون/ المرابطون من ذلك اذ اعتبروا سيئي النية نحو فرنسا.

وخلال السنوات العشر التي تلت قرار الحظر كان تجار الديولا قد أقاموا لهم أماكن في جميع النقاط المهمة على الطرق التجارية الرئيسة في جنوب ساحل العاج، وهي المنطقة المقصودة. وكان المعلمون/ المرابطون يصلون اليها. ومع ان الادارة كانت تمنع فتح المدارس الاسلامية، وجرّبت منع وصول الكتب العربية اللازمة للتدريس، فقد كانت الكتب المختلفة الانواع تصل الى الجماعات المختلفة، وكان التدريس يتم في البيوت وما اليها.

أدى هذا التزمت الرسمي الى تقوية الفريق المعادي للحكم الفرنسي في البلاد. ويذكر أن الدعوة التي كان قد أطلقها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر، كانت قد وصلت اصداؤها الى غرب افريقيا في أواخر القرن التاسع عشر (على الراجح أن هذا تم عن طريق المغرب). لكن القرن العشرين شهد تطوراً خاصاً في نفوذ هذه التعاليم في ساحل العاج مثلاً. ومنذ سنة ١٩٣٢، اصبح من اليسير على الحجاج ان يتعرفوا الى مختلف الآراء بشكل اوضح. يضاف الى هذا ان بعض الطلاب من غرب افريقيا كانوا ينتقلون للدراسة في الازهر الشريف بالقاهرة. ومن هناك انتقلت الافكار والآراء. وممن تأثر بهذه الآراء وحملها معه الى غرب افريقيا، الحاج

عبداللاه اغ محمود من غاو (غوا) في النيجر، والحاج تيكودو من ساحل العاج. ونشط الاول في وسط المسلمين في تمبكتو وما حولها.

والحاج تيكودو، وهو تاجر من عشيرة ديولا، قام بالحج في أواخر الثلاثينات. وقد جاور في مكة بعض الوقت فتعلم العربية وأجاد دراسة الشرع والفقه، وعاد الى بلاده سنة ١٩٤٤. وكان أول ما وجه همه نحوه، اصلاح نظام التعليم الاسلامي ونشر الآراء التي حملها من اصلاحات محمد بن عبد الوهاب. كان يقوم بذلك في احاديث مسائية. وكانت الاماكن اثناءها تغص بالمستمعين. وتركزت حملته على التصوف والبدع والشعوذات والاولياء. ودعا الى اسلام صاف نقي أصيل ينبع من القرآن الكريم. وطالب أيضاً بأن تقوم الدولة على أساس الشرع.

وقد قبض على الحاج تيكودو سنة ١٩٤٧ ومنع الاتصال به في السنة التالية.

ومن المهم أن نتذكر أن هؤلاء لم يكونوا يرون بأساً في التعاون مع الآخرين في الحقل السياسي ما دام القصد مقاومة الفرنسيين ثم الحصول على الاستقلال. ولذلك عمل هؤلاء مع حزب سياسي راديكالي هو «التجمع الديموقراطي الافريقي» وأيدوا سياسة هوفوي ـ بواني، رئيس التجمع، الذي أصبح بعد الاستقلال (١٩٦٠) أول رئيس لساحل العاج.

كان الاسلام اثناء ذلك يشق طريقه الى جنوب البلاد، قائمة الجهود في ذلك على أكتاف التاجر الديولا والمرابط/ المعلم. وكان لتساهل التجار، من حيث التعامل مع الوثنيين والاختلاط بهم، أكبر الاثر في جذب هؤلاء الى الاسلام. وقد قامت في البلاد فئة متشددة وحتى أصولية. لكن هذه الجماعة، لما وصل الامر الى القيام بنشر الوحدة في الرأي والعمل بين المسلمين، كانت عامل تقسيم وتفتيت.

ولنقف هنيهة هنا متأملين بضعة أمور تتعلق بموقف الاسلام من العلمانية، وذلك قبل ان ننتقل الى نيجيريا التي كان لها قصة خاصة مع انتشار الاسلام فيها خلال الفترة الاستعمارية والعقود التي تلت ذلك.

أول ما يستحق ان يذكر، هو ان الموقف من الثقافة الغربية كان سلبياً. وعلى ما أشرنا من قبل، فمثل هذا الموقف طبيعي. فقد حسب المسلمون ان تمسكهم بالاسلام والابتعاد عن هذا القادم من الخارج هو تحصين لهم، اذ إنه يمكنهم من الحفاظ على كيانهم. وينطبق هذا على مسلمي الداخل اكثر من انجراره على مسلمي المناطق الساحلية. اذ ان اولئك لم يكن لديهم سوى الاسلام حرزاً يحميهم. وقد زاد في تمسك هؤلاء بالاسلام المحافظ ان الدول المستعمرة جعلت المسلمين معزولين عن غيرهم فقوت شعورهم بأهمية الاسلام حمى لهم. ومع الزمن اصبح للاسلام قوة خاصة في مقاومة التأثير الاجنبي، الذي جاء على كل حال بحراً ومن ثم كان تأثيره في الوثنيين أكبر.

ولنذكّر أنفسنا انه كان من الطبيعي ان يكون تأثير الاسلام، حتى حيث وصلت العناصر الاجنبية الغربية، على مستويات متباينة. فالاسلام، في مناطق مختلفة من غرب افريقيا، ونحن نتحدث الآن عن فولتا العليا وساحل العاج ونيجيريا، كان تأثيره، ومن ثم تأثره، على مستويات ثلاثة: اولئك الذين آمنوا بالاسلام قبل قرون، وهم متفرقون لكنهم كونوا لهم فهماً خاصاً وصورة خاصة للاسلام على ما حمله اليهم الدعاة الاوائل. وكان المستوى الثاني يدور في فلك الذين قبلوا الاسلام خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثم يأتي المستوى الثالث ويمثله اولئك الذين قبلوا الاسلام خلال العقود الاخيرة (فترة الاستعمار) او الذين هاجروا من مناطق مسلمة، لكنهم بسبب هذه النقلة الى المناطق الحديثة العهد بالاسلام، اصبحوا جزءاً من كيانهم.

والذي نود أن نختتم به هذا الفصل هو ان الدول الافريقية ـ ولنقف عند غرب افريقيا ـ كانت دولاً لها حدود سياسية معينة وكيانات جغرافية محددة على الخارطة، لكن العناصر التي كانت تكونها كانت ـ وظلت ـ متعددة متباينة قبلية متناحرة. ومن هنا كان مجال قيام حرب داخلية متوفراً دائماً.

٩ ـ دين الغالبية

تحتل نيجيريا مكانة خاصة في دراسة انتشار الاسلام في غرب افريقيا، وذلك بسبب موقف امارات الحوسا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين من محاولة تزعم حركات الجهاد في سبيل أمرين: الاول إصلاح أحوال المسلمين بالقوة، بدل مجرد الدعوة الى الاصلاح بالكلمة والعمل. والثاني، نشر الاسلام بحد السيف، وهو أمر لم يكن مألوفاً في تاريخ انتشار الاسلام او نشره.

لم تؤد هذه المحاولة الى أي نجاح محسوس بالنسبة الى الامرين. ولنقتصر الآن على قضية انتشار او نشر الاسلام في نيجيريا. ففي شمال نيجيريا، وهي المنطقة التي كانت من قلاع الاسلام المهمة في غرب افريقيا، ظلت فيها اقليات وثنية متعددة وكبيرة العدد. ففي سنة ١٩٠٠ كانت جوس خالية من المسلمين. أما داس فقد كانت فيها «حفنة» من المسلمين. لكن ايام الاستعمار توسع الاسلام انتشاراً. ففي سنة ١٩٢٠ شكل المسلمون في امارة باوتشي ٥٠ في المئة من السكان. وارتفعت النسبة سنة ١٩٥٢ الى ٧٥ في المئة فيما نقص عدد السكان المسلمين في اداماوا في الفترة نفسها ٠,٧ في المئة.

والعوامل التي تحدثنا عنها من قبل هي التي أدت الى هذه النتيجة. فقد فتحت مجالات الاستفادة من التجارة أمام التجار المسلمين النشيطين. وكان هؤلاء فضلاً عن تحكمهم في التجارة سلعاً وأسواقاً ونقلاً، يسيطرون على الصناعات والفنون التقليدية، التي كانت مصدراً كبيراً للثروة يومها. وكان المسلمون هم الذين ينظمون الاسواق الكبيرة. والثروة التي كانت تجمع عن هذه الطرق اصبحت رمزاً اجتماعياً، لذلك اقبل الناس عليها. ولم يكن بالامكان الافادة من التجارة الواسعة المثمرة ما لم يكن المرء مسلماً.

ولنقدم مثلين من شمال نيجيريا يوضحان لنا هذا الذي رمينا اليه. الاول من داديا والثاني من بيم. فقد كانت داديا (في امارة باوتشي) خالية من المسلمين سنة ١٩٠٧. وفي تلك السنة هبط المكان تجار عاج من كانو. وبعد ان ابتاعوا حاجتهم من العاج ـ وهذه سلعة لا تباع ولا تشترى بين عشية وضحاها ـ نقلوا المتاع الى سوق تحت نفوذ تجار كانو المسلمين. ولما كان التجار المسلمون في داديا يصومون (اذا حل رمضان) ويصلون ويضحون (اذا حل عيد الاضحى)، فقد لفت هذا التصرف أهل داديا، وأعجب به البعض فقلد التجار. ومع الوقت أسلم هؤلاء، خصوصاً لما أدخل في

روع التجار المحليين ان التجار الكبار الاغنياء لن يسمحوا لهم بالممارسة التجارية الكاملة والاجتماع معاً ما لم يتحلوا بالفضائل التي يتطلبها الاسلام فأسلموا. وتبع ذلك فتح مدرسة قرآنية. وإذ دخل في روع القوم ان الاسلام هو طريق الجنة الوحيد أقبلوا على اعتناق الاسلام فرادى ومثنى وجماعات.

أما سكان بيم (في هضبة جوس) فقد تعرفوا إلى الاسلام عن طريق اتصالهم بإمارة باوتشي. فقد كان تجارها حملة السلع بين جوس وباوتشي. وكان تجار جوس يتعاملون بالرق في القرن التاسع عشر، لذلك كانوا يسوقون انعامهم الى مناطق الحصول على الرقيق مقابل انعامهم. وهذا كان يقتضي اقامة طويلة الى درجة انهم بنوا مسجداً في الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ومع ذلك فإن قليلين من تجار بيم أسلموا في القرن التاسع عشر. لكنهم عوضوا عن ذلك في القرن العشرين، اذ ان ٦٠ في المئة من السكان (في بيم) كانوا قد اعتنقوا الاسلام في سنة ١٩٦٠.

ويذكر أن سردونا سوكوتو، احمدو بلو، صاحب النفوذ الكبير في شمال نيجيريا، أراد ان يقيم توازناً مع التيجانية، التي نفخ في نارها ابراهيم نياس، فأخذ بيد القادرية، فأعاد لها مكانتها وزاد في نفوذها. وكان احمدو بلو يقوم برحلات في شمال نيجيريا يدعو فيها الناس الى اعتناق الاسلام، وكان يلقى آذاناً صاغية. وقد روي انه في رحلته (او رحلاته) سنة ١٩٦٤ حمل مئة ألف شخص في زاريا والنيجر على اعتناق الاسلام. واحمدو بلو كان شديد الحرص على نشر اللغة العربية عن طريق التعليم الاسلامي المدرسي وعن غير ذلك من الوسائل.

كان نظام التعليم الاسلامي يعطي ثماره في ما يتعلق بنشر تعاليم الاسلام واللغة العربية. لكن اولئك الذين يؤمّون هذه المدارس الاسلامية لم يكونوا مهيئين للعمل في المجالات الجديدة التي حملتها الحضارة الحديثة الغربية الى شمال نيجيريا وهي التصنيع والتحديث. هنا جاءت الحاجة الى اللغة الانكليزية والتعليم الحديث. واعتبرت الادارة البريطانية مقصرة في هذا المجال. ومن هنا قامت مدارس بعضها رسمي وبعضها خاص، عنيت بالعلوم الحديثة من أمور الحسابات والصناعات والعلوم الحديثة. وكانت هذه من الصرخات القوية في شمال نيجيريا لما أخذت الحركات الاستقلالية برقاب البلاد.

أما جنوب نيجيريا فقد غلبت عليه الوثنية، ولم يكن فيه سنة ١٩٢١ سوى ٥ في المئة من سكانه من المسلمين. وفي سنة ١٩٦٣ اصبح ٤٣ في المئة من سكان غرب نيجيريا مسلمين، و٤٤ في المئة من سكان مدينة لاغوس كذلك.

الاستقلال والاسلام

أدى استقلال نيجيريا الى نشاط كبير في الدور الذي يقوم به الاسلام في البلاد. ولنتذكر ان الطرق الصوفية لها دورها وأهميتها في هذا الامر، ولعل التيجانية (فرع

ابراهيم نياس) كانت الابعد انتشاراً والأقوى نفوذاً. وقد ازداد الاتصال بين نيجيريا وبلاد المغرب العربي والشرق الاوسط، وهذا بحد ذاته اكسب المسلمين في هذا البلد الافريقي شيئاً جديداً في تقوية الهوية الاسلامية. وثمة أمر آخر أدى الى ارتباط وصلات بالمسلمين عالمياً وهو الحج. فالذي عثرنا عليه هو ان ٢٤٨٣ حاجاً أدوا الفريضة سنة ١٩٥٦، فارتفع العدد الى ٤٩ ألفاً سنة ١٩٧٣. أما الذين قاموا باداء الفريضة سنة ١٩٧٧ فكانوا ١٠٦ آلاف. حتى ان حكومة نيجيريا وضعت قيداً لعدد الحجاج الذين يمكنهم ان يذهبوا الى مكة المكرمة بخمسين ألفاً. ولعله من الطريف أن حكومة نيجيريا وضعت شرطاً هو أن يجتاز الراغب في الحج امتحاناً في الشؤون الاسلامية، فإذا قصر منع من الحج. كما منعت النساء الحوامل والمتقدمين في السن إن لم يكن معهم معين، والاولاد دون الخامسة عشرة.

وقامت في نيجيريا مؤسستان اسلاميتان كان لهما دور في القضايا الرئيسة من الزاوية الدينية: الاولى المجلس الاسلامي في نيجيريا ، الذي ظهر الى الوجود سنة ١٩٧٣. ونوقشت فيه القضايا والمشاكل السياسية، من وجهة النظر الاسلامية، مناقشة عامة على أساس البلاد بكاملها، أي على المستوى الفيديرالي. فيه أبدى المسلمون رأيهم في الدستور (دستور الجمهورية الثانية) عندما كان يبحث بين ١٩٧٦ و١٩٧٩، بمنتهى الوضوح. بمعنى انهم تعرضوا للحقوق وللقوانين ولمكانة الشريعة في بلد فيه هذه النسبة المرتفعة من المسلمين ولحق المرأة في الانتخاب والتقدم للترشيح للمجلس، وقد نالت المرأة النيجيرية حق الانتخاب سنة ١٩٧٦.

والمؤسسة الثانية جامعة نصر الاسلام التي تأسست سنة ١٩٦١، وكان مولدها في مدينة كادونة (وفي الولاية المسماة بالاسم نفسه) وهي جمعية تعنى بالتربية والتعليم ونشر الدين، وعندها كليات لتدريب المعلمين والدعاة، ولها مدارس للتعليم. وقد انشئت لجامعة نصر الاسلام فروع في لاغوس وبنين وبور هاركور وغيرها من المدن الكبرى.

وما دمنا قد اشرنا الى حصول المرأة النيجيرية على حق الانتخاب، فلنشر الى شيء يتعلق بتعليم البنات. فقد كان الشمال لا يؤمن بتعليم البنات بعد الثانية عشرة من اعمارهن، ويكتفي بان يتعلمن أمور الدين وشؤون المنزل وكان عليهن أن يلتحفن بالبوردة (الحجاب). ومع ذلك فقد كان عددهن صغيراً حتى سنة ١٩٧٦.

أما الجنوب الذي تعرض للأثر الاوروبي في وقت مبكر، فقد كان الوضع فيه يختلف. ففي سنة ١٩٣٨ كانت مدارس الجنوب فيها ٥٣ ألف بنت، كانت بينهن أقلية لا يستهان بها من البنات المسلمات. وسنة ١٩٤٠ بدأت البنات بدخول مجالات التعليم العالي في الطب والقانون والتربية.

والشمال الآن - أي منذ ١٩٧٦ - يحاول اللحاق بالجنوب. لكن لا تزال هناك

صعوبات. ونيجيريا بحكم اتساعها وعدد سكانها الكبير (نحو ٨٥ مليوناً الآن) وتنوع عنصرها وعروقها وقيام حركة الجهاد العارمة فيها في القرن التاسع عشر، قامت فيها جمعيات كثيرة خصوصاً في القرن العشرين، وبعضها كان انشاؤها مرتبطاً بقيام الاحزاب السياسية التي قامت تطالب بالاستقلال. وهذه الجمعيات تختلف عن المؤسستين اللتين تحدثنا عنهما قبلاً في انها، في غالبها، محدودة المكان، اي انها لا تعمل على المستوى الفيديرالي.

من هذه إغباكلا (في لاغوس) وهي جمعية تتبنى الآراء الجديدة وترى الى وجوب التمازج بين الثقافة الاوروبية والثقافة الاسلامية. وقد فتح في لاغوس فرع للأحمدية (١٩١١) وهي جمعية هندية الاصل انشأها غلام احمد في ثمانينات القرن التاسع عشر، على ان دورها محدود، ولم تلق الترحيب الكبير. وفي سنة ١٩٢٣ انشئت جمعية «انصار الدين»، وقد بلغ عدد اعضائها خمسين ألفاً سنة ١٩٦٠. هذه جمعية محافظة في نظرتها الى المجتمع والحياة الاجتماعية. ولها كليات لتدريب المعلمين وعدد كبير من المدارس الثانوية ونحو مئتي مدرسة ابتدائية. وعندنا الجمعية الاسلامية لنيجيريا وجمعية «نواير الدين» وجمعية «الصداقة الاسلامية» في إيجيبو. ولكلٍ مدارسها ومؤسساتها وحتى مطابعها. ومن أهم الجمعيات تلك التي انشأتها الحاجة هومانا الاغا سنة ١٩٥٠ واسمها جمعية «عصبة الدين» واهتمامها الاساسي هو المرأة النيجيرية المسلمة.

السنغال

قدّر عدد سكان السنغال سنة ١٩٦٠ بنحو خمسة ملايين نسمة، الاكثرية الساحقة منهم مسلمون. وقد ادعت التيجانية (فرع ابراهيم نياس) مليونين أتباعاً لها، واكتفت المريدية بمليون ونصف المليون. وقدر الوثنيون بنحو ثلاثة أرباع المليون. والظاهرة الرئيسة في حياة مسلمي السنغال انهم نظموا أمورهم بعد الاستقلال، وانصرفوا الى تحسين أوضاعهم. وقد ازداد اقبالهم على الحج. ومما ساعد السنغال على التقدم في الشؤون التعليمية والامور الاقتصادية المعونات التي حصلت عليها البلاد من دول الخليج المسلمة.

أشرنا من قبل الى الجماعة الاسلامية في فولتا العليا (بركينا فاسو) التي انشئت في وغادوغو أولا (١٩٥٨) ثم أصبحت للبلاد بأجمعها (١٩٦٠). وقد نشطت هذه الجمعية منذ الاستقلال وأصبح لها ٨٣ فرعاً، وبنت او رممت او وسعت ٧٧١ مسجداً وفتحت ١١ مدرسة قرآنية ولا تزال تشرف عليها وتحسنها.

وقدّر عدد الذين اعتنقوا الاسلام في السنوات الاولى التي تلت الاستقلال بنحو ١١ ألف شخص. ولغة التعليم في هذه المدارس هي العربية، وهي لغة الثقافة.

غرب افريقيا

الرقعة التي تحدثنا عنها في هذه المقالات واسعة، متباينة الاوضاع الجغرافية أرضاً وبحراً وجواً وغابات ومستنقعات، متنوعة العناصر البشرية، ولو انها افريقية في ارومتها وفي تطورها وفي تنقلها، الا انها قبائل وعشائر، ولها لغات مختلفة ولهجات متعددة. ومع اننا نشير الى أديان السكان الاصليين بالوثنية، فالواقع انها وثنيات. وجماع هذا أضاف التاريخ اليه تنقلات لهذه الشعوب من مكان الى آخر لأسباب مختلفة، لعلّ القارىء الكريم تنبّه اليها اثناء قراءته هذه الصفحات، وجذب المكان والزمان أناساً من خارج المنطقة حملوا الى سكانها تجارات ونقلوا منها تجارات، وتركوا بين ابنائها آراء وقصصاً وديانات وأخذوا من ابنائها آراء وقصصاً وديانات.

كان من بين ماحمل اليها الاسلام والمسيحية، والاسلام أعتق قدوماً (اذ يعود الى القرن التاسع عشر او الثامن الميلادي) والمسيحية وصلت في القرن التاسع عشر. وبحكم الزمن تجذر الاسلام وأصبح ديناً افريقياً، وصار معلمه وخطيبه وواعظه وشيخه ورئيس رباطه وشيخ طريقته من ابناء البلاد. وكان ان انتشر الاسلام انتشاراً واسعاً. وحصل الافارقة مع الاسلام من حيث انه دين، على لغة هي العربية، وثقافة هي نتيجة التفاعل بين الاسلام وبين عبقرية العربية.

وجاءت اوروبا متاجرة حتى بالبشر، مستعمرة، قاهرة، فلم تثر في نفوس القوم، على العموم، إلا رد فعل فيه خوف وابتعاد. ولما أتيح للبعض من الافارقة ان يجدوا في الحضارة الاوروبية الكثير مما يفيد، ظلوا، في حالات كثيرة، يربطون بين القوة والاستعمار وهذه الحضارة.

واستقلت دول غرب افريقيا، على ما مرّ بنا، ولو باختصار كلي، واستمر انتشار الاسلام، الذي تسارع في أيام الاستعمار، على نشاطه وتسارعه. وأصبح الآن زمام هذه الدول بأيديها (بقدر ما يصح هذا بالنسبة لأي دولة صغيرة). ومن هنا، فقضاياها التي حملها اليها التاريخ، ووطدتها فيها الجغرافيا، وحصنها الشعور الداخلي النفسي، وقوّاها الحرص على هذا الذي امتلكته. وهذه القضايا لا تزال تشغل بال الناس كما تشغل بال كل بلد فيه لدول غرب افريقيا.

فهناك، في بركينا فاسو (فولتا العليا) وشمال نيجيريا على سبيل المثال، شعور قوي، يتمثل بالأدب الديني وغيره، بوجوب النظرة الى الداخل وبالتخوف من هذا الذي نقل اليها من البحر، والذي يتخذ، للتعبير عن نفسه، لغة هي بعيدة عن العربية ـ لغة الاسلام. ونحن، يقول هؤلاء، يكفينا ما عندنا ـ الاسلام والعربية ولغتنا القبلية للتخاطب. لكن نجد ان نيجيريا مثلاً مع اهتمامها بالعربية حتى الآن، اتخذت الحوسا لغة للثقافة والحكم، واستعملت الحرف اللاتيني. هل هناك مشكلة؟ نعم، لكنها محدودة، ولعلها لا تتجاوز عدم الرضى عن الخطوة الاخيرة في نيجيريا.

ويشغل السنغال أمر مهم. وقد شغل الامر غير السنغال وخارج غرب افريقيا: وهو هل يتخذ السنغال من الشريعة الغراء اساساً للحكم؟ نيجيريا اقامت محاكم شرعية (او على الاصح أتمت العملية التي بدأت قبل الاستقلال) ثم توجتها بإنشاء محكمة استئناف شرعية فيديرالية (والشريعة هناك تطبق على المسلمين). لكن المشكلة كما يراها السنغاليون مختلفة.

وبقطع النظر عن مدى تطبيق الاحكام الشرعية بالنسبة لأي من هذه الدول. فالسؤال الذي يُطْرَحُ دوماً، هو ما مدى الاستفادة من هذه القوانين في وضع الدساتير؟ وسيظل السؤال مطروحاً، في غرب افريقيا وغيرها.

الواقع هو ان الحركات الاسلامية المعاصرة في تلك البلاد هي، من حيث الجوهر والأساس، حركات احيائية. انها ترمي في الاصل الى الكشف عن الجوهر في الاسلام، بعد تنقيته مما علق به، والاهتداء بهديه. وهنا يختلف المصلحون والمحيون في تفسير الاصلاح والإحياء والاصل والجوهر وما علق بهذين. وفي الكثير مما كتب، بالعربية وبغيرها، (وأقصد الكتابات التي وضعها مسلمون)، اعادة وتكرار يعودان الى القدامي، ولن أعدد هنا ولن أمثل، فهم كثير. لكن هناك كتابات فيها خير كثير. وهذه حرية بأن يُنبَش عنها ويُعرّف بها.

في كثير من أنحاء العالم في هذه الايام دعوة حارة شديدة عنيفة الى وجوب إحياء التراث. ويختلف الباحثون وغيرهم في معنى التراث. وكتّاب غرب افريقيا لا يختلفون عن غيرهم، فهم ابناء بيئة خاصة بهم. وهنا يحار هؤلاء القوم، وبعضهم من الكتاب المسلمين، ما الذي يفعلونه بهذا التراث الضخم.

زرت نيجيريا مرتين، وقضيت في الاولى ستة اسابيع وفي الثانية اسبوعين في الجزء الشمالي منها، وهو الجزء الاسلامي. فقد كانت اقامتي في كانو وزاريا وتنقلت مع اصدقاء في المنطقة. تحدثت الى زملاء مسلمين ومسيحيين ووثنيين في جامعات نيجيرية. وقد شعرت بأن النيجيري، مهما كان دينه، يحس في اعماق قلبه بأنه ابن لهذه البيئة ووريث لهذا الجو. ولعل المسلم او المسيحي عندما تتمثل له صورة قادمة من قلب الزمان والمكان القريبين اليه والبعيدين عنه، يتمتم صلاة ليقصي هذه الصورة عنه. هذه الصلاة هي التي تحصنه ـ لأنها نابعة من ايمانه ـ ضد هذه الاشياء المؤذية.

لكن هل تقضي هذه الصلاة على الصورة؟ ألا تعود اليه؟

وكتّاب نيجيريا ـ (وأنا أشير اليهم لأنهم يكتبون بالانكليزية) ـ وقد قرأت لهم كثيراً من كتب الادب، خصوصاً وأنا في بلادهم، لا بد لهم ان يرددوا صدى الاصوات البعيدة وهم يحيون تراثهم. لكن تلك الاصوات ليست الوحيدة. فهناك أصوات أحدث عهداً، ومع ذلك فهي قوية شديدة الاثر.

فإحياء التراث مشكلة أيضاً. وهو عقدة حيثما وجد.

القسم الثالث

الاتحاد السوفياتي
بالجملة والمفرق

١ ـ دوقية موسكو: من روح الشرق إلى ثقافة الغرب

الاتحاد السوفياتي هو الاسم المختصر للاسم الكامل وهو «اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية»، وعدد هذه الجمهوريات [بقطع النظر عن اعلان بعضها استقلالها] هو خمس عشرة (وسنتحدث عنها بشيء من التوسع فيما بعد).

النواة التي نشأت حولها روسيا المقدسة والقيصرية ثم الاتحاد السوفياتي هي دوقية موسكو، وكان قيامها في القرن الرابع عشر للميلاد.

ثمة أمور يجب ان تذكر في سبيل توضيح بضع قضايا ستواجهنا في هذا الحديث. وأول ما يجب ان نذكره هو ان المنطقة التي شغلتها روسيا فيما بعد قبلت المسيحية عن طريق أباطرة القسطنطينية في القرنين الثامن والتاسع، على نحو ما تم الامر عليه بالنسبة للسلاف الشرقيين. لذلك كانت المطرانية القائمة في أراض روسية تابعة للكنيسة الارثوذكسية. ومن هنا كانت لغة الثقافة ـ كما كانت لغة الدين ـ هي اليونانية، وكان التوجه لاستيحاء الدين والفكر والثقافة والفن نحو القسطنطينية. وحتى تجار البندقية، الذين كانت لهم في القرن الثاني عشر جاليات كبيرة في القسطنطينية وفي أزوف (على البحر الاسود) كانوا يتصلون بدوقية موسكو باللغة اليونانية.

ومع ان مطرانية الروس كانت أصلاً في كييف، فقد نقلت الى موسكو سنة ١٣٢٦. وكان هذا ايذاناً بأن تصبح هذه عاصمة لدويلة هي التي نسميها، في هذه الفترة، دوقية موسكو. ولا شك في ان موقع موسكو كان سبباً أساسياً في اتخاذ هذه الخطوة. فهي تصل الشرق بالغرب (نوفغورود برايازان) والشمال بالجنوب (فولغا واوكا). ثم ان اتخاذ موسكو عاصمة لهذه الامارة يسر للروس الانتقال شمالاً فاتخذوا لهم ميادين جديدة للزراعة والرعاية والتوسع.

تولى دوقية موسكو ايفان الكبير (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥) الذي ضم المناطق الشمالية من روسيا الى الدوقية فدفع بذلك حدودها الى المناطق المتجمدة. وعني بتأمين الطرق فشجع التجار على التنقل في بلاده، الأمر الذي زاد في ثروة الدوقية. وأوصل حدود الدوقية الشرقية الى جبال أورال.

وفي سنة ١٤٧٢ تزوج ايفان اميرة بزنطية هي «زوي» (وهي ابنة أخي آخر امبراطور بزنطي)، التي حملت معها، كما استدعت فيما بعد، مئات من القسيسين

والرهبان والفنانين والبنّائين والأدباء والعلماء من القسطنطينية وغيرها من مدن الامبراطورية، وحتى من روما وفلورنسا وغيرهما من مدن ايطاليا. وبذلك أتيح لإيفان وزوجته (التي لقبت صوفيا) تجميل موسكو بالأبنية الفخمة الجميلة. وبدىء في ذلك الوقت ببناء الكثير من القصور والكنائس في منطقة الكرملين.

فضلاً عن هذا التقدم المادي والفني، فقد أطلق على موسكو الدولة الارثوذكسية الوحيدة (فقد كانت القسطنطينية قد احتلها الاتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣) والمرجع الأساسي للكنيسة الارثوذكسية، ومجمع الأديان؛ واعتبر أمير الدوقية خليفة الامبراطور البزنطي والقيصر الروماني. وكان هذا كله له من يتحدث عنه ويكتب فيه، وخصوصاً رجال الدين الذين أعجبهم ان يصبحوا أصحاب وأهل الكنيسة الارثوذكسية الأولى في العالم.

شهد القرن السادس عشر تطوراً متنوع الاتجاهات في دوقية موسكو. وقد كان ايفان الرهيب (١٥٣٣ ـ ١٥٨٤) هو الشخصية الاولى في هذا القرن. تولى الامارة وهو في الثالثة من عمره، لكن لما توّج سنة ١٥٤٧ أصرّ على ان يستعمل له لقب قيصر، تشبهاً بقياصرة الرومان والبزنطيين وتيمناً بهم. ومن ذلك الوقت أصبح لقب الحاكم لهذه الدوقية الدائمة الاتساع القيصر، وظل هذا هو المستعمل حتى سنة ١٩١٦، لما اعتزل نقولا الثاني العرش.

على ان ايفان الرهيب لم يكتف باللقب وبمعناه الدنيوي الاوتوقراطي، بل أضاف اليه اعتباره نفسه وكيلاً لله على الأرض، وسيد الكنيسة. والشيء الوحيد، من حيث مظاهر العظمة ومعانيها، الذي فات ايفان أمره هو ان يجعل من مطران الكنيسة الارثوذكسية الروسية بطريركا ـ فقد كان هذا من حصة ابنه فيودور، اذ رفع رئيس الكنيسة الى هذه المرتبة سنة ١٥٨٩. ولم تكن هذه الاشياء كلها مجرد القاب. فقد حرص كل قيصر روسي، منذ ذلك الوقت، على ان يعيش ويتصرف ويحكم بموجب هذه الأسس. وكان ذلك في نظر القياصرة أمراً طبيعياً.

احتل ايفان الرهيب قازان (١٥٥٢) واستراخان (١٥٥٦) ونوفغورود (١٥٧٠). وبذلك أوصل الحدود الروسية عبر جبال اورال الى بحر قزوين. وكان معنى هذه الفتوحات هو الاتصال التجاري المباشر مع فارس وأواسط اسيا من جهة ،وشمال شرق روسيا من جهة أخرى. وجاءت موسكو بعثة تجارية انكليزية بقيادة ريتشارد تشانسلور (١٥٥٣) وبذلك فتحت نافذة على التجارة الانكليزية عبر اركانجل (على البحر الابيض الشمالي). وفتح الاتفاق التجاري الذي تم يومها الأسواق الروسية أمام التجار الانكليز، كما أنه أدى أيضاً الى اتصال ثقافي مع انكلترا، وكان ايفان نفسه ممن عني به شخصياً.

مرّت بموسكو ـ المدينة والدولة ـ في القرن السادس عشر تجارب ومغامرات

وتطورات. فقد أنشئت في العاصمة أول مطبعة (١٥٦٣) ونشر أول كتاب مطبوع فيها في اليوم الاول من شهر آذار (مارس) (شرقي طبعاً) سنة ١٥٦٤. وصرفت مبالغ طائلة على زخرفة العاصمة وتوسيع مناطق الكرملين، بإضافة قصور وكنائس جديدة.

لكن أهم ما تم في ذلك القرن من الناحية الادبية هو وضع تاريخ لروسيا على نحو تظهر فيه البلاد على أنها روسيا المقدسة (وقد لصق بها هذا اللقب مدة طويلة)، وروسيا البطولة والتقدم والارثوذكسية الحق وبلد الايمان الصحيح. وهذا الكتاب التاريخي كان في عدد كبير من المجلدات.

وهكذا، فعلى يد ايفان الرهيب الذي لم يتورع عن استعمال جميع وسائل القتل والتقتيل والتعذيب، بما في ذلك الحرق والتقطيع للقضاء على خصومه، وهم بخاصة من النبلاء الذين كانوا يتمتعون بمراكز مهمة ونفوذ قوي، والذي عمل على نقل مئات الألوف من السكان من مكان الى آخر ـ على يد هذا الرجل ـ عرفت روسيا نهضة ادبية فنية واقتصادية وكان هو نفسه محباً للقراءة ومتابعة الروايات التاريخية متابعة جدية عميقة.

روسيا المقدّسة

تقهقرت بعد فترة أمور روسيا المقدسة عسكرياً وتجارياً. فاحتل البولونيون موسكو، وتعددت الاغتيالات والاعدامات والتحالفات الضارة بالبلد، وتعطلت التجارة، واعتلى عرش موسكو قيصر من عائلة رومانوف سنة ١٦١٣ وهي الأسرة المالكة القيصرية التي ظلت على العرش حتى ثورة ١٩١٧.

ويمثل القرن السابع عشر، بالنسبة لروسيا والروس، تطورات وتبدلات كثيرة في المجتمع والفن والفكر والسياسة والكنيسة.

ورث القرن السابع عشر عن سابقه اتجاه الروسيا شرقاً، وتأثر المجتمع الروسي الارستقراطي بما ألفه الشرق من مثل فصل السيدات عن الرجال، واستعمال بعض السيدات البرقع، وأرخى الرجال العنان للحى، وتزيوا بالثياب الشرقية. وكان البلاط الرسمي والقصور التي تقلده يتسلى بمشاهدة الأقزام والقرود في الحركات المضحكة. وزخرت الأسواق الروسية بما تنتجه البلاد الشرقية من بزورات وتوابل وأفاويه وسراويل وثياب وفواكه ومسكرات.

لكن روسيا، رغم ان الاتصال بالغرب كان صعباً، أطلّت عليها أشعة من الغرب. فقد كان العنصر الروسي مستعداً لتقبل ما يصل اليه عبر العناصر الأثنية القريبة منه: مثال ذلك بولونيا وأوكرانيا. وأكبر أثر جاء عن هذا الطريق كان ما أصاب الكنيسة. فقد أنشئت في موسكو سنة ١٧٨٥ اكاديمية على غرار ما كان معروفاً في الغرب، وكانت تعلم اليونانية واللاتينية، أي الفكر الكلاسيكي.

ويلاحظ الدارسون تبدلاً في الفن والأدب والموسيقى، بحيث قام، الى جانب

الفنون القديمة، فنون جديدة فيها مسحة قوية من الغرب، متأثرة بفنون النهضة بشكل خاص. وهنا أخذ الفنانون يخرجون تدريجاً عن القيود الكنسية التقليدية في رسم الايقونات وتلوينها وزخرفتها. وكثر عدد الغربيين في موسكو في القرن السابع عشر بحيث أنه كان لهم ضاحية Sloboda اسمها الضاحية الالمانية. ولم يكن سكان هذه الضاحية فقط من الالمان عنصراً، لكن الروس درجوا، يومها على استعمال كلمة المان لكل من جاء من شمال غرب اوروبا ـ فالالمان والاسكندنافيون والانكليز ومن لف لفهم سموا الالمان. وكانت الحرية الدينية مما تمتع به الجميع هناك، فكان لكل طائفة راعيها الا اللاتين فلم يسمح لهم بأن يكون لهم راعي طائفة. أما السكان فكانوا، في غالبيتهم، خبراء في الفنون العسكرية والهندسية والتعليم.

وعلى نحو ما بدأ القرن السابع عشر والمجتمع الموسكوفي خصوصاً شرقياً في غالبية نبلائه، انتهى القرن نفسه وقد أخذ هذا المجتمع يلبس الثوب الغربي، ودخلت السيدة مجتمع الرجال، وقبل الارستقراطيون أساليب الغرب وآدابه في المأكل والتصرف.

وعندما ندخل في صميم المجتمع النافذ، بما في ذلك القيصر وحاشيته، نقع على أمور في روسيا المقدسة (سنجدها فيما بعد في روسيا السوفياتية) كانت ذات أهمية كبرى في نمو البلاد وتطورها. وأهم هذه هي: (١) اقامة الدولة الاوتوقراطية ذات النفوذ الذي لا يقاوم لأن الذي يفعل ذلك يعاقب فوراً وبقسوة. (٢) ان الجيش، سواء أكان وطنياً أم كان مكوناً من المرتزقة في بعضه أو أكثره، انما وجد لتقوية نظام الحكم وحمايته. فهو لذلك يستخدم في فرض السلطة الملكية ومعاقبة العاصين. وهذه الصلة القوية بين الدولة كنظام حكم والجيش، لم تكن دائماً في مصلحة البلاد. (٣) قامت مع أسرة رومانوف طبقة جديدة من الارستقراطية كانت تدين للأسرة بكل ما نالته. هذه كانت طبقة الارستقراطية الوظيفية، لذلك فقد كانت خاضعة لنفوذ الأسرة تماماً، وكانت يدها اليمنى في جمع الضرائب ـ وأكثرها كانت تجبى من الفلاحين ـ ووضع الفلاحين في مرتبة الاقنان القديمة.

من أهم ما حدث في القرن السابع عشر هو اخضاع الكنيسة في روسيا للدولة ذلك بأن موجة اصلاح دخلت البطريركية في موسكو لكن المحافظين لم يقبلوا بها. ومع ان المجلس الكنسي أقر الاصلاحات، فإن تنفيذها لم يتم (إلا في نطاق ضيق) لأن المحافظين استنجدوا بالدولة فأنجدتهم بالقوة. وعندها أصبحت الكنيسة على حد تعبير أرثر فويس: «لا تزيد عن كونها ادارة من ادارات الدولة». وبهذه المناسبة لم ينتخب بطريرك للكرسي الروسي بعد سنة ١٧٠٠. وكانت شؤون الكنيسة يديرها المجلس الذي كان يرأسه رجل علماني.

فإذا جمعنا بين نظرة القياصرة الروس، بدءاً من القرن السادس عشر، الى أنهم

وكلاء لله على الارض، وما آل اليه الأمر عملياً، أدركنا كيف استغل القياصرة الكنيسة لمصلحتهم. وكانت الكنيسة عوناً للقيصر في تسلّطه على الفلاحين.

حريٌّ بالذكر ان الروس كانوا على غاية النشاط في التوسع شرقاً في شمال. فقد اتجهوا، في أواسط القرن السابع عشر، الى انشاء مدن أصبحت مراكز للتقدم في سيبيريا وهي تومسك وتوبولسك واركتسك وياكتسك. ومعنى هذا ان الروس انتشروا عبر ٨٠٠٠ كيلومتر شرقاً في سيبيريا.

وهكذا فقد تنوع النشاط الروسي، فهو بنّاء عند الشعب عندما يترك لشأنه، وهو اوتوقراطي نفعي عندما تكون السلطة في يد القيصر وزبانيته. وهذا كان يحدث كثيراً.

٢ ـ بطرس الاكبر: عسكرة وحضارة غربية

النافذة الصغيرة التي دخل منها شعاع من الغرب على روسيا في القرن السادس عشر اتسعت بحيث اصبحت بوابة واسعة أيام بطرس الأول (الأكبر) الذي حكم روسيا بين سنتي ١٦٨٢ و١٧٢٥. ان روسيا تمغربت (تأوربت) في أيامه على نطاق واسع.

كانت الضاحية الالمانية في موسكو المكان الاول الذي اتصل به بطرس، وهو بعد صبي، بالعناصر الغربية. وكان الدرس الثاني قد تعلمه في اركانجل حيث كان يقضي وقتاً طويلاً يتحدث فيه الى البحارة والتجار الاجانب ويتعلم شؤون السفن والبحر. وانتقل بعد ذلك الى الغرب ـ الى اوروبة الغربية ـ حيث قضى سنة وبعض السنة (١٦٩٧ ـ ١٦٩٨) خصوصاً في انكلترا وهولندا. ويرى الباحثون ان هذه الزيارة كشفت له تأخر بلاده وضعفها أكثر من أي شيء آخر. وكان بطرس يجيد الاعمال الميكانيكية كما كان سريع الادراك لأهمية التنظيم في الأعمال، وقد عمل نجاراً في مصنع للسفن في امستردام. وأثناء زيارته للغرب كان يزور المصانع والمناجم والمكاتب التجارية ومعارض الفن والمتاحف والمستشفيات والقلاع والحصون. وكان يدير الحديث مع رجال السياسة والأعمال حول ادخال النظم الحديثة الى بلاده. ولأنه لم يحط نفسه بهالة من الرسميات، على ما يفعل الملوك في زياراتهم، فقد اختلط بجميع طبقات الناس ـ مع رجال السياسة والعمال والتقنيين ـ ويسر له ذلك لباسه البسيط ومزاجه الذي مكنه من الحديث الجدي والمزاح مع الذين كان يتصل بهم. وكان بطرس يقوم بعمله كله على درجة كبيرة من الحيوية والنشاط، وكان يختزن جميع هذه التجارب في ذهنه وضميره. ولما عاد الى بلاده كان قد تعاقد مع نحو ألف خبير للعمل في روسيا، وجاءت بعد ذلك اعداد أكبر.

ما هي الغاية التي كان يرمي اليها بطرس من فتح أبواب بلاده للغرب ـ لأوروبة؟ هل كان يعنى بالمدنية الغربية من حيث أسسها الفكرية ونظرتها الاجتماعية ونظمها السياسية؟ يبدو ان كل ما جاء مع تمغرب روسيا من هذه الامور انما كان هامشياً.

بطرس كان يريد ان يكون له ـ قبل كل شيء جيش قوي منظم يمكنه ان يحمي روسيا من اعتداءات الدول الغربية المتكررة على بلاده وخصوصاً من بولندا والسويد، وكذلك من الهجوم العثماني الذي كان يتكرر بين حين وآخر. وكان لبطرس غاية أخرى رمى اليها من تقوية الجيش وهي ان يكون وسيلة قوية له كي يحكم روسيا ويقضي

على ثورات الامراء على اختلاف مناطقهم. وهو عندما يضمن حماية ظهره داخلاً وخارجاً يمكنه ان يتوجه بجيشه نحو التوسع لتحقيق غايتين: الاولى، الاستيلاء على منفذ بحري في الشمال (الغربي) والثانية، احتلال ميناء دافىء المياه على البحر الاسود على الأقل.

كان بطرس، حتى قبل زيارته لأوروبة، قد أوقف بولندا عند حدها، وبذلك أمن شرها نسبياً. وكان قد استولى على ازوف في الجنوب، لكنها لم تكن ميناء على البحر الاسود مباشرة (١٦٩٦).

ولكن جيشه انكسر أمام السويد سنة ١٧٠٠، وهذا أقنعه أكثر من ذي قبل، بوجوب تجديد جيشه وتقويته. وتم له ذلك. فبعد تسع سنوات انتصر على السويد في معركة بولتافا (١٧٠٩) واستمر القتال بين الفريقين سجالاً حتى تمكن من الحصول على منفذ على بحر البلطيق (١٧٢١)، وذلك لما عقدت معاهدة نيشتادت بين الفريقين. ونتيجة للتنظيم الذي أدخله بطرس على جيشه وللحروب التي خاضها وانتصر فيها، انتقل الجيش الروسي من مقاتلة آسيوية قبلية الى جيش محترف مثل الذي كانت تملكه السويد وبروسيا وفرنسا. فضلاً عن ذلك فإن هواية الجيش السابق القديم، وهو مكون من فريق من النبلاء وفرسان موسكوفيين (استرلتزي)، ان يكون له دور فعال في سياسة البلاد، ولو انها سياسة لم تكن لها أطر معينة. وهنا أنشأ بطرس الاكبر جيشاً نظامياً جديداً في تكوينه. فقد كان الجنود يؤخذون على أساس المناطق الادارية، ويدربون تدريباً جدياً على أيدي ضباط من اوروبا، ويعطون أسلحة جديدة ومنها المدافع. وبهذا الجيش حكم روسيا حكماً فيه الكثير من الحديد والنار.

أراد بطرس أن يتخلى عن روسيا القديمة. فكثيراً ما كان يتعرض لما اعتبر أساساً للتقاليد، فيوقفه ويبدله. فأجبر الفئات المتقدمة اجتماعياً على ارسال الأولاد الى المدارس (وكان هذا يعتبر أمراً لا يليق بهذه الفئات قبلاً)، وأرسل الكثيرين الى الغرب للدراسة وبسّط الالفباء الروسية، وحرر أول جريدة روسية حديثة وأجبر الناس على اتباع الآداب الجديدة في المآدب والحفلات، وأدخل النساء جماعات الرجال ومنتدياتهم، ومنع اطلاق اللحى. وباختصار فقد كان في عمل بطرس ثورة اجتماعية.

والموقف الجديد من الكنيسة الذي بدأ في القرن السابق قوّاه بطرس الى حد أنه اعتبر الكنيسة جزءاً من ادارته للدولة واستخدمها لتقوية نفوذه على الاقنان. وقد أصبح الاقنان في روسيا أيام بطرس (وبعض خلفائه) لا يختلفون أبداً عن الرقيق في أي مكان في العالم، معاملة وإهدار حقوق.

وقوى في روسيا الادارة الجديدة وقوامها ارستقراطية الوظيفة. فرفع الوضيع، ووضع الرفيع، واستخدم الجميع، وهكذا فقد ظل الشعب الروسي، وهم الفلاحون في كثرتهم، مستعبداً مستغلاً لا دور له في حياة البلاد سوى زرع الارض واستغلالها.

أنشأ بطرس اكاديمية للعلوم، وأقام مجلس شيوخ، فكانت الاولى نافعة في المستقبل، أما الثاني فكان صورة. ولعل من أهم ما تم على يد بطرس انه أنشأ مدينة سن بطرسبورغ على خليج فنلندا واتخذها عاصمة للدولة. وكان القصد منها الاشارة الى التبديل الذي أراده بطرس، بحيث تكون عاصمته ممثلة لآرائه وطموحه. اتخذها مقراً لدواوين الدولة وفرض على النبلاء ان يبنوا لأنفسهم بيوتاً فيها، وشجع التجار الأجانب على الاقامة هناك، وكان تشجيعه لمهرة الصناع أكبر.

ولم تلبث سن بطرسبورغ ان اتخذت مكانتها كواحدة من المدن الطليعية في شمال اوروبة. فموسكو كانت تتجه نحو آسية وكانت تمثل الماضي، ومن ثم معقل المقاومة لآرائه الجديدة ـ للتمغرب، (وقد أطلق على سن بطرسبورغ اسم بتروغراد في الحرب العالمية الاولى ولينينغراد فيما بعد).

الاستبداد المستنير

تمثل كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) الحاكم المستبد المستنير في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ولم تكن هي تختلف عن غيرها من المستبدين المستنيرين الذين عاصروها، إلا في انها كانت المانية تحكم روسيا ومغتصبة للعرش بعد قتل زوجها. لكنها كانت قوية الارادة والشكيمة والتفكير، وقد كانت كثيرة القراءة. ومع انها أحكمت صلاتها بالمفكرين الفرنسيين، فإنها كانت تفيد منهم للدعاية لنفسها. لذلك فيما كانت ترى من الخارج انها تحمل مشعال المدنية لشعب متأخر، كانت روسيا تعاني الشرور والآلام نفسها التي عرفتها أيام بطرس الاكبر، والتي ستعرفها أيام خلفاء كاترين.

الشعب ظل يرسف في اغلال العبودية فعلاً، وليس أدل على ذلك من الاعلان الذي نشر في موسكو غازيت وترجمته: «للبيع: سائقان (للعربة)، بنتان الواحدة في الثامنة عشرة والثانية في الخامسة عشرة، وهما ماهرتان في الأعمال اليدوية. وحلاقان الواحد في سن الواحد والعشرين، يعرف القراءة والكتابة ويلعب آلة موسيقية، والثاني يقص شعر النساء والرجال».

على ان كاترين تعتبر من بناة روسيا توسعياً. ولعل ما تم على يديها يمكن تلخيصه فيما يلي:

(١) تقسيم بولندا ثلاث مرات بينها وبين بروسيا واستريا (النمسا) بحيث زالت بولندا من الوجود نهائياً سنة ١٧٩٥.

(٢) عقدت مع تركيا معاهدة كوتشك كنارجي (بعد حرب طويلة انتهت سنة ١٧٧٤) وبموجبها ضم الساحل الشمالي للبحر الاسود الى روسيا، وبنت مدينة اودسا على البحر الاسود.

ولعل خير وصف للوضع الذي آلت اليه روسيا في نهاية القرن الثامن عشر أنها

كانت دولة بلا شعب. كانت دولة يحكمها حاكم اوتوقراطي يصانع الارستقراطيين ويدوس الشعب بفردة حذاء واحدة.

ظل الطابع الغالب على الحياة السياسية في روسيا الاوتوقراطية من فوق، والرجعية في البلاط، وتعود النبلاء الاتباع للقيصر واسترقاق الشعب. ويبدو ان أثر الثورة الفرنسية في روسيا كان ضئيلاً. فالذين كان يمكن ان يتابعوا الفكر الفرنسي الثائر والحركة العنيفة التي تأتت عنه، هم من النبلاء الذين عرفوا مبادىء الحضارة الاوروبية. وهؤلاء لم تكن الثورة الفرنسية لتعني لهم شيئاً ايجابياً.

والشيء المباشر الذي مس روسيا من الثورة الفرنسية وما تلاها هو غزوة نابليون لروسيا (على رأس جيش من ٧٠٠ ألف جندي) وذلك في سنة ١٨١٢. وقد فشلت الحملة بعد ان خسر الجنود ٤٠٠ ألف قتيل و ١٠٠ ألف أسير.

فلما عقد مؤتمر فيينا نهائياً (١٨١٥) حضره الاسكندر الاول (١٨٠١ ـ ١٨٢٥). وكانت حصته ان يكون ملكاً على بولندا بعد ان قلصت مساحتها، وكانت قد تخلصت من ربقة روسيا، أيام نابليون. وعلى كل فقد انتهى كل هذا، وغيره الى لا شيء، إذ بعد مؤتمر فيينا بنحو عقدين كانت بلاطات الملوك والامراء في اوروبة قد عادت اليها،أو حاولت العودة، جميع مقومات الرجعية، وفي مقدمتها روسيا، وكان تولي نقولا الاول (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) العرش ايذاناً بذلك.

وحتى تولي القيصر المتحرر (نسبياً) الاسكندر الثاني العرش (١٨٥٥ ـ ١٨٨١) لم يغير كثيراً في طبيعة الحكم. فالحكم في روسيا لم يعتمد قانوناً أو دستوراً ما، وإنما اعتمد تقليداً أساسه أمران مهمان: الأول، أنه كان آلة ضخمة فرضت على الشعب والبلاد عبر بيروقراطية مستفيدة من الوضع من دون ان يحدد النفوذ أي قانون ما. والأمر الثاني، هو استرقاق الشعب. وقد حاول القيصر الاسكندر الثاني ان يدخل الى البلاد نوعاً من التنظيم القانوني، وحاول تحرير الاقنان ـ العبيد (١٨٦١)، وأنشأ مجالس محلية يستطيع القوم بواسطتها التعرف الى شكل الحكم على الأقل، وبنى سكك الحديد كي يسهل على الناس الاتصال.

لكن القيصر نفسه، لما أحس ببدء تحرك حر أو شبه ثوري في بعض نواحي الحياة، وخصوصاً بين الضباط، خشي العاقبة. ولما اغتاله طالب بولوني (١٨٨١) وخلفه ابنه الاسكندر الثالث (١٨٨١ ـ ١٨٩٤) توقف كل شيء، وعادت الأمور سيرتها القديمة، لكن كانت بعض بذور الثورة قد زرعت. وبعض التنظيمات قد ألف وجودها بين الفينة والفينة.

روسيا في آسيا الوسطى

يعود اهتمام روسيا بآسيا، وبالجزء الاوسط منها خصوصاً، الى القرن السادس عشر. ذلك بأنه بعد الاستيلاء على قازان (١٥٥٢) واستراخان (١٥٥٤) شعر الروس

بأن الطريق نحو أواسط اسيا أصبح ممهداً.

وقد اتبع قياصرة روسيا سياسة التهجير بخصوص أهل خانية قازان، وتوطين فئات روسية مكانهم، بحيث ان أكثرية سكان قازان نفسها اليوم هم من الروس. وقد تتبع الروس النبلاء التتار في خانية قازان بقصد إضعافهم، ومع ذلك فقد كانت المقاومة ضد الحكم الروسي عنيفة. ولما تولت كاترين الثانية العرش حاولت تخفيف الحملة ضد القازانيين، لكن الامر عاد سيرته الأولى بعد وفاتها. ومع ان النبلاء ومهرة الصناع الذين أجلوا عن مواطنهم كوّنوا طبقة تجارية بورجوازية الى الشرق من قازان، فإن الأمور لم تجر في مصلحتهم. وحتى التعاون القليل الذي كان يذر قرنه بين الحين والحين فيما بين الدولة الروسية وبعض التتار انتهى أمره منذ سنة ١٨٦٠ لما احتلت الجيوش الروسية أواسط اسيا نهائياً سنة ١٨٧١.

اهتمت روسيا بشبه جزيرة القرم وسواحل البحر الاسود الشمالية. وكانت قد بدأت القوات الروسية تهاجم تلك المناطق في الثلاثينات من القرن الثامن عشر. ومع ان احتلال سنة ١٧٧١ لم يف بالغرض المقصود، فإن كاترين أعلنت ضم المنطقة سنة ١٧٨٣. لكن الدولة العثمانية لم تعترف بذلك الا سنة ١٧٩٢. وقد أتبعت روسيا هناك السياسة نفسها التي طبقتها في قازان قبلاً. وكانت النتيجة ان هاجر عدد كبير من سكان تلك المناطق الى أراضي الدولة العثمانية. وقدر عدد الذين شملهم هذا التهجير بنحو ٣٦٠ ألف نسمة (وكان ذلك بين سنتي ١٧٨٤ و١٨٩٣)، بحيث كان التتار أقلية في بلادهم في أواخر القرن التاسع عشر.

وفي سنة ١٨٢٢ بدأت روسيا بالضغط على قبائل الخازاك. وفي سنة ١٨٦٤ احتلت روسيا منطقة حوض سرداريا، الى الشرق من بحر آرال. ثم استولت على طشقند (١٨٦٨) وسمرقند (١٨٦٨) وخيوه (١٨٧٠) وكوكند (١٨٧١). ولم تكن في تركستان يومها قوة تستطيع أن تقاوم التقدم الروسي العسكري. وقد جعلت المنطقة بأجمعها تقريباً حاكمية عامة، ووضعت تحت ادارة عسكرية. والفرق الوحيد الذي يميز الادارة الروسية هنا عن ادارة غيرها من المناطق هي ان سكان هذه الجهة لم يخضعوا لعملية خلطهم بالروس رغبة في تبديل هويتهم، ولم يجرعوا المدنية الغربية، بل سمح لهم بالاحتفاظ بالعمل بالشريعة في معاملاتهم. وأصبحت مدن تركستان تتكون واحدتها من المدينة القديمة، والحي الاوروبي.

أشرنا الى بعض الثورات التي قامت ضد الروس. والواقع هو ان الفترات الاولى كانت كثيرة الثورات، لكن شدة الحكم الروسي أدّت الى تضاؤل عددها.

إلا ان المهم هو ان القرن التاسع عشر، وخصوصاً نصفه الثاني شهد نهضات وطنية اسلامية في جهات كثيرة في الجزء الاسيوي من الامبراطورية الروسية وهي حركات تحتاج الى بحث طويل.

٣ ـ شعوب وأديان ولغات وعادات... وحزب إيديولوجي واحد

كانت روسيا، في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، تعاني تناقضات كبيرة. فهناك الميل الكبير، عند أصحاب الحل والعقد، لصبغ الشعوب التي كانت تسكن في رحاب هذه الرقعة الواسعة ـ الامبراطورية الروسية ـ بالروسية. فالبولنديون والاوكرانيون واللتوانيون والقفقاسيون والفئات الالمانية المنتشرة في نواح مختلفة وسكان آسيا الوسطى، كان ينتظر منهم ولهم أن يصهروا في بوتقة الثقافة الروسية الكبرى. وبذلك يصبح جميع السكان وحدة هي «روسيا المقدسة».

وكانت روسيا الرسمية على الأقل، وعلى مستوى الطبقة الارستقراطية والجماعات البيروقراطية، تتجه بشيء من السرعة نحو المدنية الاوروبية. ومن الاشياء العجيبة ان روسيا تفجرت فيها عبقريات أدبية وفنية وموسيقية خاصة، فمنحت العالم عدداً من كبار الكتّاب والموسيقيين مثل تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) وتورجنيف (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) ودوستويفسكي (١٨٢١ ـ ١٨٨١) من الكتّاب، وتشيكوفسكي (١٨٤٠ ـ ١٨٩٣) وريمسكي ـ كورساكوف (١٨٤٤ ـ ١٩٠٨) من الموسيقيين. وقد نبغ بين الروس علماء كبار في الفيزياء والكيمياء والرياضيات، وكذلك في الشطرنج.

دخلت روسيا ميدان الثورة الصناعية، وبدأ هذا في بناء السكك الحديد (تضاعف طولها بين سنتي ١٨٨٨ و١٩١٤) واستغلال المناجم وانشاء المصانع، ولو ان المصانع لم تشمل يومها مصانع انتاج الأدوات والآلات اللازمة للتطور الصناعي.

وقد كان من أثر هذا التطور الصناعي ان زاد عدد أفراد طبقتين من الشعب وهما طبقة البروليتاريا من العمال وطبقة البورجوازية من أصحاب العمل. وكان الكثيرون من العمال يقومون بالعمل في مصانع كبيرة فيتجمعون معاً مما يسّر نشر الآراء أو التذمر بينهم بسهولة. وكان الأحرار من هاتين الفئتين.

ظلّت روسيا في مجملها زراعية وبلد فلاحين، إذ كان هؤلاء يكوّنون أربعة أخماس السكان. لكن هذه الفئة الكبيرة لم يكن لها شأن في المجال السياسي، إذ يكفيها ما يحوق بها من ظلم واستبداد واستغلال. ونحن إذا أخذنا هذه الجماعات الكبيرة بعين الاعتبار وجدنا ان أصحاب الأرض والفلاحين، الذين كانوا يقيمون في قطعة واحدة من الأرض مثلاً، لم يكن بينهم أي اتصال قط. كان الفريقان منفصلين اجتماعياً.

قامت في روسيا فئة من الانتلجنسيا (أصحاب الفكر) من الذين كانوا يفكرون في

مستقبل البلاد السياسي، والذين اقتنعوا بأن الحل الوحيد هو القضاء على القيصرية، على اعتبار ان هذه هي رأس كل شر وأساس كل ضرّ.

وإذا كان قد تم للفكر الثوري ان يكون له قادة ـ ولو أنهم كانوا يهربون الى الخارج ـ فقد جهدوا في البحث عن العنصر الثوري ـ هل يأتي من الفلاحين، وهم جماعة لهم في الثورات تقليد يعود الى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، أم لعل فئة البروليتاريا العمالية ـ بنت المصانع ـ هي التي يعتمد عليها؟ وكانت ثورة ١٩٠٥ طليعة هذه الحركات الثورية. ونحن لا نريد هنا ان نؤرخ للثورة الروسية، فذلك أمر يطول، ولكن نود أن نشير الى أن الفشل الذي أصاب الجيوش الروسية في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) لما انهزمت أمام الزحف الالماني، أدى الى ان عقد البلاشفة (الذين تولوا السلطة الفعلية بعد اعتزال القيصر نقولا الثاني العرش آذار/ مارس ١٩١٧) مع الالمان صلح برست ـ ليتوفسك في شتاء ١٩١٧، وبذلك انسحبت روسيا من الميدان.

وهنا جاء دور ثورة ١٩١٥ وثورة شباط (فبراير) ١٩١٧ ثم ثورة تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧، ولكل من هذه قصتها. لكن المهم ان حرباً أهلية اجتاحت روسيا بين سنتي ١٩١٨ و١٩٢٢، خرجت منها روسيا ثائرة على نفسها، ووقعت تحت حكم البلاشفة (الذين سموا أنفسهم الشيوعيين فيما بعد) ممثلاً بلجنة تمثل البروليتاريا على أن لا يكون لا لهذه ولا للبورجوازية ولا لأي طبقة اخرى أو شخص سلطة أو نفوذ مهما كانت درجته. وكان الجيش الأحمر ذراع النظام القوي الذي لا يرحم لتثبيت أسس الثورة العمالية.

لم تقتصر الحرب الأهلية، وما رافقها من ويلات ومصائب على روسيا الاوروبية، بل شملت الاجزاء الآسيوية. أشرنا من قبل اشارة عابرة الى الحركات النهضوية التي عرفتها آسيا الوسطى في القرن التاسع عشر، ونؤكد هنا ان هذه الحركات عرفت بشكل خاص في قازان وما اليها. فدعا بعض الكتّاب الى القومية التركية ـ التتارية والاحياء الاسلامي، وأنشئت مدارس وأسست مطبعة لطبع الكتب باللغة التتارية. وقامت حركة اصلاحية أيضاً في كازاخستان والقرم وتركستان.

وقد كان لهذه الجماعات مشاركة في ثورات ضد الحكم القيصري (١٨٨٥ و١٨٩١ و١٨٩٢ و١٨٩٨)، وحسب سكان تركستان مثالاً ان ثورة شباط (فبراير) ١٩١٧ قد تمكنهم من المطالبة بحقوقهم من النظام الجديد الذي كان يتخذ شكله على أيدي البلاشفة، لكن الجواب على هذا كان ارسال جيش من الروس ضد طشقند، فاحتل المدينة ونهبها.

لكن لا بد من بضع كلمات عن المواقف التي عرفت في آسيا الوسطى أيام الثورة البلشفية وبعدها.

كانت مدن آسيا الوسطى يتفاوت العمل الثوري فيها بسبب اختلاف العناصر البشرية التي كانت تقيم فيها. ففي أكثرها عمال من أهل البلد تبلغ نسبتهم ٧٠ في المئة من المجموع، وهم يقومون بالأعمال اليدوية. وهناك المهرة الصنّاع والاداريون كانوا من الروس الذين نقلوا الى تلك المدن. وكان هناك روس وصلوا الى المدن بطريقة غير شرعية ـ أي من دون اذن من الدولة. هؤلاء كانوا ينتظرون توزيع أراض (هي غير موجودة في الواقع). ولكل من هذه الفئات ظلامات، لكنها لا تجتمع في اطار واحد. يضاف الى هؤلاء جماعات خسرت أعمالها وفلاحون نزعت منهم أراضيهم.

فضلاً عن ذلك كله، فإن آسيا الوسطى كانت، في مطلع سنة ١٩١٧، منحلة سياسياً. فما الذي تم هناك على أيدي أصحاب ثورة ١٩١٧ في روسيا؟

أصحاب السلطة في روسيا الذين كانوا قد أصبحوا يمثلون ثورة ١٩١٧ قضوا على محاولات الثورة او حتى المطالبة بالحقوق، بأشد ما يمكن من وسائل العنف. قالوا أول الامر بحق الشعوب في تقرير مصيرها، لكنهم لما تقووا وشعروا باحتمال انتصارهم، تنكروا لذلك. ولما تم لهم الانتصار الذي دفع السكان ثمنه غالياً، بقي الحكام القدامى (في ثياب جديدة) في أماكنهم، وعين الجنرالات اعضاء في السوفياتات (المجالس) المحلية هناك، ليكون النفوذ والسلطة بيد الضابط.

وكما كان الأمر في روسيا الاوروبية من حيث نفوذ مكاتب الاستخبارات (التي اتخذت اسماء مختلفة حتى توقفت عند ك.ج.ب KGB) وتعهدها التطهيرات المتنوعة، وقع مثله في آسيا الوسطى. فلم يكن من الجائز ان يساء الى جزء ويترك الجزء الآخر. وخرج الاتحاد من حروبه الاهلية وتطهيراته وحدة سياسية كاملة، لكنها وحدة تمت بقوة الجيش. فكما قامت روسيا القيصرية بالقوة الغاشمة، قام الاتحاد لما أعاد الجيش الأحمر احتلال كل جزء من اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية ـ من البلطيق الى المحيط الهادي ـ وحافظ الاتحاد على كيانه بقوة الجيش وتفرد الـ KGB بالتطهير وسطوة الحزب الشيوعي.

والاتحاد ضم خمس عشرة جمهورية سوفياتية (راجع الجدول الرقم واحد). وثمة ٤ جمهوريات أضيفت سنة ١٩٤٠ اذ احتلها الاتحاد السوفياتي بعيد بدء الحرب العالمية الثانية (راجع الجدول الرقم ٢).

هذا الصرح الضخم ـ الاتحاد السوفياتي كان بناء ينتظمه حزب واحد ذو عقيدة واحدة، لا مجال لغيرها فكراً، ولا لسواه نظاماً، ان يدخل هذا الصرح. وهذه الايديولوجية، التي بلغت من العمر سبعين سنة او يزيد وهي تعلم صباح مساء من دون ان يتجدد أي من عناصرها أو تسمح لأحد من دعاتها ان يرى خارج النطاق المضروب على نظره، أو يفكر بطريق آخر، أصابها هي، بطبيعة الحال، الجمود الذي يصيب مثل هذه الاشياء.

ومن هنا فقد أصيب الاتحاد السوفياتي، مجتمعاً، بالتوقف ايديولوجياً، كما أصيب، مثل غيره، بالرغبة في التغلب العسكري على غيره من المجتمعات التي هي مستعدة للنمو والتطور، فصرف جهده الصناعي الكبير في انتاج آلات الحرب، لكنه لم يتمكن من انتاج ما يسد به حاجات أهله من اشياء لازمة للحياة العادية. فظل فيهم جوع وسغب، فلما خرج الجني من القمقم، كان خروجه عجباً، وقد رأى كذلك، شيئاً عجباً.

جدول رقم (١)

جمهوريات الاتحاد السوفياتي

الاسم	عدد السكان سنة ١٩٤٠	عدد السكان سنة ١٩٨٠
١ - روسيا	١٠٩,٠٠٠,٠٠٠	١٣٩,١٠٠,٠٠٠
٢ - أوكرانيا	٤٠,٠٠٠,٠٠٠	٥٠,١٠٠,٠٠٠
٣ - روسيا البيضاء (بلوروسيا)	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٩,٧٠٠,٠٠٠
٤ - أرمينيا	١,٢٥٠,٠٠٠	٣,١٠٠,٠٠٠
٥ - جورجيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٥,١٠٠,٠٠٠
٦ - أذربيجان	٣,٢٠٠,٠٠٠	٦,٢٠٠,٠٠٠
٧ - ازبكستان	٦,٣٠٠,٠٠٠	١٦,٢٠٠,٠٠٠
٨ - توركمنستان	١,٢٠٠,٠٠٠	٢,٩٠٠,٠٠٠
٩ - تاجيكستان	١,٥٠٠,٠٠٠	٤,٠٠٠,٠٠٠
١٠ - كازاخستان	٦,١٠٠,٠٠٠	١٥,٠٠٠,٠٠٠
١١ - كرغيزيا	١,٥٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠,٠٠٠

جدول رقم (٢)

جمهوريات احتلت بعد بدء الحرب العالمية الثانية

الاسم	عدد السكان سنة ١٩٤٠	عدد السكان سنة ١٩٨٠
١ - مولدافيا	٢,٥٠٠,٠٠٠	٤,٠٠٠,٠٠٠
٢ - لتوانيا	٢,٩٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠,٠٠٠
٣ - لاتفيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
٤ - استونيا	١,١٠٠,٠٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠
المجموع العام	١٩٢,٠٥٠,٠٠٠	٢٦٦,٥٠٠,٠٠٠

هذه الرقعة الواسعة، أي اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية، التي تمتد من بحر البلطيق الى المحيط الهادي، ومن البحار المتجمدة في الشمال الى بحر قزوين والبحر الاسود والبلقان، يقطنها مئتان وستة وستون مليوناً ونصف المليون من البشر (احصاء سنة ١٩٨٠). وهذه الملايين منوعة في أصولها الاثنية وتطورها التاريخي وأساليب التعامل ووسائله وعاداتها الاجتماعية وشعورها. وقد وصف أحد كتاب مجلة «الايكونومست» البريطانية تباين العادات بين هذه الملايين بقوله: «تستطيع ان ترشف القهوة على شاطىء بحر قزوين من دون ان تغادر الاتحاد السوفياتي، ويمكنك ان تأكل عين الخروف في سهوب كازخستان، وأنت بعد فيه، أو تقدر ان تنهش قطعة حلوى فيينة، في مقاه تطل على الشوارع المبلطة والكنائس الكاثوليكية وبحر البلطيق وأنت بعد، هناك. ومثل هذا الاختلال (وغيره) يبين، بما لا يقبل الشك، الفروق بين الناس في شؤونهم الدينية والعادات ومستوى المعيشة وطرق التصرف».

وسكان الاتحاد يمثلون جميع العناصر الاثنية التي عرفتها المنطقة عبر التاريخ من التتار والأتراك في أواسط آسيا الى السلاف (الصقالبة) في شرق اوروبة ووسطها الى عناصر هندية اوروبية منتشرة هنا وهناك. وتعرف البلاد نحواً من مئتي لغة، بعضها قد لا يتكلمه سوى آلاف من البشر منزوين في مكان قصي. واللغات المستعملة في الاتحاد السوفياتي يبلغ عددها المئة، وقد تم وضع حروف هجائية لخمسين منها.

أما من ناحية القوميات العنصرية والثقافية، فالاتحاد يعترف بخمسين قومية لكل منها استقلال ثقافي ذاتي. فكل جماعة يمكنها ان تستعمل لغتها (طبعاً الى جانب لغة الاتحاد الرسمية وهي الروسية) في نواحيها الثقافية وفي المدارس. والمواطن السوفياتي يكتب في جواز سفره عند كلمة جنسية: سوفياتي - ثم قوميته المحلية. كأن يكون تركستانيا أو ارمنيا او اوكرانيا وهكذا. وسكان الاتحاد السوفياتي يتوزعون أديان العالم السماوية، وبعض الاديان الأخرى، فيما بينهم. وقد أتيح لي ان أزور باكو وطشقند وسمرقند وبخارى وخيوه (ارغنز) قبل مدة، وشاهدت بنفسي معنى هذا التنوع في الدين والمذهب.

وعندما تدخل العناصر الثلاثة: العنصر الاثني والديني واللغوي او تتقاطع في منطقة واحدة، عندئذ تبدو الصعوبات التي يمكن ان تواجه.

والمجتمعات السوفياتية يدخل فيها اشياء أخرى. فالبلاد بسبب اتساعها وتنوع أرضها ومناخها، لا يزال فيها جماعات شبه بدوية، ان لم تكن بدوية تماماً، تعيش في السهوب، وتعتمد أصلاً على تربية المواشي على اختلاف أصنافها. وهناك جماعات الفلاحين الذين يعملون في الارض مستقلين ومستغلين. ولا تزال أغلبية سكان الاتحاد تقطن الريف الواسع الفسيح. وثمة سكان المدن وهم الذين يشكلون طبقة رجال ادارة الاعمال والموظفين والمهن المتخصصة وأساتذة الجامعات والمدرسين والكتّاب،

وبعبارة أخرى ما يسمى في البلاد الأخرى البورجوازية والنخبة مجتمعتين.

والذي عليه الباحثون الاجتماعيون هو ان سكان المدن يتطلعون الى الخارج، فهم تقدميون (بقطع النظر عن الانتماء السياسي الحزبي أو عدمه) متطورون (ولو ان الدولة قد تحد من آفاقهم عند الحاجة)، أما سكان الريف فإن نظرتهم محدودة ومتجهة نحو الداخل، ومن ثم فهم محافظون.

ويترتب على اختلاف رقع الارض بالذات، وتباين المناخ، وتنوع مصادر الرزق ومواده الاولية وأساليب تصنيفه، أن تختلف مستويات المعيشة ومعدل دخل الفرد. وفي احصاء يعود الى سنة ١٩٨٥ نجد ان مدخول الفرد في جمهورية لاتفيا (السوفياتية الاشتراكية) بلغ ٢٧٥٠ روبلا في السنة، فيما كان دخل الفرد في تاجكستان (للسنة ذاتها) نحو ألف روبل فقط. فمن حقنا ان نتساءل: ما الذي ربط هذه الشعوب والجماعات الى بعضها البعض؟

لسنا ندّعي أننا نستطيع ان نقدم جواباً قاطعاً لهذا السؤال. ولكننا نقول، ونحن على استعداد ان نرد الى محجة الصواب ان كنا مخطئين، ان الذي حفظ الاتحاد السوفياتي بالجملة الامور التالية: القوة البطاشة التي لم تكن تقبل عذراً أو مساومة، الجيش الاحمر ثم الجيش الذي لم يبق أحمر، وهو جيش منظم قوي يخضع لأوامر الرؤساء وينفذ الامر من دون هوادة. ويدعم الجيش، على ما ذكرنا قبلاً، مؤسسة الاستخبارات KGB التي لها عيون لا تنام ولا تنيّم، والتي عندما تكتشف تعاقب. وفوق هذا كله تنظيم حزبي دقيق يعرف كلٌ فيه مكانه فيلزمه، وإلا فإنه يلقى العقاب الذي يستحقه. وهذه القوى الثلاث مجتمعة تعنى بالسكان جميعهم ـ البورجوازية (اللعينة) والبروليتاريا (الطيّعة) والفلاح والبدوي. والجميع من السكان قد ينالهم التطهير عند الحاجة. ولم يكتف التطهير بالعشرات والمئات بل وصل الملايين!

وهذا يذكرنا بما كان عليه الامر في روسيا القيصرية: حكم اوتوقراطي قوي مركز، شديد العقاب المباشر وغير المباشر على أيدي المكتب الثالث (مقابل الـ KGB)، وجيش يخضع للقيصر (وإلا زال القيصر) ويحارب من أجل وحدة البلاد وأمجادها عبر رغبة القيصر (والقيصرة أحياناً) وأمجاده، وشعب مستعبد مسترق يدافع الحكم والجيش عنه، لكنهما في الواقع يتحكمان فيه. ولما ارتفع الغطاء بعض الشيء في الشهور الاخيرة، ظهرت أنواع الشعور المختلفة. فقد أعلنت، حتى اليوم، ست جمهوريات عن استقلالها أو رغبتها في الاستقلال وهي: لتوانيا ولاتفيا واستونيا وارمينيا وجورجيا وملدافيا. وكانت اوكرانيا الجمهورية السابعة. لكن أطرف من ذلك، ان مناطق ذاتية المسؤولية، كتلك التي تقوم داخل جمهورية روسيا (السوفياتية الاشتراكية) رفعت صوتها تطالب بكيانٍ خاص.

ينص الدستور السوفياتي على أمرين مهمين: الاول، ان لكل جمهورية الحق في ان تنفصل عن الاتحاد، والثاني، ان قوانين الجمهورية الواحدة لها التقدم على قوانين الاتحاد. ولما كان الغطاء قوياً شديداً ومستعداً للضرب، لم تمارس أي من الجمهوريات حق الانفصال، ولم يكن هناك حديث جدي حول هذه الجماعات الصغيرة. والآن يقول يلتسن، رئيس جمهورية روسيا: «إذا كان للجمهورية الحق في ان تضع قوانينها فوق قوانين الاتحاد، فلماذا لا يكون للمنطقة ذات المسؤولية الخاصة في ان تضع قوانين فوق قوانين الجمهورية؟».

وبعد، فما هو مستقبل الاتحاد السوفياتي؟ أنا لا أخمن، ولكنني أراقب وأدرس. وكل الذي قصدته من هذه الدراسة هو ان أبين هذه الظاهرة التاريخية التي قد تكون فذة في العصور الحديثة عن بلاد ومجموعة شعوب وأيديولوجية وحكومة ومؤسسات تنظيمية تجتاز هذه التجارب بدءاً من القرن السابع عشر حتى أواخر القرن العشرين، وفي حياتها مرتفعات ومطبات متشابهة مع دعوى الخلاف الايديولوجي.

كتبت هذه المقالات الثلاث في الحياة، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ عندما بدأ الاتحاد السوفياتي يتفكك.

القسم الرابع

روسيا القيصرية
وسياستها الاسلامية
عبر الاهتمام بالحج

١ ـ التوسع في القرن التاسع عشر

عـرف القـرن التـاسع عـشـر ثلاثة أصناف من التـوسع، واحـدها في الـولايات المـتحـدة، وثانيـهـا توسع دول أوروبا الغـربيـة في افـريقـيـا والعـالم العـربي والهند وأندونيسيا، وثالثها التوسع الروسي في أسيا.

ونحن لا ننوي هنا أن نؤرخ لهذه التوسعات، ولكننا نود أن نضع أمام القارىء بضع ملاحظات لعلها تكون عوناً لنا على متابعة التوسع الروسي، وهو الموضوع الذي نعنى به في هذه المقالات.

بعد استقلال الولايات المتحدة الاميركية (الثلاث عشرة) رسمياً عن بريطانيا سنة ١٨١٢، أخـذت هذه تدبر أمـورها في الأجـزاء الشـرقـيـة من البـلاد. لكن لم يلبث المـغـامـرون ـ أفـراداً وجمـاعـات ـ ان أخـذوا يتـجـهـون نحـو الغـرب، نحـو المـسـافـات والمساحات الواسعة لاستغلالها. ولم يكن الاستغلال دوماً خالياً من العنف الذي بلي بها سكان البلاد الأصليون. ولكن هذا ليس من الأمور التي نعنى بها في هذه العجالة. إلا ان اكتشاف الذهب في كليفورنيا (١٨٤٧) أدى الى التسارع في الاتجاه غرباً. وتلا ذلك، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حمى انشاء السكك الحديدية، التي أصبحت، مع الزمن، شبكة قوية للمواصلات والانتقال.

نقف بالنسبة الى الولايات المتحدة عند هذا الحد، لأننا انما قصدنا الاشارة الى الموضوع، ربطا له بالتوسعين الآخرين.

وتوسع دول غـرب أوروبا في القـرن التـاسع عـشـر كـان أوسع مـدى وأبعـد أثراً بالنسبة الى الدول نفسها وبالنسبة الى الأماكن التي وصلتها قواتها البرية وأساطيلها البحرية. ورغبة منا في وضع الأمور في نصابها، فإننا نشير الى الاحتلالات التي تمت على أيدي الفـرنسيين (الـجـزائر وتونس والمـغـرب مطلع القـرن العشـرين) ومـا قـام به البـريطانيون في مـصـر والسـودان احـتـلالاً، ومثل ذلك تم في الهند على دفعات وأشكال متعددة الوسـائل. فضـلاً عن ذلك، فقد تمكنت بـريطانيـة، في القـرن نفسـه، من عقد سلسلة من المعاهدات مع أمراء شرق الجزيرة العربية وشيوخها، فوضعت هؤلاء تحت حمـايتها ـ ولكن الحماية كانت «مبكلة» بشكل قوي. ولنتم القصة. اخـترعت الدولتان تعبيـر الضم (فرنسة في الجـزائر) وأسلوب الحماية (تونس والمغـرب) وتبعتها بريطانية لمـا جـعلت مـصـر مـحـمـيـة (سنة ١٩١٤) بعـد ان كـانت ولاية تابعـة شـرعـاً للسلطان

١ ـ التوسع في القرن التاسع عشر

عرف القرن التاسع عشر ثلاثة أصناف من التوسع، واحدها في الولايات المتحدة، وثانيها توسع دول أوروبا الغربية في افريقيا والعالم العربي والهند وأندونيسيا، وثالثها التوسع الروسي في أسيا.

ونحن لا ننوي هنا أن نؤرخ لهذه التوسعات، ولكننا نود أن نضع أمام القارىء بضع ملاحظات لعلها تكون عوناً لنا على متابعة التوسع الروسي، وهو الموضوع الذي نعنى به في هذه المقالات.

بعد استقلال الولايات المتحدة الاميركية (الثلاث عشرة) رسمياً عن بريطانيا سنة ١٨١٢، أخذت هذه تدبر أمورها في الأجزاء الشرقية من البلاد. لكن لم يلبث المغامرون ـ أفراداً وجماعات ـ ان أخذوا يتجهون نحو الغرب، نحو المسافات والمساحات الواسعة لاستغلالها. ولم يكن الاستغلال دوماً خالياً من العنف الذي بلي بها سكان البلاد الأصليون. ولكن هذا ليس من الأمور التي نعنى بها في هذه العجالة. إلا ان اكتشاف الذهب في كليفورنيا (١٨٤٧) أدى الى التسارع في الاتجاه غرباً. وتلا ذلك، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حمى انشاء السكك الحديدية، التي أصبحت، مع الزمن، شبكة قوية للمواصلات والانتقال.

نقف بالنسبة الى الولايات المتحدة عند هذا الحد، لأننا انما قصدنا الاشارة الى الموضوع، ربطا له بالتوسعين الآخرين.

وتوسع دول غرب أوروبا في القرن التاسع عشر كان أوسع مدى وأبعد أثراً بالنسبة الى الدول نفسها وبالنسبة الى الأماكن التي وصلتها قواتها البرية وأساطيلها البحرية. ورغبة منا في وضع الأمور في نصابها، فإننا نشير الى الاحتلالات التي تمت على أيدي الفرنسيين (الجزائر وتونس والمغرب مطلع القرن العشرين) وما قام به البريطانيون في مصر والسودان احتلالاً، ومثل ذلك تم في الهند على دفعات وأشكال متعددة الوسائل. فضلاً عن ذلك، فقد تمكنت بريطانية، في القرن نفسه، من عقد سلسلة من المعاهدات مع أمراء شرق الجزيرة العربية وشيوخها، فوضعت هؤلاء تحت حمايتها ـ ولكن الحماية كانت «مبكلة» بشكل قوي. ولنتم القصة. اخترعت الدولتان تعبير الضم (فرنسة في الجزائر) وأسلوب الحماية (تونس والمغرب) وتبعتها بريطانية لما جعلت مصر محمية (سنة ١٩١٤) بعد ان كانت ولاية تابعة شرعاً للسلطان

العثماني، لكن بريطانية تديرها ادارة مباشرة لا مبرر لها. وبعد الحرب العالمية الأولى دخل القاموس السياسي حد جديد من حدود الاستعمار سمي الانتداب ووقعت، على أساسه، سورية ولبنان تحت انتداب فرنسي، كما أن انتداباً بريطانياً ألقى بكلكله على فلسطين والأردن والعراق.

الباحثون والمؤرخون والسياسيون العرب كانوا بالتوسعين البريطاني والفرنسي أحفل، وبهما أكثر اهتماماً لأنهما كانا يصيبان العظم العربي رأساً، ويضربان جسمه في صميمه.

وكما أننا لم نعن، كما لم يعن كثيرون غيرنا، بالتوسع الاميركي، كذلك قلما عنينا بالتوسع الروسي في أسيا، فهذا التوسع كان بعيداً عنا؛ فضلاً عن ذلك فإن قيام الاتحاد السوفيتي، الذي جذبنا اليه ما فيه من لمعان أخاذ، حال دوننا والتعرف إلى ما تم قبله. ولسنا نحسب ان تغاضينا عن هذا التوسع يعود الى درجة كبيرة الى ما أصابنا من دوران في الرأس بسبب الايديولوجية السوفيتية، التي حملتنا على رؤية الخير كل الخير فيما جاء على يدها، ولم تهتم هي بالتاريخ السابق لروسيا (القيصرية) إلا أنه كان تاريخ أيام جهل واستبداد ونفي وتعذيب - وهي مثالب عرفت من قبل، ولم يعد لها في روسيا السوفيتية وجود!.

ونحن لا نريد أن نكبد القارىء الآن عناء تتبع الخطوات التي سارت عليها روسيا القيصرية في الاستيلاء على أجزاء من آسيا (ومن أوروبة). ولذلك فإننا نضع بين يدي القارىء خارطتين: الأولى تبين ما كانت عليه روسيا (من حيث التوسع) في أواخر القرن الثامن عشر، والثانية تبين توسع روسيا القيصرية بين سنتي ١٨٠٠ و١٩١٤.

(١) النواة الأصلية للدولة الروسية هي القيصرية المسكوبية، وكانت عاصمتها موسكو، كما كانت المركز الرئيسي للعمل والحياة السياسية والاقتصادية. وكانت هذه تمتد (سنة ١٥٦٠ تقريباً) عبر منطقة يحدها البحر الأبيض الروسي شمالاً وتشرف على بحر قزوين جنوباً. وكان حدها الغربي خطا يقع الى الغرب من موسكو، كما كان نهر الأوب حدها الشرقي. وكان فيها مدينتان كبيرتان غير موسكو وهما اركنجل منفذها البحري الوحيد في الشمال، وقازان الى الشرق من موسكو. فضلاً عن ذلك فقد كان لهذه القيصرية الموسكوبية ميناء استراخان التي تقع على بحر قزوين.

بين سنتي ١٦٨٢ و١٧٢٥ حكم روسيا بطرس الأكبر. وقد عمل هذا الرجل الكثير في سبيل روسيا اقتصاداً وثقافة وسياسة. وإليه يرجع الدور الكبير في التخطيط للتوسع الروسي. كانت روسيا قد تعرفت من قبل الى المصنوعات الصينية الأنيقة الدقيقة مثل القماش الدمقسي والساتان الحريري والخزف الصيني ومثل الشاي. وكانت روسيا في مقابل ما تستورده تصدر الى الصين الفرو والجلد والكتان والفؤوس (لكن الصناعة الصينية بحد ذاتها لم تلفت الروس اليها صُنّاعاً وفنانين).

وقد كان مما تنبه اليه بطرس الأكبر أمر الطرق التجارية التي تربط بلاده بالهند عبر آسية الوسطى. فكان همه متجهاً نحو احتمال التوصل الى الهند، عبر إما بلاد فارس (ايران) أو عبر خيوى وبخارى. لكن محاولته (عبر الحرب مع فارس ١٧٢١) انتهت بالفشل. إلا أن تفكيره ظل يتفاعل في المجالات السياسية الروسية سنوات بعد وفاته.

(٢) في القرن الثامن عشر وسّعت القيصرية المسكوبية مجال نفوذها بأن ضمت اليها جزءاً من بولاندا (دوقية وارسو - فارسوفيا) في الغرب، ومدينة اوديسا وأرباضها على البحر الأسود، ومنطقة تمتد من شمال غرب بحر قزوين في اتجاه شرقي الى مقربة من بحيرة بلكاش.

(٣) سيبريا جاء ضمها الى روسيا نتيجة لهجرة الفلاحين الروس وجماعة القوزاق الى تلك الانحاء. ذهب هؤلاء لاستغلال الأرض وللحصول على الفراء، فاستوطنوا وعمروا البلاد. وكانت الهجمة الأولى بين أواسط القرن السادس عشر وأواسط القرن السابع عشر. وكانت الخطة المتبعة أنه عندما يتعرض هؤلاء المعمرون للأخطار بسبب هجوم القبائل المختلفة عليهم، تأتي الدولة الروسية لحمايتهم، وعندها تصبح ادارة المنطقة بيد الدولة المركزية في موسكو. وكانت الدولة تبني مدناً هي بالقلاع والحصون أشبه. وهكذا فقد ضمت الاجزاء الغربية من سيبريا، وأقيمت فيها هذه المدن - الحصون وهي توبولسك (١٥٨٧) وبليم (١٥٩٣) وفير خوتيري (١٥٩٨) وتومسك (١٦٠٤). وتلا ذلك تولي (أو استيلاء) روسيا على الجزء الشرقي من سيبريا، فبنت هناك ينيسيك (١٦١٩) وكراسنويارك (١٦٢٨) واليمسك (١٦٣٠) وياكوتسك (١٦٣٢) ونرشنسك (١٦٥٤) واركتسك (١٦٦١). وفي سنة ١٦٩٧ احتلت فرقة من القوزاق كمتشتكا (وهي شبه جزيرة تقع في أقصى سيبريا وتشرف على المحيط الهادي).

ومن المفيد ان نتذكر ان سيبريا ظل عدد السكان فيها، بالنسبة لمساحتها، وخاصة في المستوطنات الروسية بالذات قليلة. فإن القوافل كانت تجتازها بحيث توصل روسيا الاوروبية بالصين وبخانات (امارات) أواسط آسيا (خاصة خيوة وبخارى).

يتضح من الخريطة الثانية:

(١) أن روسيا القيصرية كانت قد شملت ما يمكن ان يسمى روسيا أصلاً وسيبريا بكاملها (حول سنة ١٨٠٠)، وهي الرقعة الممتدة من أوديسا ووارسو وفلنا غرباً الى المحيط الهادي شرقاً. وكانت روسيا قد ضمت الاسكا (الاميركية) الى أملاكها، لكنها باعتها سنة ١٨٦٧ الى الولايات المتحدة بما قيمته ٧,٢ مليون دولار.

(٢) في هذه العقود التي كانت سيبريا تنتقل الى روسيا القيصرية، كان الروس

يتزايدون أعداداً (ونشاطاً) في سيبريا. فقد ورد ان عدد الروس (الذكور) في سيبريا قدر في القرن الثامن عشر برقم يقع بين ٨٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠ شخص. وفي نهاية القرن التاسع شعر قدر عدد الروس في تلك المنطقة بنحو ٤ ملايين من أصل سبعة ملايين هو عدد سكان سيبريا. وقد قدر عدد المهاجرين الروس الى سيبريا بين سنتي ١٩٠٧ و١٩٠٩ بنحو مليون ونصف مليون روسي. كما ارتأى احد العاملين في مجال الاحصاء السكاني ان الملايين الاربعة قد يكون عددهم قد تضاعف عند نشوب الحرب العالمية الأولى. ومما يجدر ذكره ان نحو ٧٠ في المئة من المهاجرين كانوا من الفلاحين.

(٣) كانت روسيا، منذ أيام بطرس الأكبر على أقل تعديل، تتطلع نحو البحر المتوسط بسبب مياهه الدافئة. وكانت الدولة العثمانية تقف في الطريق. وقد كان من اليسير ان تتحرش دولة أخرى، فتحرشت روسيا بدول البلقان فأعلنت تركيا الحرب عليها. وهذا أدّى الى قيام حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦). وقد أسرعت بريطانية وفرنسة وسردينيا الى الانضمام الى تركيا، فخسرت روسيا الحرب. لكنها لم تلبث أن عوضت عن ذلك باحتلال القفقاس (١٨٠٠ ـ ١٨٦٤) توسعاً بطيئاً. وفي العقود نفسها (١٨٠٠ ـ ١٨٥٦) ضمت روسيا القيصرية آسية الوسطى. وبين ١٨٥٧ و١٩١٣ احتلت تركستان وكرمنس (كرمنستان فيما بعد) ومنطقة آمور في أقصى الجنوب الشرقي. ووضعت روسيا كلا من خانتي خيوه وبخارى تحت حمايتها (ولكنها لم تلبث ان ضمتهما). أما في مطلع القرن العشرين فقد ضمت روسيا بلاداً أوروبية هي فنلاندا وبولاندا وبسارابيا. ومن اليسير ان يتابع القارىء حدود روسيا سنة ١٩١٤ (واضحة ومبينة في الجنوب، أما الشمال فالبحار الباردة حدودها).

هناك أمر مهم قامت به روسيا القيصرية بالنسبة الى البلاد إجمالاً وهو بناء سكة حديد سيبريا (١٨٩٢ ـ ١٩٠٥) التي وصلت موسكو بميناء فلاديفوستك على المحيط الهادي. والمسافة التي تفصل بين النقطتين هي ٧,٠٠٠ كيلومتر. وقد بدىء العمل من كل المدينتين وكان هذا العمل يومها فريداً في نوعه ومداه وصعوبة الشغل في المناطق النائية. وكان المشروع بكامله مشروعاً حكومياً روسيًا، وقد رفضت الحكومة القيصرية أيّ مساهمة أجنبية لإنجازه. ولا يخفى على القارىء الأهمية الاقتصادية، فضلاً عن الأهمية السياسية والعسكرية لمثل هذا المشروع.

دخلت روسيا حلبة الصراع الأوروبي والمنافسة الاوروبية للحصول على موطىء قدم في البحر الاحمر أو الخليج العربي. حتى ان سفناً روسية ظهرت في الخليج العربي.

على كل، لم يكن من الجائز بالنسبة لبريطانية وفرنسة والمانية ان تصل روسيا الى مناطق النفوذ التي كانت قد رسمت لها على الخريطة على الأقل. وإذن فلا بد من

دعم الدولة العثمانية على نحو ما جرى في حرب القرم.

ونتيجة للتوسع الروسي في أواسط أسية وما يجاورها من المناطق الاسلامية، فقد أصبح عدد المسلمين في روسيا، في أواخر القرن التاسع عشر، نحو ستة عشر مليوناً، وهو نحو ١٠ في المئة من عدد السكان. فضلاً عن ذلك فإن هذه المناطق الاسلامية بالذات تجاور بلاداً اسلامية مستقلة ـ افغانستان وإيران (فارس) ومناطق تحت النفوذ البريطاني في شبه الجزيرة الهندية.

وعلى نحو ما عرف المشرق حركات اصلاحية اسلامية تزعمها كبار القادة والعلماء مثل السيدجمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده، فقد قامت في الهند وآسيا الوسطى مثل هذه الحركات. ولنذكر على سبيل المثال سيد أحمد خان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨) في الهند وإسماعيل بك (١٨٥١ ـ ١٩١٤) وعطا الله بايازيدوف (تو ١٩١١) وأحمد بك اغاييف في أواسط آسية.

إذن فقد ترتب على ذلك ان تعنى الدولة الروسية القيصرية بأمور المسلمين وان تتعرف إلى الإسلام. فقام يومها فئة من الروس اهتمت بهذا الأمر.

لكن الأمر المهم والعملي الذي كان على الدولة أن تعنى به، هو تيسير الحج لمن يرغب في اداء الفريضة. ومما زاد في حماسة الناس لأداء الفريضة هو تحسن طرق المواصلات نسبياً. فقد أنشئت في روسيا سكك حديدية في أسية الوسطى وتركستان. وافتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩، وكانت ثمة بواخر تسير في أنظمة وأوقات معينة بين أوديسا واستانبول والاسكندرية، كما كانت ثمة بواخر تسير وفق جداول منتظمة بين جدة والاسكندرية. وقد توجد سفن تنقل الركاب من استانبول الى جدة رأساً.

على أنه لا يجوز أن يغرب عن البال أن الدولة الروسية كانت تنظر الى قضية الحج وازدياد عدد الحجاج من زاوية أخرى، إذ اعتبر، أولو الأمر، ان الحجاج المسلمين كانوا يأتون مكة المكرمة والمدينة المنورة من جهات مختلفة. فكان من الطبيعي ان يعنى المسؤولون بمراقبة دقيقة للحجاج، خشية أن تتسرب أفكار عدائية نحو الدولة أو قضايا الجامعة الاسلامية. ان المسؤولين الروس لم يغفلوا عن كون الحج مؤتمراً إسلامياً من الدرجة الأولى، وفيه يتحدث الحجاج عن جميع القضايا ويبحثون المشكلات بأجمعها.

٢ ـ طرق الحج

كانت طرق الحج التي اتبعها الحجاج من رعايا روسيا قد انتهت في أواخر القرن التاسع عشر الى ثلاثة:

الطريق الأول: من منطقة ما وراء القفقاس (القوقاز) أي ارمينيا وأذربيجان وجورجيا والقسم الشمالي من إيران عبر مدينة خانقين الواقعة قرب حدود الدولة العثمانية. ثم يسير الطريق في اتجاه بغداد وكربلاء ثم عبر الجزيرة العربية الى الحجاز. وكان أكثر الذين يتبعون هذا الطريق هم الشيعة الذين يبلغ عددهم سنوياً بين ١٢,٠٠٠ و١٥,٠٠٠ حاج.

الطريق الثاني: كان يمر عبر سمرقند وبخارى ومزاري شريف، وكان القوم يعتقدون ان الإمام علي (ر) مدفون هناك. بعد ذلك يذهبون الى كابول وبيشاور ومن هذه الى بومباي بالسكة الحديدية. وكانت السفن تنقل الحجاج من بومباي بحراً الى جدة وينبع عن طريق قناة السويس.

الطريق الثالث: كان ينطلق من استانبول، التي كان يتجمع فيها الحجاج الروس القادمون من أوديسا ومن أواسط أسية ومن باطوم. ومن هناك كانت البواخر تنطلق بهم الى الاسكندرية وجدة.

كان أداء فريضة الحج تحف به مشكلات وأخطار كبيرة، لا بالنسبة الى الحجاج الروس فحسب، بل بالنسبة الى جميع الحجاج. فإلى الصعوبات المادية التي كان يتعرض لها الحاج، كان ثمة الأخطار الأمنية. إذ إن الكثير من الطرقات كانت قوافل الحجاج فيها معرضة للنهب والسلب، وخاصة متى وصلت هذه الى نواحي الحجاز بالذات. وكان الى ذلك خطر نقل الأمراض مثل التيفوس والطاعون والكوليرا. ومن هنا جاء الاهتمام بالحجر الصحي.

فمن الصعوبات التي كان الحجاج (وهنا المقصود الحجاج الروس) يلقونها، ابتزاز الأموال. فقد جاء في وثيقة من أواخر القرن الماضي:

«يتشكى جميع الحجاج على الخصوص من ابتزاز الأموال الرهيب في عموم أفغانستان. فعن حق دخول الأراضي الأفغانية، وعن الحصان، وعن الاشياء، وغير ذلك، مثلاً، كانوا يتقاضون في مزاري شريف من كل حاج روبية وأكثر، وفي وزير آباد روبيتين، وفي باميان وقاضي آباد وطوشزار روبية، وفي شاريقار ٩ روبيات، وفي كابول

خمس روبيات ونصف الروبية، وفي جلال آباد روبية، والخ.. وفضلاً عن هذه الاتاوى، لم يكن من النادر أن يصبح الحجاج ضحايا الكذب والخداع والابتزاز في بومباي من جانب من كانا يقولان عن نفسيهما انهما وكيلا حجاج بخارى، سليمان خوجا (وهو من مواليد انديجان) ويوسف علي (من مرغلان). ويقول الحجاج ان سليمان خوجا الذي أرسل منذ عشر سنوات الى بومباي مع أوراق من أمير أفغانستان بصفة دليل ووكيل لأجل الحجاج يبتز من كل منهم بضعة روبيات عن المسكن، وعن إركابهم على متن باخرة، وخلافه، ناهيك بأنه يجبرهم بالقوة على شراء الطحين والرز والقمح من بائع يعرفه ومنه وحده مؤكداً لهم أنهم سيبيعون كل ما اشتروه بربح في جدّة. صحيح أن نقل بضعة أكياس من الطحين والرز من بومباي بالباخرة مجاني، ولكن ثمن هذا الطحين أو الرز أو القمح في جدّة مثل ثمنه في بومباي وأحياناً أرخص».

وقد عثرنا على احصائيات عن عدد الحجاج الروس للسنوات الممتدة من ١٨٠٧ الى ١٨٩٢. لكننا لن نثقل على القارئ بالأرقام جميعها بل ننقل ثلاثة نماذج. فقد بلغ عدد الحجاج سنة ١٨٠٧/ ٣٨٠٠٠ حاج وكان هناك ١٦٠,٠٠٠ حاج سنة ١٨٥٨، أما سنة ١٨٩٣ فقد شهدت وصول ٨٦٤٨٩ حاجاً.

وكان بعض المطوفين والأدلة يذهبون الى بخارى وتركستان لأجل دعوة مسلمي تلك المناطق لأداء فريضة الحج.

ومع أن الأرقام تجعل الحديث يستمتع بدرجة كبيرة من الجفاف، فإن في إيرادها فائدة كبرى. فقد بلغ مجموع الحجاج من رعايا روسيا وبخارى القادمين الى مكة عبر أفغانستان والهند (سنة ١٨٩١) ١٢٦٩ شخصاً وعبر بومباي ٤٣٢٨ شخصاً وعبر السويس ١٨٠٨ أشخاص. وفي سنة ١٨٩٤ بلغ عدد الحجاج الروس ٣٣٤٩ شخصاً، منهم ٢٩٣١ جاءوا عبر الهند و٤١٨ عبر السويس.

ويشكل الزرّاع العنصر الأكبر من الحجاج.

ونقل عن الوثائق الرسمية ان عدد الحجاج من السنّة والشيعة من رعايا روسيا لا يقل عن ١٨ ألف شخص، ويصل الى ٢٥,٠٠٠ شخص أحياناً كثيرة. وقد جاء في تقرير لدولتشين توزّع للحجاج عامة (لسنة ١٨٩٨) . لعل في نقله هنا بعض الفائدة. (راجع الجدول في الصفحة التالية).

ثمة احصائيات دقيقة وردت في مراسلات القناصل وتقاريرهم تتعلق بالحجاج ووصولهم وتنقلهم وحتى نوع السفن التي حملتهم (هنا الى جدة مثلاً). ويتضح ان السفن التي كانت تعنى بنقل الحجاج الى جدة بين سنتي ١٨٩٠ و١٨٩٤ كانت: نمساوية وبريطانية والمانية وهولندية ويونانية ومصرية وزنجبارية وبرتغالية وتركية وفرنسية. وكانت البريطانية هي الأوفر عدداً على طوال تلك المدة، تليها السفن المصرية. وكان دور السفن الهولندية يتأرجح بسبب عدد السكان الاندونيسيين. وقد بلغ مجموع السفن

عدد الحجاج في سنة ١٨٩٨

من روسيا:	القرغيز	٢٥٠
	التتر	١٠٠
سكان ما وراء القفقاس		١٠٠
من تركستان الصينية		٢٠
الفرس		٨٠٠٠
الاتراك		١٠٠٠٠
السوريون		٤٥٠٠
المصريون		٥٢٤٥
البدو المصريون		١٥٠٠
من سكان:	طرابلس	٦٠٠
	تونس	٢٠٠
	الجزائر	٢٠٠
	فاس - المغرب	٣٠٠
	الهند	١٠٠٠
	ساحل افريقيا الغربي	٢٠
سكان مكة وضواحيها		حتى ٤٠٠٠٠
سكان الجزيرة العربية:		
	المدينة	٣٥٠٠
	اليمن	٤٠٠٠
	عمان	٣٠٠
	عدن	٢٠٠
	نجد وغيرها	٤٠٠٠
الافغان		٢٠
الماليزيون		١٥٠٠٠
المجموع حوالى		١٠٠٠٠٠ (مئة الف)

١٣٨ (سنة ١٨٩١) و١٧٨ (سنة ١٨٩٢) و٢٠٤ (سنة ١٨٩٣) و١٨٠ (سنة ١٨٩٤).

وعلى كل فقد اقتضى الأمر، بالنسبة للحكومة الروسية، الاطلاع على معلومات شاملة دقيقة وصادقة، وذلك في سبيل «تقييم الحج من جميع جوانبه السياسية والدينية والطبية الوبائية».

ونحن نقلنا من قبل بضعة أرقام عن الحاج الروسي وغيره عن مقدمة كتاب يفيم ريزفان عن الرحلة السرية للضابط الروسي الى مكة المكرمة. والآن نود ان ننتقل الى الرحلة ذاتها كي نفيد منها، ويفيد القراء معنا.

الرجل الذي نعنيه هو عبد العزيز دولتشين المولود في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٦١ في عائلة تترية نبيلة. عمل أبوه في مناصب ادارية عسكرية مهمة. وأتيح لعبد العزيز دراسة عسكرية راقية. والتحق (١٨٨٧ - ١٨٩٠) بصفوف اللغات الشرقية (في وزارة الخارجية عبر الدائرة الاسيوية).

وهكذا فإن الشاب عبد العزيز كان، وهو على عتبة الثلاثين من عمره، قد عرف اللغات العربية والتركية والفارسية والانكليزية والفرنسية والروسية، فضلاً عن امتلاكه ناصية لغته الوطنية؛ فكان من الطبيعي أن يلفت النظر عسكرياً ودبلوماسياً. من هنا جاء اختياره، وكان قد وصل رتبة نقيب في الجيش، للقيام بمهمة كبيرة للدولة، إذ كلف القيام بمهمة مراقبة الحجاج وطرق اداء الفريضة ودور الحجاج الروس فيها، وذلك للوصول الى نتيجة، كانت على ما يبدو، تدور في خلد أهل الحكم، وهي: هل تشكّل ممارسة اداء هذه الفريضة خطراً على مصالح روسيا العسكرية والسياسية في الشرق؟

كان عبد العزيز يأمل، من خلال قيامه بهذه المهمة، ان يعين اخوانه المسلمين من رعايا روسيا في قيامهم بأداء هذه الفريضة.

ومثل كل رجل مثقف واسع الأفق وضابط نشيط يعنى بالأمور، كان عبد العزيز يعرف عدداً من الشخصيات الاسلامية الروسية ذات الموقع المفيد، مثل حميد الله آخون من أهل بطرسبورغ، وعطا الله بايا زيدوف، فضلاً عن زعماء من كبار الصناع والتجار بين التتر.

في ٦ آذار (مارس) ١٨٩٨ ودّع عبد العزيز أسرته وبدأ هذه الرحلة التي نعنما نحن بسببها بشيئين: الأول مذكراته الطريفة؛ والثاني تقريره العلمي الموثق الدقيق عن الحج والحجاج الروس وغيرهم الذين خبر أحوالهم وتعرف الى مشكلاتهم وتنبه الى حاجاتهم الرسمية وغيرها، وعمل جاهداً في سبيل حمل الحكومة الروسية على الاعتناء بهؤلاء القوم لتمكينهم من أداء الفريضة بشكل لائق، ولو نسبياً.

بعد ان تلقى عبد العزيز الأوامر والتعليمات اللازمة، سافر في ١٨ آذار (مارس) ١٨٩٨ الى أوديسا (على البحر الأسود) فوصلها في ٢٠ منه. وبعد يومين انتقل الى

باخرة تابعة للشركة الروسية متجهة الى الاسكندرية رأساً. وصلت الباخرة استانبول بعد الظهر، وكانت قد اجتازت البوسفور، لكن عبد العزيز «الذي كان يراقب الأبنية والطوابي العسكرية والتحصينات لم ينتبه الى وصول الباخرة المدينة الكبيرة». يقول: «لم ألاحظ كيف اقتربنا من القسطنطينية؛ وقد وصلنا اليها حوالى الساعة الرابعة نهاراً. الانطباع الأول كثرة من أصحاب القوارب في طرابيش حمراء ولغط رهيب. وما ان أنزلوا السلالم حتى تدفق جمع غفير في الطرابيش الى المتن: من ضباط في البوليس التركي وعلى صدورهم كتابة «قانون» وأدلّة وسوّاقي زوارق ووسطاء لمختلف الفنادق (توقفت الباخرة عند مدخل القرن الذهبي على بعد نحو ٥٠٠ متر من الساحل). كان المنظر جميلاً الى حد أنني قررت عدم النزول الى الضفة اليوم، ومشاهدة الجمهور والمدينة من البوسفور».

لم تعجب استانبول عز الدين. قال: «أول ما أذهلني في شوارع القسطنطينية انما هو وفرة الزبالة ووفرة نوع خاص من الكلاب التي تتصرف على الأرصفة كما في بيوتها. وغالباً ما تقع العين على بيوت خشبية متعددة الطوابق. فماذا يحدث هنا إذا ما نشب حريق في شارع بمثل هذا العرض التافه؟ ان ضيق الشوارع يمكن تفسيره، ولكن كيف يجوز فيها مثل هذا القدر من الزبالة، مثل هذه الهندسة المعمارية المنفّرة؟ ان أي رئيس للبوليس في أيّ مدينة في روسيا يستحوذ عليه الرعب من مثل هذه الأوضاع».

لكن عبد العزيز أعجب بآيا صوفيا من الداخل، من حيث العمارة، كما سر بالجوامع التركية البناء وبالنوافير فيها.

كان أسف عز الدين لحالة استانبول مدعاة لحزنه. فقد كان يجب أن يرى عاصمة الخلافة على غير ما رآها. وعلى كل فقد كانت زيارة قصيرة، اذ ان الباخرة خرجت في ٢٥ من الشهر، ورأى في ازمير اشياء رضي بها وأخرى رضي بعض الشيء عنها. ثم مرت الباخرة بمرفأ بيريه فذهب عز الدين لزيارة اثينا.

رفقاء عز الدين على الباخرة كانوا جماعة مثقفة تنظر الى الأمور نظرة منطقية. لذلك نعم صاحبنا بسفرته. وكان بين ركاب الباخرة حجاج روس مسيحيون ذاهبون الى القدس.

ووصلت الباخرة الاسكندرية. يقول صاحبنا: «يبدو أنه توجد في الاسكندرية أيضاً عصابة من نهابي الحجاج؛ ومنذ بادىء بدء وقعت في مخالب صاحبنا الحاج مصطفى، المولود في كريت، وكان لا يفهم سوى كلمة بخشيش».

انتقل عبد العزيز من الاسكندرية الى السويس بالقطار، وقد وجد ان السكة الحديدية في مصر كانت دون الروسية بدرجات. «الدرجة الأولى (في مصر) أسوأ من درجتنا الثانية. العربات متعبة جداً. يقلع القطار دون أي صفير أو جرس» (ص ٦٢).

وبعد تأخر وتأخير وتسكع هنا وهناك وقف عبد العزيز دولتشين على الرصيف في السويس في ٥ نيسان (ابريل). وكان «أمام الباخرة جمع غفير ينتظر في الشمس اللافحة السماح بركوب الباخرة التي يحرس رجال الدرك المصريون الصارمون جداً، الجسر اليها. حاولت الاقتراب الى الجسر لم يسمحوا. أخيراً بعد نصف ساعة تقريباً أمر المسؤولون بتمريري وحدي أنا (ص ٦٨). وكان على عبد العزيز ان يحصل على تأشيرة على جواز سفره من نائب القنصل الروسي في السويس. يروي المؤلف بقية الحكاية بقوله: «ولهذا الغرض أخذوا مني مجيديتين. تم التأشير بسرعة تثير الشكوك. فبعد ربع ساعة أعادوا لي جواز السفر وعليه التأشيرة وتوقيع نائب القنصل، في حين ان مقر القنصلية بعيد في المدينة». (ص ٦٨).

ولما سمحوا للركاب بالصعود الى الباخرة بدأ شيء رهيب. «الباخرة ترسو على بعد نحو ٥ ساجينات (دون الستة أمتار) عن الرصيف ويوصله بها لوحان ضيقان من الخشب. الجمع يدفع بقوة من الخلف؛ يمررون الركاب واحداً واحداً. فحص جواز السفر يستغرق بعض الوقت. في الجمع أولاد ونساء. الجنود يصدون الجميع بالقوة مستعملين العصي، رغم أنني لاحظت أنهم كانوا حريصين جداً على الأولاد والنساء. الركاب الذين يصعدون الى الباخرة يعمدون الى تدبير أمورهم بأسرع وقت، فارشين الحصر واللباد». (ص ٦٨).

كان عبد العزيز يتحرق شوقاً للوصول الى الحجاز. فالرجل مسلم مؤمن. وأداء فريضة الحج حقق له حلماً كان كل مسلم يحلمه. ولذلك فإننا نشعر هنا بما كان يدور في خلده من الأسلوب الذي تحدث به عن المشاعر. ولكن ذلك لم يمنعه من الانتقاد عند الحاجة.

ففي ٩ نيسان حول الساعة الحادية عشرة وصلت الباخرة «ماغنت» جدة، ورست في وسط الخليج ورأى النقيب عبد العزيز ان المكان تملأه «شعاب صخور بحرية. جدة مدينة جميلة من البعيد. بعد فترة وجيزة جاء من جهة المدينة زورق وفيه تركي يرتدي معطفاً وحافي القدمين؛ وقد تبين أنه عضو في لجنة الحجر الصحي، وسرعان ما عاد واعداً بإرسال الزوارق لنقل الركاب الى الشاطىء. رفعوا على الصارية راية تشير الى استدعاء الزورق. ذلك اليوم أمضيناه كله عبثاً في الرسو، مع أنه كان من الممكن الاستراحة من العاصفة التي عانيناها». (ص ٦٩). ولكن لا بد مما ليس منه بد. وبعد انتظار ودفع ودفش نزل الركاب الى البر.

انطلقت الجماعة أخيراً الى مكة المكرمة (١٢ نيسان). وكان الوصول الى تلك المدينة المباركة مفاجئاً تماماً، لأنها لم تظهر الا حين دخلتها الجماعة. بدت للداخلين اليها بيوتاً حجرية عالية، وشوارع تملأها حركة نشطة. نزل عبد العزيز في التكية القرغيزية، فالقائمون عليها أقرب الفئات الروسية اليه، فهو تتري. لكن الضيق

والزحام في التكية كانا أكثر مما يستطيع تحمله. لذلك استأجر، بعد أيام ثلاثة، شقة ليقيم بها منفرداً، متمتعاً بحريته.

في أول مساء قضاه عبد العزيز في مكة، مع أنه كان يعاني ألماً شديداً في رجليه المتضخّمتين، خرج في المساء، بعد الدعاء وقام بالطواف ثم بالسعي. وقد وصف شعوره بساعتها فقال: «الانطباع من الطواف عميق وعجيب جداً، وهو من الانطباعات التي تندر معاناتها في الحياة» (ص ٧٢).

يصف الكاتب الأماكن المعدة لإقامة شعائر الحج. الناس يُغطّون سفوح عرفات، فيما يتلو الإمام الخطبة وهو على ظهر جمل. والتلاوة بالطبع لم تكن مسموعة، وكل ما كان يسمعُ لبيّك اللهم لبيّك التي كان يرددها الجميع بصوت مدوّ ملوّحين بالمناديل. ويصف عبد العزيز أيضاً أماكن الأضاحي في منى. ولم يعجبه المكان بسبب ما ينبعث منه من رائحة كريهة نتيجة الاهمال في مراقبة الذبح وإلقاء ما تبقى من الحيوان وأماكن قضاء الحاجة المكشوفة. لكنه يقول أيضاً: «في المساء رحت مع يعقوب لمشاهدة الألعاب النارية وللاستمتاع بالموسيقى. كانت الصواريخ جيدة جداً. أطلقوها في ثلاثة أماكن ـ قرب مقامي القافلة الشامية والقافلة المصرية وقرب موقف الوالي... الموسيقى ـ اوركسترا عسكرية جيدة جداً، رغم أنها صغيرة القوام (الحجم؟). موسيقى الشريف المحلية أصيلة. الوالي والشريف اليوم تجولا ركوباً في الشارع الرئيسي برفقة خفر أصيل. في المساء يرفعون فوق مبنى الحجر الصحي المحلي مصباحاً أخضر مرئياً من بعيد». ص (٧٥).

رسم عبد العزيز صوراً لبعض نواحي الحياة في مكة على ما خبرها. ولنتذكر دوماً أننا نحن ننقل عن رجل زار تلك البلاد قبل مئة سنة. لذلك فإن ما يقوله هو عن زمن مضى وعفي عنه.

١ ـ في مكة المكرمة مستشفى من وقف والدة السلطان العثماني عبد المجيد. عدد الأمكنة ٣٠ ـ ٤٠، أسرة نظيفة نسبياً. عدد المرضى ٢٥ مصابون على الأغلب بأبي الركب. للمستشفى صيدلية وجنينة. المرضى من شتى المجموعات البشرية. يكثر الراغبون في الحصول على الأدوية.

٢ ـ الماليزيون (أو جاوة كما يسمونهم هنا) يؤلفون ثلث أو ربع السكان الدائمين بمكة. عندهم ٣ ـ ٤ آلاف تلميذ. يتميزون بالميل الى الوئام مسالمون جداً، مجتهدون. يتعاطون التجارة. بدأوا يمارسون الدور الأول بين السكان المحليين». (ص ٧٧).

٣ ـ يتحدث عبد العزيز، وبكثير من الأسى والألم، عن سوق الرقيق في مكة فيقول ان السوق كان فيها نحو «ستين الى ثمانين فتاة، زنجيات في الغالب، وهناك بعض الحبشيات. وكان ثمة زهاء عشرين صبياً، حليقي الرؤوس محضرين للبيع». ويضيف بعد ذلك قوله البضاعة يأتون بها من السودان والحبشة. يُسرقون يُنقلون الى

الساحل، يشحنون خفية على سمابك (سنابك). وعلى هذا الساحل يبيعونها من التجار، وهؤلاء ينقلونها الى مكة وغير ذلك من المراكز. ثمن الفتاة الجيدة ٤٠ ليرة (تركية). ثمن الصبيان يتراوح بين ١٥ و٢٠ و٣٠ ليرة. الحبشيات يأخذونهن على الأكثر كزوجات.

في ٢٨ نيسان (ابريل) بدأت «حياة السفر بدون نوم تقريباً» (على ما يقول النقيب عبد العزيز). كان قد أعد للأمر عدته، لكن السفر في بلاد قاحلة حارة له نظامه الخاص. ويذكرنا الكاتب بأن القافلة ـ صغيرة كانت أم كبيرة ـ يجب أن تتقيد بالسير الذي يناسب الطقس الحار، وان تتكيف بسرعة الهجائن وبقية دواب الحمل (ومنها الأحصنة والحمير). ولأن المطرّ لم يهطل في السنة الفائتة، فإن الجمال كانت ناحلة الأجسام. ومن ثم فإن السفرة بين المدينتين، التي تحتاج عادة ٤ ـ ٥ أيام، احتاجت في هذه السنة ٧ ـ ٨ أيام (ص ٧٩). ولما وصل ركب عبد العزيز، وكان قد سبق الباقين، مساءً كان الدخول من البوابة المصرية. قال «وفي البدء كان شارع عريض تنيره المصابيح، ثم بوابة أخرى أمامها بازار ومقهى شاسع. بعد عبور هذه البوابة شوارع ضيقة مبلطة بصفائح حجرية مرصوفة، ودكاكين مرثية. في أحد الأزقة الجانبية كان بيت عمر. وأخيراً نحن في البيت. أعدوا عشاء وفيراً استغرقنا بعده في النوم» (ص ٨٤).

فضلاً عن الزيارات المألوفة بالنسبة لزوار المدينة المنورة مثل التبرك بقبر النبي (ص) وزيارة الحرم المدني، فقد اهتم عبد العزيز بزيارة اماكن أخرى كثيرة. ألم يكلف أصلاً الذهاب الى هذه الأماكن للتقصي والدرس وجمع الحقائق (كما يقولون اليوم). فقد زار مدرسة قازان الدينية المبنية حديثاً. «للمدرسة حوش صغير جداً حجراته في طابقين. اعتقد ان الجو فيها حار جداً. المسجد غير كبير. هناك بيوت لأجل الشيخ والمدرس والإمام والناظر وخلافهم ـ وهي بيوت الأوقاف. والدخل منها ينبغي إنفاقه في صالح المدرسة الدينيه؛ وهناك مكتبة غير كبيرة. كل شيء يبدو جديداً ونظيفاً جداً. مواطني متأدبون ومجاملون جداً معي». (ص ٨٥). وقد يتساءل الواحد منا: هل كانوا يعرفون الغاية من سفره الى الحجاز؟

زار الرحالة الحاج الشاب مكتبة شيخ الاسلام التابعة للأوقاف. تشغل المكتبة عمارة ممتازة لمدرسة جيدة، سجاجيد غالية، مناضد مريحة، فرش رخوة لأجل الجلوس. في أعلى العمارة شقة لأجل المدير. يوضع الكاتالوج بصورة جيدة جداً. على العموم يوجد ٧٠٠٠ مجلد.

كان عبد العزيز يتبع في المدينة المنورة، على نحو ما كان يفعل في مكة المكرمة، نظاماً يومياً لحياته وعمله. وهو يقول في ذلك، والوصف أصلاً للمدينة المنورة «بعد الصلاة (صلاة الظهر) نلتهم الغداء الذي حضّره حارث والذي يتألف عادة من مأكل واحد ـ الحساء. بعد الغداء الراحة حتى الساعة الثالثة ثم الشاي وبعده نخرج من

البيت لنجلس في المقهى. يتجمع ٥ ـ ٦ أشخاص من مواطنينا الذين نعرفهم ومن العرب. ونشرب القهوة وأدفع ثمنها قرشاً واحداً، ويعطونني على سبيل الردة بضع قطع نقدية محلية. لا أستطيع بعد ان اعتاد على شرب القهوة المحلية، أتنازل عن فنجاني لشخص ما آخر. الجمع المتنوع هو أكثر ما يهمني. فيه تقع العين على مسلمين من شتى انحاء الدنيا، وبينهم يتميز، بلا ريب، بأكبر قدر من الذكاء العرب البلديون (أي سكان المدن كما أشار الى ذلك قبلاً) سواء من حيث مظهرهم وألبستهم أم من حيث أدبهم ومجاملتهم» (ص ٩٢).

قضى عبد العزيز اثنين وعشرين يوماً في مكة المكرمة وواحداً وعشرين يوماً في المدينة المنورة. احتك بالناس كثيراً، وزار الأماكن المتنوعة وحادث الرجال من جميع الطبقات. ولأنه كان يعرف العربية وغيرها من اللغات، فإنه قلما وجد صعوبة في التحدث الى الناس، عاديين ورسميين، تجاراً ومدرسين وشيوخاً وأدلاء ومطوفين.

وأخيراً حان الوقت ليقرر مغادرة المدينة المنورة مع القافلة أم يتأخر. يقول في ذلك:

ففي «٢٦ أيار (مايو) ـ يوم الثلاثاء تقرر ان تأتي القافلة اليوم مساءً وتبيت قرب البوابة الانبارية للمدينة. فكرت فيما إذا كنت أسافر الآن مع هذه القافلة الأخيرة أم أبقى؛ وقررت أن أسافر. البقاء، حين يكون الحج قد انتهى، قلما يتسم بالأهمية والطرافة؛ وإذا بقيت تعين علي ان أبقى حتى كانون الأول (ديسمبر) أو كانون الثاني (يناير)، لأنه لم يكن متوقعاً وصول قافلة أخرى، وعندها لم يكن من الممكن أن تتسنى لي زيارة المراكز الهامة التي تمر بها حركة الحجاج». (ص ٩٩).

في ٢٧ أيار انطلقت القافلة من المدينة المنورة في اتجاه ينبع. (هنا تنتهي مذكرات عبد العزيز، ثم يأتي تقريره).

٣ ـ تقرير النقيب عبد العزيز دولتشين

ننتقل الآن الى التقرير الذي وضعه النقيب عبد العزيز دولتشين عن المأمورية الى الحجاز. طبع هذا التقرير في المطبعة العسكرية (في مبنى الأركان العامة). سانت بطرسبورغ سنة ١٨٩٩.

يتناول عبد العزيز فيه الحجاز طوبوغرافية ومدناً وإدارة وطرقاً وشعبًا وتجارة وزراعة وحجاجًا ومجاورين.

يذكّرنا المؤلف أنه اعتباراً من سنة ١٨٦٤ صارت مكة المركز الرئيسي لإدارة الولاية/ الحجاز، وفيها يقيم الوالي. وقد أصبح الحجاز فيما بعد (هكذا كان سنة ١٨٩٨) مكوناً من ثلاثة سناجق: سنجق مكة الذي يديره الوالي نفسه، وسنجق المدينة ويديره عامل (متصرف)، وسنجق جدة ويقوم على رأس ادارته قائمقام. وإلى جانب الوالي يقوم على رأس ادارة الحجاز الشريف (شريف مكة) الذي يعينه السلطان العثماني، ولكنه كان دوماً من أحفاد الرسول (ص). وجميع سكان الحجاز يخضعون للشريف. وقد يبدو هذا الأمر غريباً، أي قيام رأسين على إدارة واحدة. لكن ملاحظة عابرة ـ لكنها دقيقة ـ توضح هذا الذي كان يحدث. فقد ذكر عبد العزيز ان سلطة الحكومة العثمانية كانت تعتمد على القوة المسلّحة وفي أماكن مرابطتها. ومن ثم فإن هذه السلطة كانت مقصورة على المدن. ولم يقم الأتراك خلال القرون الأربعة التي حكموا فيها الحجاز أيّ صلات مع السكان المحليين العرب. ويضيف أنه لم يكن لهم أثر ثقافي (ص ١١٥ ـ ١١٦).

«مكة المكرمة يحكمها مباشرة الوالي والشريف، ولا توجد البتة أيّ سلطات مدينية (بلدية) حقاً. ولأجل حل الخلافات والدعاوى، يوجد ضرب من قاض مديني (بلدي) هو «المحتسب». وللنظر في القضايا الشرعية، يرسلون كل سنة من القسطنطينية الى مكة المكرمة والمدينة المنورة قضاة خاصين؛ وفضلاً عن ذلك، يوجد أربعة مفاتي (مفتين)، أي مفتي واحد لكل من المذاهب السنيّة. ولحفظ النظام في الشوارع لم أر سوى دورية عسكرية واحدة، قرب الحرم. أما في الأماكن الأخرى، فإن أمر المراقبة على النظام متروك للسكان أنفسهم؛ والسكان يقومون بالفعل جزئياً مقام رجال الشرطة» (ص ١٥٩).

«ادارة المدينة يرأسها العامل، أي حاكم سنجق المدينة المنورة، وللبت في

الدعاوى القضائية يوجد قاض تجري الاستعاضة عنه سنوياً من القسطنطينية، ومحتسب. وهناك مفتيان لأجل المذهب الحنفي والمذهب الشافعي. ولحفظ النظام تقام في زمن اقامة قوافل الحجاج دورية عسكرية خاصة في ساحة ضاحية مناخة. أما في الوقت الباقي فلا يظهر في الشوارع أي من حراس الأمن والنظام. وجميع بوابات المدينة يحرسها حراس؛ وفي الليل يغلقونها؛ ولا يسمحون بالخروج للقوافل إلا نهاراً وشرط ان يقدم البدو ترخيصاً خطياً من العامل» (ص ١٧٤).

وما دمنا قد أخذنا أنفسنا بالتحدث عن الادارة والأمن، فلنذكر أمرين: أولهما، ان الفرقة العسكرية التي كانت في المدينة (سنة ١٨٩٨) كانت تتبع الادارة المركزية في صنعاء. وأما الأمر الآخر، فهو الأمن في الطريق العامة. وقد وصف عبد العزيز ما يحدث على أيدي الذين سماهم الأوباش، وهم عصابات كاملة. كما ان قبائل برمتها تتعاطى السلب والنهب وتبيع ما تحصل عليه علناً وبكل حرية. يقول النقيب المؤلف: «ان البدو الذين يتعاطون النهب والسلب يتتبعون القافلة كما تتبع الذئاب الجائعة القطيع، متخفين نهاراً في مكان ما في الجوار، ملاحظين المسافرين المتخلفين، وخارجين الى القيام بعملهم عند هبوط الليل. وحين تتوقف القافلة في الظلام لأجل الراحة، ويحدث في هذه الحال الهرج والمرج العادي، يتسنى لهؤلاء الضواري ان يختلطوا مع أهل القافلة، ويقطعوا الزنانير التي تحفظ فيها النقود عادة، صاعقين مسبقاً بضعة أشخاص بضربات على القفا بالهراوة، الأمر الذي غالباً ما يسفر عن الموت. وعندما تكون القافلة قد وقفت وهدأ الهرج والمرج، وأضيئت المحلة بالمشاعل، يترصد هؤلاء الأشرار المسافرين الذين يتنحّون لقضاء حاجتهم ويبتعدون بدون احتراس، ونادراً ما يعودون. وفيما بعد، حين تغفو القافلة، يعمد هولاء البدو الى السرقة، متسللين خفية، ويسلبون كل ما تقع عليه أيديهم. وهناك كثيرون يعتقدون، وليس دون مبرر، ان مقترفي أعمال النهب والسلب هم سواقو جمال القافلة بالذات الذين، كما يقال، يعرفون جيداً جداً الأشرار، ويعطونهم التعليمات بصدد من ينهبون وكيف وما الى ذلك. ولهذا يحاول المسافرون بجميع الوسائل ان يستميلوا سواقي الجمال في قافلتهم، باعطائهم يومياً البخشيش وبقايا الطعام وما شاكل. والأتراك هم، لسبب ما، أكثر من يعانون من عمليات السلب والنهب هذه. وفي هذه السنة (١٨٩٨) بلغ عدد القتلى من الحجاج، اثناء سير القافلة من الحجاج من المدينة المنورة الى مكة المكرمة زهاء ٥٠ شخصاً، وبلغ في طريق العودة ١٠ أشخاص، والقتلى جميعهم تقريباً من الأتراك. ومرد ذلك، كما يفسرون، الى ان الأتراك المسلحين دائما يتنحون بلا احتراس عن القافلة آملين في سلاحهم، ويرفضون التكرم بالبخشيش على سواقي الجمال في قافلتهم، ويحملون، لما فيه اغراء للبدو، زنانير ضخمة جداً. ولكن كره العرب للأتراك يلعب هو أيضاً، أغلب الظن، دوراً معيناً في هذا المجال» (ص ١٢٣ ـ ١٢٤).

التقرير فيه وصف واف للمدن والحياة فيها. وسنكتفي بنقل الأهم ـ والأطرف أحياناً ـ من هذا الذي زودنا به عبد العزيز:

«البيوت في مكة مبنية في المعتاد من ثلاثة طوابق، مع أنه توجد كذلك بيوت من ٤ أو ٥ طوابق. الهندسة المعمارية أصيلة جداً. جميع الجدران تحفل بصفوف من نوافذ ناتئة تسمى «مشربية». أما مادة البناء فهي الحجر والآجر المحروق، المرصوصان في الأغلب على الطين؛ وكذلك الخشب، المستورد على الأغلب من جزر الزوند، والخشب الروسي (الألواح) المستورد من القسطنطينية. والبيوت مبنية الواحد بلصق الآخر، دون فجوات، سواء من حيث الواجهة أم من حيث الجانب الخلفي، دون أن تترك أي فناء.

«الطابق الأسفل ليس معداً في المعتاد للسكن، ويقوم جزئياً مقام الفناء ويستعملونه لأجل ايداع الاشياء الضخمة؛ والطوابق العليا تتشكل من شقات غير كبيرة، كل شقة من غرفتين أو ثلاث ومعزولة تماماً عن الشقات الأخرى، ومزودة بالمرافق اللازمة. فوق السقف تنتصب الجدران نحو ثلاثة ارشينات مشكلة بالتالي طابقاً مكشوفاً آخر، يستعملونه للراحة الليلية. ولأجل مجرى الهواء يتركون في هذه الجدران فتحات عديدة فيها شبكة من آجر محروق ملون بارز بسطوع على خلفية الجدران البيضاء، والسلالم، الخاصة الرئيسية التي تختص بها البيوت المكية الغنية الى هذا الحد أو ذاك انما هي المشربيات المبنية على طول الجدار الواجهي. هذه النوافذ تقام في الأطراف الناتئة لعوارض الأرضية وتشكل بالتالي ضرباً من شرفات مغلقة تبرز من وراء جدران المبنى مقدار ارشين ونصف ارشين تقريباً، وتغلقها صفوف من حصائر صاعدة ونازلة. والمشربيات تزينها من الخارج نقوش بديعة الرقة والأناقة أحياناً. ونتوء المشربيات يضعون في داخله دواوين واطئة ومخدات؛ وبما أنه أبرد مكان في الغرفة فإنه يشكل زاوية مفضلة. وفي بيوت أقل غنى، يصنعون مشربيات صغيرة أو نوافذ بسيطة؛ وفي مكة لا يعرفون زجاج النوافذ». (ص ١٢ ـ ١٤).

وينتقل عبد العزيز الى الحديث عن بيوت المدينة المنورة:

«الحجر هومادة بناء البيوت هنا كما في مكة. كذلك يستعملون الحمم (السائل البركاني) المتجمدة التي تغطي كل السهل في جوار المدينة المنورة. ومعمارية البيوت كما في مكة، ولكن يبنون أيضاً في الطوابق السفلى غرفة خاصة بدون نوافذ مزودة بمدخنة عريضة متصاعدة الى أعلى، وتجوز جميع الطوابق العليا. هذه الغرفة المسماة «القاعة» هي غرفة الاستقبال عند أهل المدينة لأنها أبرد من غيرها. وفي الطوابق العليا يبنون مشربيات؛ وعلى السطح يوجد مكان لأجل راحة الليل صيفاً والتدفؤ في الشمس شتاء».

ويمكننا، من متابعة ما كتبه النقيب عبد العزيز، ان نقابل بين شوارع مكة المكرمة وشوارع المدينة المنورة:

«لا تتميز شوارع مكة، لا باستقامة التخطيط ولا بدقته. الشوارع الرئيسية على ما يكفي من العرض بوجه عام، ٦ ـ ٨ ساجينات بالمتوسط. ولكن البيوت تتقدم تارة، وتتأخر طوراً عن الخط العام، ولذلك يختلف عرض الشارع الواحد ذاته في مختلف الأماكن. وعدا هذا، تنتصب في الشوارع اكشاك خشبية ملتصقة بالمباني ويحولونها في زمن الحج الى دكاكين؛ وأحياناً تحفل الشوارع بشقادف لا عد لها تابعة للقوافل القادمة؛ كذلك يصف هنا التجار طاولاتهم، ولذا تبدو الشوارع أضيق، ونظراً لعدم وجود الأحواش والأفنية يرمون كل الزبالة والنفايات في الشارع رأساً. وللسبب ذاته، يحفظون هنا كل الدواجن؛ وهنا أيضاً يحلبون الأبقار والعنزات. والشوارع هنا، كما في القسطنطينية، هي مرتع أسراب كبيرة من الكلاب الشاردة. ولا وجود في مكة للشوارع المرصوفة؛ ولا وجود للرش؛ وللإنارة، يعلق السكان أنفسهم هنا وهناك مصابيح الكاز (ص ١٤٤).

«إذا دخلنا المدينة عبر البوابة الغربية للضاحية المسماة «الانبارية»، التي لا يجيزون إلا عبرها دخول وخروج القوافل والركب، فإن العين تقع على شارع عريض، مخطط باستقامة، وتنتصب فيه أعمدة للمصابيح من كلا الجانبين وبيوت كبيرة. من الجانب الايسر في هذا الشارع، قرب البوابة بالذات، يقوم المبنى الشاسع للتكية المصرية التي تتفق وظيفتها مع وظيفة التكية المماثلة في مكة؛ من الجانب الايمن، مقابل التكية، تقوم ثكنات كبيرة، وبقربها مستشفى عسكري، وإلى أبعد، دار الحاكم المحلي ـ المحافظ. ينتهي الشارع بساحة شاسعة تتوقف فيها القوافل وتقوم فيها أسواق الحبوب والحطب والماشية. وضاحية مناخية تتصل بالمدينة عبر بوابتين، أهمها البوابة السورية التي تؤدي الى شارع ضيق لا يربو عره على ٤ ـ ٥ ساجينات، ولكنه أكثر شوارع المدينة المنورة انتعاشاً وحركة؛ وهو يعبر المدينة كلها وينتهى عند بوابة الحرم. وهناك شارع رئيسي آخر، أوسع بقليل وتقوم فيه أفضل البيوت في المدينة المنورة؛ وهو يتجه شمالا، بموازاة الشارع الاول، وينتهي الى بوابة أخرى من الحرم. القسم الباقي من المدينة تتقطعه في اتجاهات مختلفة ازقة ضيقة موزعة بشكل شبكة مشوشة خارق التشوش» (ص ١٦٢).

وعن سكان مكة المكرمة يقول عبد العزيز دولتشين:

«تحسب السلطات التركية ان عدد السكان يتراوح بين ١١٠ و١٢٠ ألف نسمة، بينما يحسب السكان انفسهم ان عددهم يتراوح بين ٧٠ و٨٠ الف نسمة؛ وهذا الرقم الاخير يبدو لي اقرب الى الحقيقة.

«بموجب المعطيات التركية الرسمية، يبلغ عدد السكان الدائمين في المدينة المنورة ٨٠ ألف نسمة، ولكنه، نظراً لسعة المدينة، بالكاد يربو على نصف هذا العدد.

والسكان أنفسهم يعتبرون هم أيضاً ان عددهم يبلغ زهاء ٤٠٠٠٠ نسمة.

«يتألف السكان من عناصر متنوعة كما في مكة. وسكان الحجاز الاصليون هم هنا، في المدينة المنورة، أقل مما في مكة؛ وجميع الافراد الذين يقولون عن أنفسهم انهم عرب، فيما عدا استثناء طفيف، غرباء تجنسوا من زمان بالجنسية الحجازية. ويتألف نصف السكان من قادمين من زمن غير بعيد ـ من أتراك وجزائريين وتونسيين ومصريين وسرتيين وتتر وغيرهم.

«وقد بدا لي عرب المدينة المنورة ألطف من سكان مكة؛ فهم بشوشون جداً، مضيافون، ودودون، مستعدون دائما لمد يد العون عند الاقتضاء، رفاق ممتازون في الطريق؛ وسكان الحجاز الآخرون يفسرون على طريقتهم هذه السمات من طبع أهل المدينة المنورة قائلين ان بركة النبي لا تزال تشملهم لأنهم كرموه بعد الهجرة من مكة.

«في عداد السكان القادمين يوجد بضع مئات من السرت؛ وهم هنا على الاغلب فعلة عاديون، غير ماهرين، ينافسون الارقاء بنجاح. والاتراك والمصريون وغيرهم يلعبون هنا نفس الدور الذي يلعبونه في مكة».

«وفي المدينة تعيش ٣١ عائلة من التتر من رعايا روسيا، هاجرت الى هنا في أزمان مختلفة ولأسباب مختلفة، وأحبت هذه المدينة وشكلت هنا جالية صغيرة في ضاحية مناخة» ص ١٦٤.

«الحياة الفكرية عند هذا الشعب القدير واللطيف لم تتقدم منذ ذلك العهد المجيد الذي كان فيه العرب يسيرون في طليعة الحضارة، وليس هذا وحسب، بل على العكس تراجعت أيضا؛ وتلك العلوم التي ابتدعوها وطوروها فيما مضى لفها النسيان تماما في الوقت الحاضر. بل ان التعليم الاولي البسيط ـ مجرد القراءة والكتابة ـ محصور ضمن حلقة ضيقة جدا؛ وأشراف مكة الذين يقومون بدور قادة الحجاج اثناء القيام بمراسم الحج لا يعرفون بأغلبيتهم الساحقة لا القراءة ولا الكتابة. وفي المدارس المحلية، كما في جميع المدارس الدينية في اي مكان آخر، يعلّمون العلوم الرتيبة الدينية ذاتها بتفاصيلها الدقيقة جداً وغير الضرورية، مزدرين المواد الضرورية كالحساب والجغرافية مثلاً. ولكن المدارس الدينية ايضا تحفل بالناس القادمين، غير المحليين، بينما المحليون استثناء فيها.

«يرد الى مكة عدد تافه جدا من الجرائد المصرية وعدد اقل من الجرائد التركية، وفي الحال يصبح مضمونها معروفا في المدينة كلها، نظرا لشدة تحرقها الى الانباء وبالغ اهتمامها بالحياة السياسية للشعوب الاخرى» ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

يبدو ان مدارس مكة المكرمة يتوقف التدريس فيها أيام الحج، لذلك فقد كان حديث عبد العزيز عنها مقتضباً وخارجياً. أما في المدينة فإن الدروس لم تتقطع أيام تجمع الحجاج. لذلك، كما يقول، أتيح له الاطلاع بمزيد من التفصيل على المدارس

الدينية في المدينة المنورة. فهو يقول، مقابلاً الامر على ما هو عليه في مكة المكرمة:

«كلما أقوله هنا عن هذا النوع من المدارس يصح كذلك على المؤسسة التعليمية من هذا الطراز في مكة، التي لا تختلف الا من حيث قوام التلامذة؛ ففي مكة يشكل الماليزيون الاغلبية، وفي المدينة المنورة الاتراك والسوريون والتتر وغيرهم.

«في المدينة المنورة ١٧ مدرسة دينية تضم قرابة ٢٥٠ تلميذاً، وجميع المدارس الدينية تشكل أوقافاً تركية بوجه الحصر، ويؤمن لها دخل معين يجري إنفاقه على المعلمين وعلى منح التلامذة النقود لأجل الطعام. وأغنى المدارس الدينية مدرسة المحمودية حيث يتقاضى التلميذ ليرة تركية واحدة في الشهر؛ وفي المدارس الباقية ينال التلميذ بالمتوسط في كل شهر مجيديتين (حوالى ٣ روبلات و٥٠ كوبيكًا). أما العائشون في مدرسة قازان، فيعيشون على حسابهم.

«جميع مباني المدارس الدينية مبنية حسب طراز واحد - عمارة مربعة الزوايا من طابق او من طابقين مع حوش في الوسط تطل عليه جميع أبواب غرف غير كبيرة - أي مناسك معد كل منها لإيواء شخص واحد. وعدد هذه الغرف لا يربو عادة على ١٠ - ١٥؛ وعددها في المحمودية ٢٦، وفي مدرسة قازان ٤٠. وفي المدارس الدينية جميعها تقريبًا توجد مكتبات وغرفة أوسع هي صالة للمحاضرات. ولكل مدرسة دينية ناظرها، وهو يعيّن وفقا لمشيئة صاحب الوقف، كما انه يشرف على قبول وصرف التلامذة وإعطائهم النقود الواجبة، والتقيد بالنظام، وخلاف ذلك. وعدا الناظر، ينبغي ان يكون ثمة معلم، أي مدرّس يعيّن كذلك بإشارة من صاحب الوقف أو ورثته.

«في عداد التلامذة يقبلون ابناء جميع القوميات ما عدا السكان المحليين، ومن جميع الاعمار، وفقًا لعدد الغرف الفارغة، دون السؤال عن المعارف التي يملكها طالب العلم. وعدد سني الاقامة في المدرسة غير محدد. وهناك من يعيشون فيها ٢٠ سنة. ولا تتخذ أية تدابير للإجبار او الحث او التشجيع في الدراسة او للتحقق من النجاحات. ولا يصرف التلامذة خلافا لارادتهم الا في حال اقترافهم أعمالاً غير لائقة جداً - وليس ثمة تقريباً مثال على ذلك - وكذلك في حال زواجهم. ونظرا لهذه النظم، يعيش على الدوام في المدارس الدينية عدد عديد من شتى الافراد الذين لا مأوى لهم والذين لا علاقة لهم البتة بشؤون الدراسة، وذلك لمجرد الرغبة في الانتفاع من الشقة الجاهزة والنقود للعيش. وفي كل مدرسة دينية تقع العين على بضعة شيوخ هرمين جاؤوا الى المدنية المنورة لكي يقضوا هنا اواخر ايامهم ولكي يدفنوهم على مقربة من قبر نبيهم.

«تبدأ الدروس في المدرسة فور صلاة الصبح، مع طلوع الشمس؛ وجميع التلامذة والعائشين في المدرسة ملزمون بالاستماع الى محاضرة واحدة من مدرسهم، ثم يتصرفون بوقتهم كما يطيب لهم، دون اية رقابة. وعادة، يذهب الراغبون في تحصيل

العلم الى الحرم حيث يلقي ائمة المدينة المنورة، الواسعو الشهرة، الخطب في ساعات معينة من النهار، وكل منهم في موضوعه؛ ويتجمع حوله عدد كبير من المستمعين. وحين يجد التلميذ انه يملك ما يكفي من المعارف في الموضوع المعني، ينتقل الى امام آخر، وهكذا دواليك.

«ومن عداد مواضيع الدراسة، باستثناء العلوم الدينية المدرّسة في جميع المدارس الاسلامية، اشتهر ائمة المدينة المنورة بتفسير القرآن الكريم وبخاصة تفسير الاحاديث النبوية. وكثيرون من التلامذة يتوافدون الى المدينة المنورة لسنة او لسنتين خصيصًا لتحصيل هذه العلوم من معلميها.

«ولكل من يعيش في المدرسة الدينية مفروشاته ولوازم منزلية بسيطة؛ وهو يهتم شخصياً باعداد الطعام لنفسه. وحوالي الساعة ٩ مساءً تقفل المدرسة أبوابها؛ وقبل ذاك يعود الجميع في المعتاد الى غرفهم» (ص ٧٠ - ١٧٢).

عدا المكتبات غير الكبيرة الموجودة في كل مدرسة دينية توجد في المدينة المنورة مكتبتان عامتان غنيتان نسبيا: مكتبة شيخ الاسلام ومكتبة المحمودية، وفي كل منهما قرابة ٦٠٠٠ مجلد، أغلبها كتب مخطوطة دينية المضمون، وبينها نسخ نادرة جدا. والمكتبات، مثلها مثل المباني التي تقوم فيها، تمولها الاوقاف؛ ومن أموال الاوقاف يتقاضى قيمو المكتبات رواتبهم» ص ١٧٤.

واشغال السكان في مكة المكرمة تتمركز حول الحجاج. وأثناء توافد الحجاج تتحول المدينة الى بازار هائل ينتشر من أبواب الحرم بالذات في جميع الشوارع والازقة.

«علاوة على استيراد كمية كبيرة من المنتوجات المعيشية، لتلبية حاجات جموع الحجاج البالغ عددها اكثر من مائة ألف، يستجلبون الى هناك كمية كبيرة من شتى البضائع من القسطنطينية ومصر والبلدان المجاورة في اسيا، وذلك مع قوافل الحجاج او بالبواخر الى جدة. والقسطنطينية هي الوسيط الرئيسي في تجارة البضائع الاوروبية؛ ومنها تحصل مكة على كل الاحتياطي من الاقمشة القطنية والصوفية والاحذية والخردوات والبقالة والطحين الروسي وكاز باكو وخلافها.

«مصر تقدم على الاغلب المنتوجات المعيشية: الحنطة، الفول، الشعير، الذرة الصفراء، العدس، الرز، السكر، زيت الزيتون، وما الى ذلك.

«سوريا ترسل مع المحمل الدمشقي وبحراً، عبر بيروت، كمية كبيرة من البضائع الحريرية، والالبسة الحريرية الجاهزة، والمناديل المطرزة بالحرير، والفواكه المجففة، والفالوذة.

«بغداد والبصرة ترسلان مع قوافل الحجاج البضائع الحريرية والصوفية، والرز، والسمنة البقرية والسمنة الغنمية.

«بلاد فارس ترسل السجاد والحصائر والعباءات وغير ذلك من البضائع الصوفية.

«الهند ترسل البضائع المستعمرية، والآنية من النحاس والبورسلين والمطبوعات والمرجان والمواد العلاجية والمواد العطرية، وخلافها.

«اليمن ترسل البن، وعين الشمس والعقيق.

«جزر السند ترسل الكندر.

«في مكة ينتجون كمية تافهة جدًا من الاشياء التي يجري تصريفها بين الحجاج القادمين؛ والمقصود هنا المسابح المخروطة من الصدف وغير ذلك من المواد، والخواتم الفضية المرصعة بأحجار عين الشمس اليمني.

«ثم ان سكان مكة يكسبون مبلغًا كبيرًا من النقود بتأجير الحجاج الغرف والشقات وقيامهم بمراسم الحج بتكليف من الحجاج او بالنيابة عن أقاربهم الغائبين، وقيامهم بدور المرشدين في حال اداء الفرائض والمراسم، وتأجير الحمير التي تحظى دائما بطلب كبير نظرًا لعدم وجود عربات الحوذيين، وما الى ذلك.

«اثناء الحج، لا يتعاطى السكان المحليون وحدهم التجارة، بل يتعاطاها كذلك تجار قادمون كثيرون. وهناك تجارة اكبر، كما قالوا لي، في أيدي الهنود؛ ولم يتسنَّ لي ان أعرف مقدار التبادل التجاري. من الممكن بصورة تقديرية جدا تخمين المبلغ الذي يخلفه الحجاج سنويا في مكة بين ٥ و٨ ملايين روبل» (ص ١٤٨ ـ ١٥٠).

عندنا، من تقرير عبد العزيز، أرقام تتعلق بأسعار السلع اليومية في مكة والمدينة لسنة ١٨٩٨، وهي، كما يذكر القراء، السنة التي زار فيها الحجاز (والرطل المقصود هنا هو الليبرة وهي ٤٥٣ غرامًا). [راجع الجداول في الصفحة التالية].

يقول عبد العزيز دولتشين عن الماء في المدينتين المقدستين ان مكة: «تستعمل الماء من نوعية جيدة وبكمية كافية. ولا يحدث نقص في الماء حتى إذا كان تجمع الحجاج كبيرًا.

«والماء يساق من على بعد ٧٠ فرستا، من نبع عين (...) يقع في التلال السفحية من جبل القرى، ثم يلتقي مجروره مع ساقية تنطلق من وادي النعمان، فيطلق عليه اسم عين الزبيدة، باسم زوجة خليفة بغداد الشهير هارون الرشيد التي سيق الماء للمرة الاولى عام ٨٢٧ بفضل أموالها حتى جبل عرفات؛ وفي عام ١٥١٩، في عهد السلطان سليمان القانوني، تم تمديد مجرور الماء حتى مكة، ولكن الامطار الوابلة كانت تفسده دائماً، ولذا كان يتعطل في غالب الاحيان. وللمرة الأخيرة جرى اصلاحه بأموال مجموعة من الحجاج وتبرع بها مختلف الناس في عهد والي الحجاز عثمان باشا؛ وبهذاالنحو لا يزال يؤدي وظيفته في الوقت الحاضر (ص ١٥٤).

«وحصلت المدينة المنورة على الماء في سنة ١٥٩٠ وذلك من آبار عين الزرقة

في مكة المكرمة

في سنة ١٨٩٨، سعر رطل واحد من	اثناء الحج	في الوقت العادي
	بالكوبيكات	
الضأن	١٢	١٨
الطحين من الصنف الثاني	٢٥	٢٧
السمنة البقرية	٤٠	٣٥
زيت الزيتون	٥٥	٥٠
الدهن	١٥	١٨
الشاي الاسود	٧٠	٧٠
الشاي الاخضر	١٠٠	١٠٠
السكر	١٧	١٨
الشمع الستيريني	٢٦	٢٥
الكاز	٦	٦
الخبز شبه الاسمر	٩	٦

في مكة المكرمة

في سنة ١٨٩٨، سعر رطل واحد من	في زمن تجمع الحجاج	في الوقت العادي
	بالكوبيكات	
لحم الضأن	٥	٦
الطحين المحلي	١٤	١٢
السمنة البقرية	٣٥	٣٥
زيت الزيتون	٥٥	٥٠
الدهن	١٣	١٣
الشاي الاسود	٧٠	٧٠
الشاي الاخضر	١٠٠	١٠٠
السكر	١٩	١٨
الشمع الستيريني	٢٧	٢٧
الكاز	٨	٧
الخبز شبه الاسمر	١٠	٧

الواقعة على بعد زهاء خمسة فرستات عن المدينة، قرب جامع القبة. ونظام توزيع مجارير الماء كما في مكة. الانبوب الحجري يمتد على عمق زهاء ساجينين وله كثرة من منافذ الهواء ـ الآبار المرفوعة كثيراً تخوفاً من ظاهرات السيول فوق سطح الارض. ولاستعمال الماء توجد أحواض مبلطة بالحجر، ولكن الناس لا يستقون الماء من المزراب، بل يمررونه بواسطة حنفيات نحاسية عبر خراطيم خاصة الى القرَب مباشرة. ونقل الماء وتوزيعه على البيوت وحفظه كما في مكة. وهذا الماء لا يستعملونه في المدينة المنورة الا لأجل الشرب والطعام؛ أما الحاجات الأخرى فتلبيها الآبار القائمة في كل بيت. والماء في المدينة المنورة جيد، ولا نقص فيه» (ص ١٦٦ ـ ١٦٧).

ولم يخف النقيب تقززه من الأوضاع الصحية العامة في المدينتين الكبيرتين، ذلك ان جميع المرافق الصحية كانت مهملة. ففي وقت كانت البيوت نظيفة داخلياً وخارجاً من حيث الدهان والتبييض، فإن الشوارع كانت رائحتها تزكم الأنف بسبب رمي النفايات وتنظيف الجور وما الى ذلك.

ولعلّ من أطرف فصول التقرير وأفيدها ذلك المتعلق بالحجر الصحي بسبب الأوبئة التي تنتشر عادة بين الحجاج وهم في زيارة الأراضي المقدسة.

وقد أورد عبد العزيز حديثين عن محجرين صحيين عرف عنهما إما مباشرة أو بواسطة دقيقة. فقد قضى هو بعض الوقت في محجر الطور اثناء العودة من الحجاز (١٨٩٨)، وكانت المدة اثني عشر يوماً. لكنها كانت أيام كرب وملل في مكان لا يصلح لأن يكون محجرًا صحيًا. ويقابل هذا المحجر بالمحجر الصحي في بيروت، الذي يقول عنه: «يقع المحجر الصحي في بيروت في محلة جميلة بين البساتين على ساحل البحر بالذات الى الشمال من المدينة. وعن حق وصواب يعتبر الحجاج اقامتهم في هذا المحجر استراحة مستطابة». وقد سر الحجاج من المكان ومن تجهيزاته ودكاكينه الواسعة المزودة بجميع السلع والمآكل الضرورية؛ ونعموا بالخضراوات والفواكه «واشترى الحجاج للمرة الأولى لحم الضأن الجيد (الذي وصفه القوم بقولهم كما عندنا في روسيا). وتحسنت صحة الحجاج» (ص ٢٢٣).

٤ ـ الحجاج الروس المسلمون

أدى الحجاج الروس المسلمون فريضة الحج. وكان عبد العزيز حاجاً «رسمياً» ترتب عليه تدوين ملاحظاته ونقلها صحيحة الى رؤسائه.

وهناك أمران مهمان عرض لهما عبد العزيز دولتشين في تقريره: الأول، يتعلق بالأوبئة والتدابير اللازمة لتخفيف آلام المرض ومنع انتشاره. وهناك اقتراحات عملية تقدم بها دولتشين لتخفيف المصاب. وقد وضع لذلك مخططاً مفصلاً لا أرى أي فائدة من ايراده هنا. لكن قارىء هذه السطور يمكن ان يعود الى تفاصيل المشروع (ص ٢٤٨ ـ ٢٥١). فضلاً عن ذلك فهناك التدابير التي نصح بها الدكتور صالح صبحي (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥).

«في طريق العودة يصل حجاجنا الى القسطنطينية؛ وهي النقطة الاخيرة التي يمكن شراء التذاكر للسفر اليها، وهي كذلك مكان لأجل وقفة قد تطول أو تقصر. وإذا كان الحجاج العائدون من الحجاز لا يملكون الوثائق التي تتيح لهم حرية الدخول الى روسيا، فإنهم يأخذون أمتعتهم من السماسرة ويحاولون أن يصنفوها بحيث يكون من الاسهل تمريرها عبر الحدود؛ مثلاً، يسكبون قسماً من ماء زمزم في زجاجات، ويتركون القسم الآخر لأجل الارسال فيما بعد إذا سنحت الفرصة. ويستعلمون عن أسهل السبل للعودة، وما الى ذلك.

«وقد عرفت عن حجاج سنة ١٨٩٨ ان أكثرهم يسرًا عادوا الى روسيا بالسكة الحديدية، عبر فيينا وفرصوفيا، أما الآخرون فقد انتظروا طويلاً في القسطنطينية، واستأجروا بواخر خاصة نقلتهم الى فيودوسيا.

«والحجاج العائدون يستقبلهم أقاربهم ومعارفهم بمهابة واحتفال كما في حال توديعهم، ويكونون في الآونة الأولى موضع انتباه وتقدير خاص في أوساطهم. ويتوافد جميع الاقارب المقيمين في المنطقة المعنية لرؤيتهم؛ والمطلوب من الحاج الجديد الحديث بالتفصيل عما رآه وسمعه أثناء هذه الرحلة الطويلة».

والسؤال الذي يطرحه عبد العزيز في نهاية المطاف هو «أي تأثير يمارسه الحج في المسلمين الروس»؟ ويجيب بقوله:

«بقدر ما استطعت ان أراقب في موطني وأثناء المأمورية الأخيرة، ينقسم حجاجنا الى قسمين: القسم الأول، يتألف عادة من الشيوخ، وهم أناس ذوو ثقافة

ضعيفة جداً، ينظرون بلا مبالاة وبلا مشاركة الى كل ما يحيط بهم، ولا يبتغون غير الهدف النهائي من السفرة، وينفذون على العمياء شعائر الحج بما فيها أقل التفاصيل؛ وهم يرون حتى في عمليات النهب والسلب التي يقوم بها البدو سراً يستحيل فهمه ومكيدة من الشيطان للحيلولة دون اداء الشعائر المقدسة، ويعتبرون جميع التدابير الصحية أمراً غير ضروري اطلاقاً، لأنه لا ملاذ على كل حال من القضاء والقدر، وما الى ذلك. وإذا سألهم أحد بعد العودة من الحج عما رأوه اثناء الرحلة، فليس بمقدورهم أن يفيدوا شيئاً غير بعض الحكايات والخرافات التي سمعوها في الطريق عن مختلف المعجزات. وبعد العودة الى البيت، يتحلون ببالغ التصوف والتقوى، هذا إذا لم يكونوا كذلك من قبل، وغالباً ما يكرسون بقية العمر للصلاة بوجه الحصر، ويتجنبون الشؤون والهموم الدنيوية» (ص ٢٢٥).

وما الذي يحدث للآخرين، أي القوم الذين هم أكثر تطوراً، والذين لهم اهتمامات متنوعة؟

«هؤلاء وعددهم يتزايد سنة بعد سنة، يحللون ويفكرون، ولهم معيار معين. ومنذ أولى الخطوات بالذات بعد الخروج من روسيا، ينفسح أمامهم مجال غني وشيّق لأجل المراقبة والمقارنة. في البدء تتملكهم خيبة أمل مرّة في عاصمة الخلافة ـ أي في القسطنطينية التي يعتبرها مسلمونا ضرباً من العجائب. فإن الشوارع الضيقة والقذرة، والبيوت الرديئة، وانعدام النظام، كل هذا يحمل على المقارنة عن غير قصد مع اوديسا المجاورة التي ينطلق منها حجاجنا في أغلب الأحوال. ثم يتعرف حجاجنا على عمليات استحصال جوازات السفر وعلى النظم التركية وعلى الرشوة السائدة في كل مكان، ويغادرون القسطنطينية بتصور مغاير تماماً. وبعد ذلك يتسنى لهم ان يسمعوا ويروا حقارة البواخر التركية التي غالباً ما تحدث لها أحداث غريبة، كنفاد احتياطي الفحم في وسط البحر، أو التوقف أسابيع عندمدخل قناة السويس بسبب عدم دفع النقود المتوجبة عن المرور، ورفض تقديم الفحم لها في المرافيء، والخ.. وفي الحجاز يندهلون لكون البدو، ابناء موطن النبي، ينهبون في قلب الاسلام اخوانهم في الدين القادمين ببالغ الصعوبة لاداء الشعائر المقدسة التي ينص عليها دينهم الحنيف؛ وتذهلهم كذلك جرأة عمليات النهب هذه ووقاحتها وغياب كل عقاب عليها ووقوعها في وضح النهار وبحضور الجنود الاتراك؛ ويدهشون لما تبديه السلطات من لا مبالاة تامة ومن انعدام كل تعاطف واهتمام بمصائر الحجاج. ويعجبون بالغ العجب حين يرون من جانب سكان الحجاز الاصليين الذين اعتادوا في الوطن اعتبارهم قديسين أو يكاد، موقفاً طائشاً من اداء شعائر الدين الأساسية وهيمنة المصالح النقدية بنظرهم على جميع المصالح والاهتمامات الأخرى. ويبدو لهم من الغريب جداً انعدام النظام والنظافة في «أم القرى» وفي «مدينة النبي» بالذات، ولا يطيب لهم البتة غياب السكون

والاجلال في المساجد بالذات، وقرب الكعبة المقدسة، وعند قبر النبي (صلعم)؛ ويتسنى لهم ان يسمعوا عن ارتشاء الشريف، وعن استئثاره بالاعانات المالية المقررة لبعض قبائل البدو؛ ومن جراء ذلك يضطر الحجاج التعساء الى الدفع من جيوبهم وصحتهم» ص (٢٢٦).

ومع ذلك فإن للحج أثراً روحياً في النفوس:

«لا يجوز ولا يمكن ان ننكر ان الحج يساهم في رفع الشعور الديني نوعاً ما؛ فإن قسماً من الحجاج من الفئة الثانية يغيرون حياتهم الروحية كثيراً بعد عودتهم الى الوطن، ويحاولون التقيد بقواعد الدين بمزيد من الدقة، ويؤمنون أنهم قد تخلصوا من الخطايا السابقة، ويحاولون عدم تفويت مواعيد الصلاة والصيام في المستقبل، وتجنب الاشياء الممنوعة، كالخمر مثلاً؛ والبعض يحرم نفسه حتى المتع البريئة كالمسرح او السيرك. ولكن يمكن القول قطعاً على العموم ان حجاجنا جميعهم تقريباً يعودون الى الوطن بنظرات تغيرت كثيراً، وأكثر نضوجاً وتبصراً، وبموقف أوعى من وضع الأمور السياسي؛ فإن تلك الصبغة التي كانوا يتصورون بها من قبل تركيا الاسلامية ورأسها الخليفة تزول تماماً.

«تبدو الاشارة الى أن أغلبية حجاجنا يتصرفون بعد العودة بالغ التمالك بين ابناء شعبهم فيما يتعلق بانتقاد ما رأوه لاعتبارهم أنه من غير اللائق التنديد بالبلدان الاسلامية والأماكن المقدسة، ولعدم رغبتهم في اثارة شتى الملامات؛ وإذا ما تحدثوا، ففي وسط الناس القريبين منهم فقط» (ص ٢٢٧).

عبد العزيز دولتشين أعد تقريراً رسمياً استجابة لمهمة، أو كما يسميها مأمورية، كُلِّف بها. ومن ثم يدون اهتمامه بالناحية السياسية من الحج. ومن هنا جاءت ملاحظته التالية:

«لقد أثارت اهتمامي بنحو خاص مسألة ما إذا كان للحج في الظرف الراهن شأن سياسي ما من حيث تقارب المسلمين من مختلف القوميات؛ ولكن الحج الى مكة، باقتناعي الصادق، وعلى الأقل في الظرف الراهن ونظراً لوضع الشعوب الاسلامية الحالي لا يؤدي الى أي تقارب، بل ان فكرة مثل هذا التقارب نفسها لا وجود لها. وفضلاً عن الماليزيين وعن سكان الهند الغربيين تماماً عن سائر الحجاج من حيث اللغة ومن حيث الاصل، وعن سكان ايران المنعزلين بالخلاف الديني، ينعزل الحجاج من جميع القوميات الأخرى بعضهم عن بعض بكل شدة، ويعاملون بعضهم بعضاً بغير صداقة ومودة. وحتى قرغيزيونا وتترنا لا يريدون ان يعرفوا بعضهم بعضاً. إن أوضاع الحج نفسها، أي الفريضة ذات الطابع الديني الصرف، والقصيرة جداً والمتسرعة جداً، والادراك العام لوجود الخطر مثل نشوب وباء للتو ـ كل هذا لا يساعد في ظهور

هذه الفكرة ولا يدفع الى القيام بالمظاهرات السياسية. وعند الجميع فكرة واحدة فقط ـ انجاز الشعائر بأسرع وقت، والتفرق بأسرع وقت.

«ان التجمع في مكة لا يزال يحتفظ بالنسبة لسكان الحجاز وحدهم دون غيرهم ببعض الاهمية السياسية الداخلية الى جانب الاهمية الدينية والتجارية؛ فهنا يجري التصالح بين مختلف القبائل المتعادية، ويدفعون الفدية عن الدم، والخ...» (ص ٢٢٧).

والعبارة التالية تستحق الوقوف عندها مع بعض التساؤل. هل كان عبد العزيز هنا داعية روسيًا، يريد ان يرفع من شأن روسيا؟ قد يكون. فتكرار العدالة الروسية والاهتمام بما تقوم به روسيا مثلاً، يدخل في باب الدعاية. إلا أننا لا يجوز ان ننسى ان الرجل، ولو أنه كان من رعايا روسيا، فهو مسلم ثري. فضلاً عن ذلك فالرجل تربى في أحضان النظام العسكري. فهل كانت هذه الملاحظة مجرد وضع الأمر في نصابه؟ كنا نود لو أننا عثرنا ـ أو عُثِرَ لنا ـ على شيء يمكنه ان يوضح هذه القضية. على كل فنحن ننقلها هنا أملاً في ان نعثر على من ينير لنا السبيل.

«تملكتني دهشة مستطابة جداً لكون وطننا العزيز يتمتع بجاذبية خاصة أيضاً بين سكان الحجاز البعيد. فهناك كذلك يتحدثون عن جبروت القيصر الروسي وعن النظام في روسيا، والأهم، عن العدالة في روسيا. وغالباً ما تسنى لي ان ألبي فضول السكان المحليين الذين يهتمون بالغ الاهتمام بالمعلومات عن عظمة الامبراطورية الروسية وعن مدنها، وعن عدد سكانها وما الى ذلك. بأي سبيل أمكن ان تنتشر شهرة روسيا وتصل حتى الى هذا البلد البعيد؟ لا يمكن تفسير هذا الواقع إلا بأحاديث حجاجنا الدائمة المفعمة اعجاباً واعتزازاً بالوطن، وبنقلهم شهرة روسيا الى الحجاز وإن بصورة غير واعية أحياناً. فإن مسلمينا، إذ يصلون الى ربوع الجزيرة العربية الشحيحة والقائظة، الخالية من أبسط أسباب الرفاه ومن أبسط المرافق، والتي تتبدى فيها ببالغ السطوع أفضليات الوطن البعيد في جميع الميادين يتحولون فجأة الى مواطنين في منتهى الحماسة ويتغنون ويشيدون في كل مناسبة بطبيعة روسيا وثرواتها ونظمها ويرفعونها الى السحب. وجميع النظم والأوضاع في الحجاز تستثير في الحال المقارنة. «روسيا لن تجيز النهب في أراضيها»، «القرى هناك تتمتع بنظام أكبر وبقدر من المرافق وأسباب الرفاه أكثر مما تتمتع بها المدن هنا»، «في الطرق التي يمر بها عشرات الآلاف من الحجاج، كانت امتدت السكك الحديدية من زمان»، «المجرمون عندنا في روسيا لا يتخلصون من العقاب مهما دفعوا من النقود». وطبيعة الحجاز الشحيحة التي لا تنتج أي شيء تقريباً تعطي حجاجنا موضوعاً لأحاديث لا عد لها عن ثروات بلادنا، عن وفرة ورخص المأكولات فيها، الامر الذي يستمع اليه بانتباه خاص البدو شبه الجياع. وإذا قال حجاجنا «كما عندنا في روسيا»، اعتبر قولهم هذا من فائق المديح. وتأثير روسيا هذا أصبح، على ما يبدو، ملحوظاً في الآونة الأخيرة.

ويستفاد من أقوال الحجاج القدماء الذين زاروا مكة منذ ١٥ ـ ٢٠ سنة انه صار من الافيد في السنوات الأخيرة فقط ان يقول الحاج عن نفسه انه من رعايا روسيا، لأن هذا الانتماء يوحي بقدر أكبر من الاحترام» (ص ٢٢٧).

وينتقل عبد العزيز بعد ذلك الى توضيح شعور الحجازيين نحو الدول الكبرى التي يأتي من رعاياها حجاج كثيرون. فيتحدث عن الشعور نحو انكلترا ثم يشير الى هولندا وفرنسة اشارة عابرة.

«على نقيض روسيا، لا يعطف سكان الحجاز كثيراً على انجلترا؛ فإن الانجليز يشتهرون هنا بأنهم أمة من الصحيح انها متفننة وبارعة ولكنها غدّارة وقاسية. وفي جميع الأحاديث والقصص والحكايات التي يعيش بها شعب الحجاز، يعود الى الانكليز دور الناس الاوفر دهاء ومكراً، دور من لا يبتغون سوى نفعهم. ويعتبر أهل الحجاز بصورة قاطعة ومبرمة ان الانجليز أيضاً مسؤلون عن جميع الاضطرابات والفتن: الحركة في السودان، الانتفاضة في اليمن، هجوم ايطاليا على الحبشة، كل هذا، برأيهم، هو من صنع انجلترا. وفي شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٨٩٨ تقابلت صدفة في القاهرة مع بضعة اشخاص من سكان مكة النافذين، العائدين من القسطنطينية، الى حيث مضوا لشراء البضائع. حكيت لهم عن الأحداث التي وقعت في شهر أيار(مايو) عندنا في انديجان، ورغبة في معرفة ما يقال عنها في القسطنطينية سألت ـ من أين أمكن ان ظهرت عند السرت مثل هذه الفكرة الطائشة؛ فقرر سكان مكة الاجلاء في الحال ان هذه بلا ريب من مكائد الانجليز. من الصعب ان أقول من أين ينتقل الى الحجاز هذا النفور من الانكليز ـ أغلب الظن، من مصر، حيث، كما اقتنعت، لا يحبونهم كثيرا؛ ولربما من الهند.

«عن هولندا لا يعرفون في الحجاز اي شيء تقريباً، ومرد ذلك، على الارجح، الى ان رعاياها، الماليزيين يعيشون في عزلة مفرطة. كذلك يتحدثون في الحجاز قليلاً جداً عن الفرنسيين» (ص ٢٢٨).

ويختم عبد العزيز تقريره بالكلمات التالية، وفيها ملاحظات قاسية ومقترحات عملية لتحسين الامورموقتا، ولذلك فإننا ننقلها هنا بكاملها:

«لو كان الحجاز خاضعاً لحكومة أخرى، أشد همة ونشاطاً من الحكومة العثمانية، لحظي أغلب الظن، بقدر معين من الرفاه واليسر؛ ولتوفرت في النقاط الآهلة التي يتجمع فيها الحجاج ظروف صحية أفضل، ولجرى تعقيم الاغنام المذبوحة في منى بأسلوب من الأساليب الفعّالة، ولجرى استعمال هذه الأموال الكبيرة المصروفة عبثاً في مهب الريح لما فيه فائدة القضية، ولتم مد السكك الحديدية في ربوع الحجاز ولجرى الحج كله، باستعمال واسطة المواصلات هذه، في غضون ٧ ـ ١٠ أيام، ولصار ظاهرة عادية، ولفقد الحجاز سمعته الرهيبة كبؤرة للأمراض المعدية؛ ولكن، من جهة

أخرى، لو كانت هناك حكومة أشد همة ونشاطاً لاستفادت، بالتأكيد، من تجمع الحجاج هذا في أغراضها السياسية أيضاً.

«لا ريب في انه لن يكون من الممكن في وضع الامور القائم تطبيق هذه التدابير غير المعقدة من قبل السلطات التركية بالذات رغم جميع المطالب على الورق؛ ولهذا قد يكون من الاصوب تعيين قناصل أو نواب قناصل الدول الغربية في مكة بالذات عوضاً عن جدة، وتعيينهم من عداد المسلمين وتكليفهم بالاشراف على كل الجانب الصحي وإنفاق المبالغ المعتمدة لهذا الغرض.

«أما فيما يتعلق بالجانب المالي من المسألة، فقد يكون من الممكن والعادل والصائب اجبار جميع الحجاج المسافرين الى مكة على دفع مبلغ خاص من المال، مثلاً، خمسة روبلات، عند منحهم جوازات السفر، ونظراً لمتوسط عدد الحجاج، ١٠٠ ألف شخص، يبلغ الرسم المحصل بالاجمال زهاء نصف مليون روبل، أي ما يكفي تماماً لأجل تطبيق التدابير الصحية في غضون سنة بكاملها.

«وعلى العموم أعتقد ان تنظيم قضايا الحج حاجة حيوية وملحة، ولربما تجد حكومتنا من الضروري، نظراً لوضعها السياسي بين الشعوب الاسلامية، ان تأخذ زمام المبادرة في هذا المجال الهام» (ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

ولعل من أطرف ما يمكن ان يختم به هذا الحديث عن دعوة عبد العزيز دولتشين لإنشاء سكة حديدية لمصلحة الحجاج، قد تم في أيام السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩). ذلك انه في عهد هذا السلطان أنشئت سكة حديد الحجاز (١٩٠٠ ـ ١٩٠٨). ففي شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وصل أول قطار من دمشق الى المدينة المنورة. حلم عبد العزيز حققه عبد الحميد.

القسم الخامس

آسية الوسطى

من الاحتلال الروسي الى النهضة الاسلامية

١ ـ المدخل

في المكان

يترتب علينا، قبل كل شيء، ان نتعرف الى المنطقة التي هي موضوع حديثنا. فآسية الوسطى منطقة تمتد من بحر قزوين غرباً الى جبال تيان شان وبحيرة بالكاش شرقاً، ومن أطراف الغابات السيبيرية، المعروفة باسم تايغا في الشمال، الى جبال هندوكوش وهضبة البامير في الجنوب. أما من حيث أقسامها الطبيعية الكبرى فهي: السهوب الشمالية الغربية المحيطة بالأجزاء الشمالية من بحر آرال، وسهوب تركستان وما وراء النهر. وهذه الأخيرة بحاجة الى توضيح خاص. ذلك ان النهر المقصود هو نهر امودريا (أكسوس عند اليونان) أو جيحون، وقد عرف بهذا الاسم عند جغرافيي العرب ومؤرخيهم. وقد عرفت هذه المنطقة بالذات باسم ترانسأوكسيانيا عند جغرافيي اليونان، ومعناها ما وراء (أو عبر) نهر اكسوس، فسار المؤلفون العرب على النهج نفسه وأسموها ما وراء النهر (والنهر المقصود عندهم هو جيحون). وإذا تذكرنا ان هناك نهراً آخر يصب في بحر آرال هو نهر سيرداريا ويسمى جاكسرتس (يونانيًا) وعرف باسم سيحون (عربيًا)، أدركنا ان ما وراء النهر هو، في الواقع، رقعة من البسيطة تقع بين هذين النهرين.

على أننا يجب أن نذكر ان آسية الوسطى متصلة بسهوب أوروبة الشرقية وسهولها، وبأفغانستان وإيران في الجنوب، وسهول سيبيريا شمالاً. لذلك فإنها لا تتمتع بحدود طبيعية معينة. فضلاً عن ذلك فإن تنقل الشعوب والقبائل فيها تنقلاً مستمراً كان كثيراً ما يغير تسميات بعض أجزائها، فنفقد الدليل الأصلي. وإذن فلنحتفظ بما أوردناه على أنه أوضح ما يمكن وأدق ما توصل اليه الباحثون.

ومع ان أواسط آسية تغلب عليها السهوب والصحاري، فإنها تحتوي على مناطق منخفضة جداً مثل تلك التي تحيط ببحر قزوين من الجهة الشمالية الشرقية، وفيها سلاسل جبال شديدة الارتفاع في الاجزاء الجنوبية منها.

آسية الوسطى غنية بالواحات، وهي مراكز مهمة للاستقرار والعمل في الزراعة؛ لكن الحياة الزراعية النشيطة تقوم في أحواض الأنهار مثل أمو داريا (جيحون) وسير داريا (سيحون) اللذين يصبان في بحر آرال.

وقد كان سكان آسية الوسطى، حتى أوائل القرن العشرين، يعتمدون في معيشتهم على أسلوبين متباينين في الحياة. فهناك السكان المستقرون الذين يعتمدون على الزراعة، وهؤلاء كانوا يقيمون أصلاً على ضفاف الأنهار مثل زَرَفشان وأمو داريا (جيحون) وسير داريا (سيحون)، وفي الواحات حيث قامت وسائل للري متطورة نسبياً وفي هذه جميعها كان الفلاحون ينتجون غلات زراعية متنوعة من الحبوب والخضار والفواكه.

كانت هذه المراكز، الواحات منها والمدن الواقعة على الأنهار، هي نقاط التقاء طرق القوافل التي كانت تجتاز آسية الوسطى في طريقها - أو طرقها - من الصين شرقاً الى المشرق العربي والهند غرباً وجنوباً.

ويرى بعض الباحثين ان سكان الواحات خاصة كانت حياتهم عادية لا تعنى كثيراً بالتطلع الى ما وراء ما يعرفون، وذلك بسبب بعدهم عن العمران. لكن تلك التي كانت القوافل تريح فيها أو تعرض سلعها في أسواقها، كانت تنتقل اليها أشياء حضارية إما من الصين أو من ايران، وذلك منذ أقدم العصور. ومن الملاحظ أن مدن ما وراء النهر وغرب كشغاريا كانت منافذ للحضارة العربية الاسلامية الى أواسط آسية، بحيث ان المسافر من اصفهان أو مشهد الى يرقند أو بخارى يرى ان أسلوب الحياة والفكر لا يختلف كثيراً بين نقطة انطلاقه ومركز انتهائه.

أما الاسلوب الآخر في الحياة فهو الذي كانت عليه (ولا تزال في انحاء كثيرة) القبائل البدوية التي تعمر السهوب. فالحياة هنا قوامها الاقتصاد المعتمد على تربية المواشي، الأمر الذي أقصى الناس عن الزراعة. فمواشي هؤلاء البدو، وفيها الأيّل والخراف والأبقار والابل والخيل والياق (وهو البقر التبتي)، هي مصدر القوت والثوب والمأوى والوقود والتنقل؛ وما يزيد على حاجة الجماعة، قبيلة كانت أو مجمع قبائل، قايضت به مع تجار المدن لتحصل على حاجتها من الحبوب والأدوات المعدنية. ومن هنا فقد كان البدو مكتفين اكتفاء ذاتياً من الناحية الاقتصادية، بل كانت حياتهم الحرة المنطلقة تمكنهم من التغلب على سكان المناطق الزراعية في حالات الحرب والقتال.

وعلينا ان نتذكر دوماً ان البدوي كان، فضلاً عن ارتباطه بالعائلة، جزءاً من عشيرة أو قبيلة أو حتى عضواً في مجمع قبائل متحالفة. وهذه أمور كانت تؤثر في حياته.

وستمر بنا أسماء قبائل أو جماعات متعددة أثناء حديثنا، وسنُعرِّف بكل منها عند ورودها. لكننا لا بد لنا من الاشارة هنا الى الفئات الكبيرة التي تكونت مع الزمن في اسية الوسطى (ومنها ما له فروع خارج المنطقة).

فهناك القازاق (الخازاك) ويبدو أنهم أصلاً كانوا نتيجة تمازج عنصري من شعوب تركية وقبائل مغولية، وقد ظهر وجودهم منتظماً في القرن الخامس عشر.

وكانت منازلهم الأولى في السهوب الواقعة الى الشمال من نهر سيرداريا (سيحون) وبحر آرال.

والأوزبك وهم شعوب تركية لعل موطنها الأصلي منطقة تيان شان، ومنها تحدروا الى ما وراء النهر حيث أقاموا لهم دولة، امتدت سلطتها الى جزء من تركستان.

والكرغيز أتراك لهم قرابة وثيقة بالقازاق وهم من منطقة تيان شان وقد انحدروا منها الى شرق تركستان.

ومن الفئات التركية التي تقابلها التتار؛ ومع ان اللفظ يطلق أحياناً على جميع القبائل التركية التي استقرت في السهوب الروسية امتداداً الى غرب تركستان شرقاً، فإن الذين سنعنى بهم هم تتار قازان واستراخان بشكل خاص ثم بتتار القفقاس والقرم.

وثمة قبائل التاجك وهذه نتيجة اختلاط بين عناصر تركية وأخرى ايرانية. ولغة التاجك هي فارسية أصلاً.

أما الشعوب الأخرى التي مرت بنا فقد كانت تتكلم واحدة من اللغات التركية. وهذه اللغات تقسم الى عائلتين لغويتين أصلاً - الواحدة العائلة الغربية وتشمل لغات الأتراك العثمانيين والأتراك (القبائل والشعوب التركية) المقيمين في أوروبة؛ ولغة أذري التي يتكلمها أهل اذربيجان ولغة التركمان الذين كانوا يقطنون جزءاً من تركستان. أما عائلة اللغات الشرقية فيدخل في عدادها لغات القازاق والأوزبك والكرغيز.

آسية الوسطى قبل مجيء الروس

لسنا نقصد، في هذه العجالة، ان نؤرخ لتطور اسية الوسطى عبر العصور الطويلة. لكن لا بد لنا من اتخاذ نقطة انطلاق نرسم عندها خارطة شبه سياسية لآسية الوسطى، ونتابع بعد ذلك تطور العلاقات الروسية مع هذه المنطقة. وبسبب ما ذكرنا من قبل من ان الشعوب والقبائل كانت كثيرة التنقل في تلك الربوع، فإننا لا نأمن من أن نضم، بين الفينة والفينة، منطقة أو قبيلة الى آسية الوسطى لارتباطها بما قد يكون موضوع حديثنا، مع أننا لم نكن قد أشرنا الى تلك القبيلة أو المنطقة من قبل.

وإذا اتخذنا القرن السادس عشر نقطة الانطلاق التي أشرنا اليها، وبدأنا من حوض نهر الفولغا في أوروبة، وجدنا فيه خانيتين (قبيلتين): قازان التي كانت تقوم في الحوض الأوسط؛ واستراخان التي تقع في دلتا هذا النهر على مقربة من مصبه في بحر قزوين. فإذا نحن اجتزنا جبال أورال، التي تعتبر الحد الفاصل بين آسية وأوروبة، قابلتنا خانيَةُ سيبير، التي كانت تشغل حوضي توبول وإرتيس.

وقد كانت المنطقة التي تمتد من شمال شرقي بحر قزوين غرباً الى بحيرة بالكاش شرقاً، تقع تحت سلطة القازاق (الخازاك). لكن هذه الدولة الواسعة تقطعت

أوصالُها بعد حكم قاسم خان (١٥٠٩ ـ ١٥١٨) فأصبحت، من الغرب الى الشرق ثلاثَ خانيَات (أو قبائل) هي: الخانيَة (أو القبيلة) الصغيرة (كيشي جوز) ورقعتها تقع الى الشمالٍ من بحر آرال؛ والخانية (القبيلة) الوسطى (أورتا جوز) وتمتد منطقتها الى الشمال الشرقي من بحر آرال؛ والخانيَة (القبيلة) الكبيرة (أولُو جوز) وهذه كانت تسيطر على شرق تركستان. وقد دارت معارك فيما بينها، وبينها وبين جيرانها عبر القرنين السادس عشر والسابع عشر، مما أضعفها بحيث أصبحت ثمرة ناضجة لمن يستطيع القطف.

أما المنطقة التي كانت قد استقرت فيها قبائل الأزبك وأنشأت فيها دولة قوية، فهي ما وراء النهر وجنوب تركستان. وكان مؤسس هذه الدولة القوية هناك هو محمد الشيباني (١٥٥٦ ـ ١٥٦٠). ولكن في أواخر القرن السادس عشر انتقلت السلطة الى آل جانيد الذين تولّوا الأمر نحو قرنين من الزمان. إلا ان أمر الازبكيين انتهى الى ما انتهى اليه أمر الآخرين. فقد تقسمت دولتهم الى ثلاث دويلات هي امارة بخارى وخانيتا خيوة وكوكَنْد. ومع ان الباحثين لم يتفقوا تماماً على أزمنة معينة لقيام هذه الدويلات المستقلة، فإنهم يكادون يقبلون، ولو موقتاً، ان خانية كوكند كان لها كيان مستقل منذ حوالى سنة ١٧٠٠، وان خانية خِيوة بدت على الشكل نفسه بعد ذلك ببضعة عقود من السنين.

ولعله من حق الإمام قولي خان، الذي حكم بخارى من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨٤٠، والذي كان حاكماً عادلاً حكيماً، كما تدل الآثار الفنية التي بُنِيت في عهده، ومنها مدرسة شردار في سمرقند، أن نذكره هنا.

وفي سنة ١٧٨٥ انتزع شاه مراد السلطة من أسرة الجانيد، وأنشأ أسرة جديدة لحكم بخارى. واستمر في حكمه الى سنة ١٨٠٠. وفي أيامه عرفت بخارى فترة يقظة اقتصادية. وأسرة مانغيت، التي أنشأها شاه مراد حكمت الامارة حتى سنة ١٩١٠.

وقد تبدلت الأسرة الحاكمة في خيوة حول الوقت نفسه أيضاً. فقامت أسرة كونغرات على الأسرة الحاكمة. وحدث الأمر نفسه في كوكند إذ قامت أسرة جديدة هي أسرة مِنّ.

وهذه الشعوب والقبائل، المستقر منها والبدوي، والتي تحدثنا عنا (القازاق والأوزبك والايغور والتاجك والكرغيز والتركمان) كانت جميعها مسلمة. ذلك بأن العرب تقدمت جيوشهم الى الأجزاء الجنوبية الغربية من تلك المنطقة (آسية الوسطى) فاتحة، بعيد القضاء على دولة الساسانيين. ومع ان الحروب الأهلية أوقفت التقدم لبعض الوقت، فإن تعيين زياد بن أبي سفيان حاكماً على البصرة (٤٤ هـ/ ٦٦٤ م) وهي المعسكر الذي كانت تنطلق منه الجيوش في اتجاه خراسان وما وراءها، كان ايذاناً بتجدد النشاط في تلك الجهات. وقد كان أول من اجتاز نهر جيحون (أمو داريا/

اكسوس) واحتل بخارى، هو عبدالله بن زياد المذكور، وكان ذلك سنة ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م. واستمر العرب بعد ذلك في الفتوح الى الشمال من النهر المذكور. وكان من مشاهير قوادهم هناك سلم بن زياد أخو عبدالله. وكانت منطقة خوارزم موضع اهتمامه. ويروى أن سلم بن زياد هذا اتجه نحو سمرقند، وكانت زوجه معه، وهي أوّل عربية ترافق حملة عسكرية شمالي نهر جيحون، وقد وضعت هناك ابناً، كان يعرف فيما بعد بالصُغْدِيّ، نسبة الى هذه المنطقة (الصُغْد).

ومع استمرار الحملات العسكرية في تلك المناطق النائية، فإن الحرب الأهلية الثانية، في أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٥ ـ ٧٠٥)، أخّرت العمليات المنظمة بعض الشيء. ولما عيّنَ الحجاجُ قتيبةَ بن مسلم (٨٥/٧٠٤) والياً على المنطقة وأميراً على الحرب هناك، عاد النشاط الى العمليات. وفي واقع الأمر فإن ضم المنطقة الواقعة شمال نهر جيحون يعود الى قتيبة، كما يعود اليه تجاوز النهر الآخر ـ نهر سيحون (سير داريا/ جاكسَرْتس) الى شاش (طشقند). وأعانه أخوه عبد الرحمن في فتح خوارزم وتثبيت الحكم العربي الاسلامي هناك.

لسنا نعتزم ان نتابع هنا سير الفتوح وما رافقها من نجاح أو فشل. ولكن لا بد من ان نذكر ان أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦/ ٧٠٥ ـ ٧١٥) كانت زمن التوسع في الفتوح شرقاً (على يد قتيبة) وشرقاً في جنوب (على يد محمد بن القاسم في البنجاب) وغرباً في شمال افريقية والأندلس.

كانت آخر معركة خاضها العرب في أواسط آسية معركة طَلَس (او طَرَس) سنة ١٣٤/ ٧٥١. فقد تقدم جيش صيني عبر حوض سيحون الأعلى محاولاً احتلال ما وراء النهر (أي ما وراء نهر جيحون بالنسبة للعرب)، فقابله جيش عربي بقيادة زياد بن صالح (وهو من قواد أبي مسلم) وانتصر هذا على الخصوم وردهم على أعقابهم. وهذه كانت معركة فاصلة: فلم يحاول الصينيون بعدها التقدم في المنطقة، ولا تابع العرب فتوحهم فيها.

لكن انتشار الاسلام لم يقتصر على المناطق التي احتلها العرب يوماً. ذلك بأن قيام الدول المختلفة، في ظلال الخلافة العباسية، التي حكمت في تلك الجهات كان عاملاً أساسياً في انتشار الاسلام في تلك الرقعة الواسعة. ولنذكر على سبيل المثال الدولة السامانية (٢٠٤ ـ ٣٩٥/ ٨١٩ ـ ١٠٠٥) ودويلات الخوارزم ـ شاه (٣٠٥ ـ ٦٢٨/ ٩٩٥ ـ ١٢٣١) ودولة الغزنويين (٣٦٦ ـ ٥٨٢/٩٧٧ ـ ١١٨٦) والسلاجقة (٤٢٩ ـ ٥٩٠/ ١٠٣٨ ـ ١١٩٤).

ويمكن القول اجمالاً إنه بدءاً من القرن العاشر للميلاد أخذت الثقافة والتقاليد والنظم والشريعة الاسلامية تتجذّر بين شعوب تلك المناطق، في الواحات والصحاري على السواء. وانتشرت أساليب الخط العربي هناك فاستعملت لتقييد اللغة الفارسية

واللغات التركية تدريجاً. وحتى التركية الشاغاتئية استعملت الخط العربي، مع أن هذا الخط لا يتناسب تماماً مع «فونيئية» هذه اللغة. ويلاحظ الباحثون ان اللغات التركية الشائعة، حتى في السهوب، قد دخلت فيها ألفاظ عربية وفارسية كثيرة بسبب هذا الانتشار الواسع والعميق للثقافة الاسلامية.

والذي نود ان نقرره هنا هو ان الروس لما بدأوا يتحككون بشعوب الفولفا وأواسط آسية وجدوها شعوباً اسلامية تماماً، أي انهم وجدوا مجتمعاً مسلماً.

وإذن، فإنه يصح ان نقول ان الاسلام هو الذي وضع آسية الوسطى وشعوبها على الخارطة العالمية، على أنها مجتمع حري بأن يقوم بدور كبير في التاريخ. وبعد نتساءل: لماذا توقفت هذه الجماعة عن القيام بدورها في الازمنة الحديثة؟ يمكن القول بأن المجتمع الاسلامي السني (في أواسط أسية) انقطع عن الاتصال بمسلمي المشرق العربي (والدولة العثمانية سيدته) بسبب قيام الدولة الصفوية الشيعية في ايران (٩٠٧ ـ ١١٤٥/ ١٥٠١ ـ ١٧٣٢). وكان ان انقطع سير القوافل الكبيرة التي كانت تتنقل بين آسية الوسطى من جهة بالمشرق العربي والشرق الأقصى. ذلك بأن دولة الايلخانيين، التي قامت في العراق وإيران في القرن الثالث عشر (٦٥٤ ـ ٧٥٤/ ١٢٥٦ ـ ١٣٥٣) عنيت بالطريق البحري الذي يصل الموانىء الصينية بالخليج العربي، فأضعف ذلك الاتصال البري السابق. هذا أدّى الى عزل تركستان، نسبياً، عن العالم الاسلامي الواسع. لكن هذا العزل لم يكن تاماً. ذلك بأن آسية الوسطى وشعوبها ظلت على اتصال بالعالم عبر أفغانستان والهند. وقد كان لهذا أثره في قيام الحركات الاصلاحية الاسلامية في آسية الوسطى، على ما سنرى.

٢ـ الاتجاه الروسي نحو الشرق: شعوب التتار

أخذ الروس ، منذ أن تكتلوا وأنشأوا دوقية موسكو، بالتطلع نحو الشرق، رغبة في التوسع والامتداد في تلك الربوع. فالمنطقة الممتدة من حوض الفولفا الى بحيرة بالكاش وجبال تيان شان واسعة شاسعة، وفيها واحات وأحواض أنهار خصبة، وأراض صالحة للرعي وتربية المواشي تشغل مساحات متسعة. والسكان قليلون نسبياً؛ لذلك فإن الروس يمكنهم أن يبعثوا بالسكان الفائضين الى تلك الأرضين فيعمروها ويستوطنوها. فضلاً عن ذلك، فإن وضع هذه الرقعة تحت نفوذ الدولة الروسية، مهما كان نوع هذه الدولة، يقيض للمنتوجات الروسية، على اختلاف أنواعها، أسواقاً واسعة يمكن أن يكون لها أثر فعّال في تنمية الثروة الروسية.

وآسية الوسطى كانت، عبر القرون، ممراً للقوافل التي كانت تحمل سلع المشرق من الصين الى سواحل البحر المتوسط الشرقية، وتنقل سلع البلاد الغربية ومتاجرها الى الصين. ومع ان هذه القوافل كانت، في فترات مختلفة، احمالها تتكون من التوابل والافاويه والطيوب المتجهة غرباً، ومن الزجاج والخمور المحمولة شرقاً، فإن الطريق الأساسي عرف باسم طريق الحرير ـ فهذا الاسم يحمل في طياته النعومة والجمال والأناقة. وقد أغرى كل ذي مكانة في استعمال الاقمشة الحريرية ـ فكانت هذه رفيقة السيدة الغنية الرقيقة، والراقصة الرشيقة. وقد أغْوَت حتى الاباطرة وأحبار الكنيسة، فاتخذوها أردية مزركشة مزخرفة، وتبعهم الامراء في كل حدب وصوب. ومن هنا غلب على هذا الطريق اسم الحرير. ومع ان التجارة عبر هذه المناطق ضعف شأنها، فإن ذلك لم يعن أنه قضي عليها. ولعل بعض أولي الأمر من الروس، كانت تساوره، حيناً بعد حين، آمال تدور حول إحياء هذه الطرق التي تخترق اسية الوسطى، والتي تتشعب منها شمالاً وجنوباً.

الى هذا كله، يجدر بنا ان نتذكر ان بريطانية كانت قد أخذت نفسها بمحاولة فتح طرق تجارية مع ايران عبر البحر الاسود، كما أنها كانت قد عُنيَت بتقوية موطىء القدم الذي بدأته في الهند، وكان من ذلك اتجاهها نحو آسية الوسطى.

هذه الأمور التي ذكرناها لم تخطر على بال الجميع دفعة واحدة، ولا هي بنت زمن واحد. إنها أشياء يتحدث الناس عنها، ويفكرون بها، ويتصرفون بموجبها. ولعلنا لا نعدو جادة الصواب ان نحن قلنا ان هذه القضايا كانت تشغل الناس وتحملهم على

التخطيط للافادة منها، أو للعمل في سبيل تنفيذها، وذلك خلال المدة التي تشغل القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر. وبدت آثارها شبه واضحة في القرن التاسع عشر. فبدأت في مطلعه وتقوت في أواسطه وتم انتشار الروس في المنطقة بأجمعها في ختام القرن نفسه.

ولنعد الى القرن السادس عشر. وكانت الخطوة الأولى للتوسع الروسي هي الاستيلاء على قازان (١٥٥٢) واستراخان وسيبر (١٥٥٤)، وهذه الخانيات الثلاث كان سكانها من التتار المسلمين. وقد اتبع الروس، بدءاً من أيام ايفان الرهيب (١٥٣٣ - ١٥٨٤)، الذي تم الاحتلال في أيامه، سياسة عنف وشدة نحو هؤلاء التتار. وكان أساس هذه السياسة محاولة «ترويس» (أي جعلهم مثل الروس) في المناطق المحتلة، وذلك بحملهم على اعتناق المسيحية مثلاً. فضلاً عن ذلك فقد هُجِّرت أعداد كبيرة منهم، وخاصة من المدن الكبيرة مثل قازان نفسها. وكان من الطبيعي ان يُنْقَل القوزاق الروس الى هذه المدن ليملأوا الفراغ الناشىء عن النفي والتهجير. وانتزعت الحكومة الأراضي الخصبة، وخاصة ما يقع منها في أحواض الأنهار، من أصحابها ووزعتها على نبلاء روسيين. وبُنِيَت الحصون الكثيرة في المواقع الاستراتيجية بحيث يمكن الاشراف على البلاد اشرافاً دقيقاً.

وقد شُجِّع الفلاحون الروس على الانتقال الى خانيات التتار؛ وانتزعت أراضي الوقف الاسلامي في مناطق مختلفة من أيدي رجال الدين المسلمين المشرفين عليها، وسمح للفلاحين القادمين من روسيا باستغلالها. وأُقْفِلَ عدد من المدارس الاسلامية. وبهذه المناسبة كان المسلمون التتار حتى في القرن السادس عشر على درجة لا بأس بها من التقدم، بسبب قربهم من المناطق المتقدمة من اوروبة واختلاطهم بالروس أصلاً.

قاوم التتار، خاصة الذين ظلوا في أماكنهم، هذه المحاولات. فقد قامت عشر ثورات في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ضد روسيا. وفي السنوات من ١٦٠٨ الى ١٦١٥ قام الفلاحون التتار بثورات متلاحقة ضد أعمال العنف الروسية. ولكن هذه جميعها قاومتها السلطات بمنتهى العنف. وخطط الحكام بعدها للقضاء على النبلاء التتار بشكل خاص لأنهم كانوا هم الذين يقودون الحركات الثورية أو يحرضون عليها على الأقل.

في سنة ١٦١٣ اعتلى عرش روسيا القيصرية أول ملك من آل رومانوف. ولكن هذا التبديل في مركز السلطة لم يغير موقف الحكومة من التتار، إن من حيث السياسة أو المعاملة. وقد قامت ثورات عنيفة جداً، كان أشدها التي قادها باترشا (سنة ١٧٥٥) والتي اعتبرها جهاداً، وتلك التي قام بها بوغاشيف (١٧٧٣ - ١٧٧٤) وكان في جنوده، فضلاً عن التتار، جماعات من سكان المنطقة، الذين كانوا ينقمون على روسيا.

وحريٌ بالذكر ان التتار الذين أُجْلُوا عن المدن، سواء في ذلك النبلاء ومهرة الصناع، انتشروا في الريف متجهين شرقاً، وأنشأوا طبقة جديدة من التجار، التي شغلت الفراغ الاقتصادي القائم في تلك الجهات، وأصبحوا «البورجوازية التجارية». وهذه الجماعات أصبحت ذات أهمية اقتصادية إدارية مُنَظِّمة.

لما تولت كاترين الثانية (١٧٦٢ - ١٧٩٦) العرش نظرت الى القضية نظرة نفعية من جهة، وسياسية واقعية من الجهة الأخرى. واعتزمت القيصرة ان تُجَنِّبَ البلاد المآسي التي مرت بها، فاتخذت اجراءات لتحسين وضع التتار. فأوقفت الاضطهاد الديني بالمرة، وأنشأت المجمّع الروحي في أورنبورغ لمصلحة جميع المسلمين في روسيا وسيبريا. والذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة من نبلاء التتار منحوا الحقوق نفسها التي كانت للنبلاء الروس. أما تجار التتار، الذين أشرنا اليهم سابقاً، فقد أُطْلِقَت لهم حرية العمل فكانوا الواسطة بين الصناعة الروسية المبتدئة والأسواق التركستانية التي كانت لا تزال مغلقة أمام غير المسلمين. وقد أتاح هذا للبورجوازية التتارية المجال للاثراء على شكل لم تعرفه من قبل، والتي دامت قرابة قرن من السنين. وهؤلاء اعتبروا أنفسهم شركاء في هذه العملية الروسية الاقتصادية - السياسية، من دون ان يفقدوا تمسكهم بالاسلام. وقد كان من هؤلاء نواة المصلحين على ما سنرى.

على أننا نود ان نضيف هنا، ولو أننا نستبق الحوادث، أن هذه الفترة من التعاون انتهت في أواسط القرن التاسع عشر، وعلى التحديد سنة ١٨٦٠، لما تم للروس احتلال أواسط اسية. عندها أصبح طريق المصنوعات الروسية يتخطى الطرق التتارية؛ وتولى العرش قيصر قصيرُ النظر هو الاسكندر الثاني (١٨٥٥ - ١٨٨١)، فعاد الى سيرة المتعنتين من أسلافه، واضطهد التتار وشرّدهم وأصدر من القوانين الكثير مما أضعف الصلة الاقتصادية والثقافية التي كانت للتتار مع مسلمي الاورال وسهوب القازاق وتركستان.

هذه المواقف الروسية ضد التتار كانت من العوامل التي أدت الى ظهور الحركات الاصلاحية بين مسلمي أواسط آسيا، في القرنين التاسع عشر والعشرين (في مطلعه).

شبه جزيرة القرم كانت في القرن الثامن عَشر خانية تتارية أيضاً. لكن موقعها على البحر الاسود كان يثير شهية حكام موسكو، خاصة في أيام القيصرية. فموانىء شبه الجزيرة تقع على بحر دافىء لا تتجمد مياهه في الشتاء، مثل البحار الشمالية التي تحيط بروسيا. وقد بدأت الجيوش الروسية تتحرش بالمنطقة في ثلاثينات القرن التاسع عشر. وكان هذا معناه، ولو الى درجة محدودة، التحرش بالدولة العثمانية؛ ذلك ان مَنْغلي جيراي، أحد كبار خانات القرم (حكم ١٤٦٦ - ١٥١٥) وضع خانِيَتَه تحت

حماية محمد (الثاني) الفاتح، السلطان التركي (حكم ١٤٥١ ـ ١٤٨١) الذي فتح القسطنطينية (١٤٥٣). لكن حكام موسكو لم يكونوا يهتمون بمثل هذه الامور. فاحتل الجيش الروسي شبه جزيرة القرم سنة ١٧٧١، لكن تركية لم تأخذ الامر بعين الاعتبار، حتى عقدت معاهدة كوتجك كينارجي (١٧٧٤) التي بموجبها أُنهِيَت الحماية التركية على القرم.

لكن لما كان السلطان العثماني هو خليفة المسلمين، فقد احتُفِظَ له بحق الاشراف الروحي على شؤون التتار المسلمين في شبه الجزيرة.

اغتنم الروس اضطراباً وقع في القرم بين الخان شاهين جيراي والمناصرين للأتراك هناك، فاحتلوا المنطقة. كان ذلك سنة ١٧٨٣؛ ولكن الدولة العثمانية لم تعترف بذلك الا سنة ١٧٩٢. وفي سنة ١٧٨٣ أصدرت القيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) اعلاناً جاء فيه: «ان القرم قد ضمت الى روسيا القيصرية وان سكانها (البالغ عددهم يومها نحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة) يتمتعون بالأمان لأشخاصهم وأملاكهم وبالحرية الدينية، وان لهم الحقوق نفسها التي للروس». لكن على ما يبدو ان آل رومانوف لم يكونوا يرون الأمور بعين القيصرة كاترين. ذلك ان ما أصاب التتار في قازان، بعد ان قررت هي العناية بهم، من اهمال وعنف وظلم، أصاب التتار في القرم على أيدي خلفائها. وقد وقع الغبن أولاً على طبقة النبلاء التتار فجردوا من مصادر رزقهم، بحيث انه خلال نحو أربعين سنة لم يبق سوى عشر أسر كبيرة قد احتفظت بكيانها الاقتصادي، لكنها كانت تروّست (أي أصبحت روسية) اجتماعياً.

تمتع رجال الدين المسلمون بالحماية من بادىء الامر. فقد انشئت (سنة ١٧٩٤) وظيفة مفتي للمسلمين كانت تختاره الجماعة الاسلامية. (لكن من لائحة فيها خمسة عشر اسماً تمت موافقة الحكومة عليها). وقد حوفظ على الأوقاف أصلاً، لكن مع الوقت قضم الروس من هذه الأوقاف مساحات كبيرة، بحيث أنه في سنة ١٩١٧ لم يبق منها سوى ١٠٠,٠٠٠ هكتار من أصل ٤٦٠,٠٠٠ هكتار (في سنة ١٧٨٣).

أصيب الفلاحون والعمال الصناعيون وكانوا يؤلفون ٩٦٪ من السكان التتار بالطامة الكبرى بسبب الاحتلال. فقد أخذ الحاكم العام للقرم بمصادرة الأراضي الخصبة (من السكان) وبمنحها لنبلاء الروس. واتبعت هذه السياسة مدة قرن من الزمان تقريباً؛ ثم عمل الروس على تشجيع عناصر مختلفة من الالمان واليونان والبلغار والبلطيقيين على الانتقال الى البلاد، فضلاً عن الجنود الروس الذين كانوا ينهون فترة الخدمة العسكرية هناك؛ وكل ذلك في سبيل إضعاف الروح التتارية.

كان من الطبيعي أن يتجه التتار نحو الدولة العثمانية لاجئين الى حماها. وقد قدر عدد التتار الذين هاجروا الى الامبراطورية خلال الفترة الممتدة من سنة ١٧٨٤ الى سنة ١٨٩٧ بنحو ٤٨٠,٠٠٠، بدءاً من أفراد وجماعات صغيرة في السنوات الأولى

الى هجرة أعداد كبيرة معاً. ومع ذلك فقد كان في البلاد (في أواخر القرن التاسع عشر) نحو ١٨٧,٠٠٠ من التتار (من مجموع السكان وهو ٥٢٣,٠٠٠). ويعزو الباحثون وجود مثل هذا العدد مع كثرة من رحل من التتار، الى الانتاج الخصب عند هذا الشعب.

وبسبب هذا النزف البشري، والضغط الذي تعرض له تتارو القرم، كانت الجماعة هناك متأخرة جداً بالنسبة للجماعات الاسلامية في روسيا الاوروبية.

ومع ذلك فقد قيض لهذا الشعب ان يعيش يقظة فكرية عجيبة، قامت حول شخصية فذة هو اسماعيل بك غاسبرينسكي (غاسبرالي)؛ وهو الذي سنتحدث عنه عندما نصل الى درس الحركات الاسلامية الاصلاحية.

روسيا في آسية الوسطى: القازاق والكرغيز

ان الخانيات (أو القبائل) الثلاث التي حلت محل السلطة القازاقية المركزية في سهوب القازاق، وهي، من الغرب الى الشرق، الصغيرة والوسطى والكبيرة، تعرضت لهجمات عنيفة من قبائل الأويُوت، ولم تستطع المقاومة بسبب ما كان قد أصابها من تضعضع وضعف. لذلك فقد طلبت حماية روسيا. كان الوضع في القرن الثامن عشر يتلخص في أن قبائل سهوب القازاق كانت تتمتع بنوع من الحماية الروسية. لكن هذه الحماية بحد ذاتها كان لا بد من أن تتبدّل. ذلك بأن قوتين كبيرتين: المانشو الصينية وروسيا كانتا تحيطان بالسهوب وأهلها من ثلاث جهات. وكان من طبيعة الاشياء ان تفرض الدولتان حمايتهما على المنطقة القازاقية، وان تكون الحماية هذه المرة أقوى وأدقّ، وخاصة في القطاع الروسي. ومع ذلك فإن قبائل القازاق لم تتقبل الأمر على علاته. فقد قامت ثورات متعددة ضد الروس لعلّ أهمها تلك التي قادها باتِر سْريم (١٧٩٢ ـ ١٧٩٧). لكن القازاق لم يكونوا يومها أقوياء لدرجة مقاومة روسيا ـ لذلك فإن الأمر انتهى، في مطلع القرن التاسع عشر بالقضاء على استقلال الخانيات نهائياً، وتلا ذلك استيلاء روسيا على منطقة القازاق بأكملها.

في أوائل القرن التاسع عشر بدأ الروس ببناء حصون هي في الواقع ثكنات عسكرية كانت تستعمل للتقدم الحربي نحو الاحتلال التام؛ وكانت هذه تقع عند تقاطع الطرق. ونحن نضع هنا أمام القارىء اسماء الحصون الهامة منها: كوكبكتي (١٨٢٠) وبَيان ـ أول (١٨٢٦) واكمولينسك (١٨٣٠) واياغوز (١٨٣١ ـ ١٨٤٦) وتورغاي (١٨٤٥) وإرغيز (١٨٤٥) واولوتافسكي (١٨٤٦) وكابال (١٨٤٧) وأوست (١٨٦٤ ـ ١٨٨١) وزايسان (١٨٦٦) وكرانسنوفودسك (١٨٦٩) كوتسيتاف (١٨٧٩ ـ ١٨٨١).

ويمكن القول اجمالاً ان الخانيات الثلاث فقدت استقلالها على النحو التالي: الوسطى سنة ١٨٢٢ والصغيرة ١٨٢٤ والكبيرة ١٨٤٨. لكن الاستيلاء على المنطقة بكاملها احتاج الى حملات عسكرية متعددة، بحيث أنه يمكن القول ان الحملات الأولى

التي بدأت من اورنبورغ في غرب سيبريا في الخمسينات، وتلك التي بدأت من سيميبا لاتينسك في الوقت نفسه، وطّدت للروس الأقدام في المناطق الواقعة جنوبي نهر إل. وقد أخرت حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٨٥٦) الروس عن ارسال الحملات الى أواسط آسية، لكنهم عادوا الى ذلك سنة ١٨٦٤، وكانت النتائج الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، بحيث ان الحدود الروسية أصبحت، في نظر أهل الحكم من الروس، تنتهي عند نهر سيرداريا لا اموداريا. وعلى كل، فإن الاستيلاء التام على المنطقة القازاقية وقع سنة ١٨٧٠. وقد كانت الثورات الأخيرة التي وقعت في المنطقة (١٨٦٧ ـ ١٨٦٨) ما يمكن أن يسمى جهاداً ضد المستعمرين.

اعتبرت روسيا سكان السهوب القازاقية «غرباء»، أي إنهم لم يعتبروا مواطنين روسيين مثل غيرهم من سكان المناطق التي احتُلَّت. فلم يُطَلَبوا للخدمة العسكرية واحتفظوا ببعض القوانين العرفية التي ألفوها. ولكن التعاون الذي كان يجب أن ينتج من هذا الوضع لم يدم طويلاً. فقد أرسلت روسيا نحو مليون قوزاقي ليستوطنوا الأراضي الجيدة، وعملت على إضعاف نبلاء المنطقة. واضطربت الأمور..

وهذا كله هيأ الجماعات القازاقية لمحاولة اصلاح مجتمعهم، من حيث انهم مسلمون. وفي هذا انضموا الى غيرهم من الشعوب الاسلامية في تلك الربوع.

٣ ـ نحو تركستان

الدول الازبكية الثلاث، بُخارى وخيوة وكُوكَنْد، تحاربت فيما بينها دولاً، وتقاتلت قبائلها داخلياً وخارجياً. وكانت قد تعرضت، في القرن السابع عشر، أي قبل ان تتخذ شكلها المستقل الاخير، لهجمات من دولة الهند المغولية أيام شان جيهان (١٦٢٧ ـ ١٦٥٧). لكن الضربة الموجعة جاءتها في القرن الثامن عشر على يد نادر شاه الصفوي (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧) الذي حمل على منطقة تركستان وعلى ما وراء النهر سنة ١٧٤٠.

كان من الطبيعي ان لا تترك روسيا المنطقة وشأنها. وما أكثر ما يمكن أن يعلل به المعتدي تصرفه. فقد كان القائد العسكري الروسي، ما ان تتحرش به قبيلة أو عشيرة، أو تتعرض فرقته لاعتداء ما، حتى يعد العدة ويقود الجيش لعقاب المعتدي. وكان العقاب يشمل عادة احتلال البلاد وعقاب المقاتلين أسراً أو سجناً أو ترحيلاً؛ وإقامة قواعد عسكرية جديدة تصبح نقط انطلاق الى الاجزاء القريبة منها، عندما يتحرش السكان، أو حتى عندما يتهمون بالتحرش، بالروس ـ مدنيين كانوا أو عسكريين. وهناك أسباب أخرى يتذرع بها القوم للتدخل، مثل السماح للروس بزيارة بخارى.

المهم ان روسيا، بعد ان اطمأنت الى سهوب القازاق وقبائلها، اهتمت بتركستان. وقد كانت الحملات العسكرية الروسية أكبر من أن تقابلها جيوش الامارة أو الخانيتين. وقد تكررت هذه البعثات العسكرية حتى انتهى أمرها بالاستيلاء على كوكَنْد وضمها نهائياً الى الدولة الروسية وذلك سنة ١٨٧٦. أما بخارى وخيوة فقد عقدت كل منهما معاهدة مع روسيا (سنة ١٨٧٣) وضعت نفسها بموجبها تحت حماية روسيا، لكن ظل لهما هذا الكيان المستقل الى سنة ١٩٢٠.

كانت بخارى قد عقدت اتفاقاً تجارياً مع روسيا (١٨٦٨)، ثم عقدت معاهدة صداقة (١٨٧٣) في العام نفسه الذي عقدت فيه خيوة معاهدة سلم مع موسكو.

ونحن إذا أخذنا هذه الاتفاقات جميعها، وجدنا ان الاهتمام فيها بتيسير الاتجار للرعايا الروس في أرض الامارة والخانية هو الأساس. فهؤلاء يمكنهم، من أي دين كانوا، ان يتجولوا في البلاد، كما يحق لرعايا بخارى وخيوة التجول للتجارة في انحاء روسيا. وحماية الرعايا الروس هو أمر يتوجب على الأمير (أو الخان) القيام به. وللتجار الروس أن ينشئوا الخانات اللازمة لخزن متاجرهم في أي من مدن الدويلتين.

وللتجار الروس اقامة وكالات تجارية في المدن المختلفة، ولتجار بخارى وخيوة مثل ذلك.

على ان النواحي السياسية من الاتفاقين المعنيين بذلك تشمل إلغاء الرقيق وتسليم المجرمين وتعين مبلغ الغرامة التي ترتب على خيوة دفعها. والاتفاق مع خيوة ينص على أن خان المنطقة يعتبر نفسه خادماً مطيعاً لأمبراطور جميع الروس. ولم يرد مثل هذا النص في المعاهدة مع بخارى.

ولنلق نظرة سريعة على أحوال امارة بخارى وخانية خيوة بوصفهما الاهم في أواسط آسية من نواح كثيرة. وأول ما يجب أن نذكره هو ان الأمير كان مطلق السلطة في الشؤون الداخلية (ما دام يستطيع ضبط الأمن). وقد تولى مظفر الدين الحكم من سنة ١٨٦٠ الى سنة ١٨٨٥ وخلفه ابنه عبد الاحد الذي حكم من ١٨٨٥ الى ١٩١٠ وكان الأخير الذي تولى الامارة عليم (١٩١٠ ـ ١٩٢٠). ولم يهتم الروس في الحد من مظاهر الفخامة والعظمة التي اعتبرها عبد الأحد مدعاة لإظهار استقلاله وسلطته. وكانت تقوية هذه السلطة، في كل من بخارى وخيوة، على حساب الارستقراطية. فالخان محمد رحيم (١٨٠٦ ـ ١٨٢٥) حاكم خيوة، صادر أراضي هذه الطبقة ووزعها على أعوانه ومحاسبيه. ومثل ذلك فعل نصر الله، أمير بخارى (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠). وزاد هذا أنه أنشأ جيشاً نظامياً وعين في وظائف الدولة رقيقاً فارسياً وفئة من التركمان.

وكانت السلطة مركزية بالمرة، إلا عندما تخرج قبيلة من القبائل على الأمير، وعندها تتصارع القوتان وكان الأمير هو المنتصر في الغالب.

كانت الادارة في بخارى معقدة؛ إذ إنها كانت تعتمد ثلاث فئات: مدنية وعسكرية ودينية. والأولى كانت تتألف من خمس عشرة حلقة مضبوطة في ثلاثة أطُر، كان يتوّجها ما يصح أن يسمى بالوزير. وكان اختيار هذا العدد الكبير والمتنوع من الموظفين مربكاً للعمل الاداري بسبب ضرورة التقيد بطبقات الشعب عند اختيار هؤلاء الموظفين.

وكانت فئة العسكريين تتكون من خمس درجات فقط. أما فئة رجال الدين فقد كانت ذات أهمية خاصة؛ فقد كانت تختار من جماعات متميزة ـ الأسياد والخوجات والميرين. وكانت كثرة منهم من العلماء الذين يرثون المنصب أبًا عن جد. ولأنهم كانوا «العالمين» بشؤون الشرع فقد عهد اليهم بمهمات كبيرة؛ إذ كان منهم القضاة ومفسرو الحديث والفقه والمدرسون. وكان القاضي والمفتي هما الأكبر منزلة ومقاماً وأثراً.

الى جانب هذه الفئات الرئيسة، كان هناك الأفراد الذين يتوسطون بين الفئات الحاكمة والشعب. وهؤلاء كان منهم رجال الدين المبتدئون وصغار الموظفين.

وإذا جاز لنا استعمال تعابير حديثة، قلنا ان طبقة من البورجوازية التجارية تكونت في بخارى منذ أواسط القرن التاسع عشر، قوامها صغار التجار وجميع من يمت الى الجماعات المتوسطة الحال والتي تقوم بالتوسط في الأعمال المختلفة.

وكان العمال الذين كان يعيش أكثرهم في القرى لقلة العمل وصعوبة السكن في المدن، هم جزء آخر من هذه الجماعة البورجوازية.

وفي أدنى درجات السلّم الاجتماعي كان موضع الرقيق، الذين قدر عددهم في بخارى بنحو عشرين ألفاً، وعشرة آلاف في سمرقند. وأغلب هؤلاء كانوا أسرى غارات قام بها التركمان على خراسان ثم باعوهم في أسواق الرقيق في آسية الوسطى.

بسبب ما ذكرنا من مصادرة الأراضي وإعادة توزيعها، أصبحت الأرض، في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، يحتكرها قلة من المالكين ـ الامير والدولة وزعماء القبائل. وقد كانت النتيجة اهمال الكثير من الأرض المنتجة اقتصادياً لأن كبار الملاكين لا يعنيهم مثل هذا الامر. وقد تنبه الى ذلك الذين قاموا بمسح الأرضين من حيث الامكانات وبمقابلة ذلك بالناتج من العمل فيها. وفضلاً عن ذلك فقد أهمل كبار الملاكين استخدام وسائل زراعية وتكنولوجية نافعة. وأهمل الملاكون نظم الري بحيث تأخرت بدل ان يطرأ عليها التطوير والتحسين.

وإلى هذا كله يجب ان يضاف فقدان الأمن في الامارة وفي الخانية، خلال القرن التاسع عشر، إلا أقله. فالناس العاديون كانوا يتعرضون للأخطار بسبب الصراع الذي قام بين القبائل، وبسبب انتشار اللصوص في انحاء كثيرة من البلاد.

والذي يلفت في أخبار بخارى في القرن التاسع عشر هو الثورات الشعبية التي كانت تقوم في الامارة بسبب الطلبات المالية الرسمية وطرق جمعها الغاشمة.

أشرنا من قبل الى رجال الدين وسلطتهم، ولنضف الآن كلمة عن المدارس التي عرفتها الامارة (وخانية خيوة). كان ثمة نوعان من معاهد التعليم: المكتب، وهو الذي تتم فيه الخطوات الأولى في التعليم. والمدرسة، وهي التي تلي ذلك. وهذه المؤسسات كانت وريثة ما عرف في القرن العاشر ثم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وفي الحالة الأولى كانت بخارى المركز الرئيسي للحضارة العربية الاسلامية العلمية؛ أما في الحالة الثانية فقد كانت سمرقند مركز التعليم الرئيسي. إلا ان الفترة التي نتحدث عنها شهدت تأخراً في المدرسة، كما كان ثمة تأخر في النواحي الفكرية جمعاء. لكن المدرسين كانوا يقومون بتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم والحديث الشريف. وكانت بعض المدارس التي تحظى بمدرس خاص تعقد حلقات لدرس الشريعة وعلم الكلام. وقد تكاتف القضاة والمفتون والمدرسون وخطباء المساجد الكبيرة على دعم التعليم الاسلامي التقليدي الذي كان الصورة الصحيحة للحياة الفكرية في بخارى. وكانت بخارى محط الرحال في آسية الوسطى من حيث «العلم الاسلامي». والذي توصل اليه مؤرخو تركستان الحديثة هو ان هذه المنطقة كان فيها، في أواخر القرن التاسع عشر، ٦٣٠٠ مؤسسة أهلية (تعليمية) منها نحو أربعمئة مدرسة، وما تبقى كان من نوع المكتب. وكانت هذه المؤسسات ينتظمها خمسة

وسبعون ألف تلميذ. وهذه المؤسسات التعليمية كانت واحداً من خطوط الدفاع أمام الهجمة الروسية، على ما سيتضح ذلك فيما بعد.

الموقف الروسي

يتضح لنا، من هذا الذي عرضناه عن أعمال الروس في المناطق التي احتلوها من قازان حتى آسية الوسطى، أن تصرفهم كان فيه الكثير من التعنت والأنانية أولاً، فضلاً عن أنه كان يتسم بكثير من العداء ثانياً.

فهناك أمر مررنا به في كل منطقة احتلتها الدولة الروسية وهومصادرة الأراضي الخصبة من أصحابها، وترك هؤلاء، وهم فلاحون مزارعون أصلاً، من دون مورد رزق. فعل الروس هذا منذ ان احتلوا قازان واستراخان في القرن السادس عشر حتى وصلوا الى كوكند وبخارى وخيوة في القرن التاسع عشر.

والأراضي التي انتزعت أعطيت لجماعات من الروس نقلت من بلادها بقصد الاستيطان في الأماكن المحتلة والافادة من الأراضي المنتزعة.

وقد أجلت الدولة الروسية أعداداً كبيرة من السكان من منازلها الأصلية الى جهات أخرى، بقصد تفتيت وحدة هذه الجماعات. فسكان قازان أجلوا عن بلادهم الى الشرق. وقد كان ثمة ضغط على السكان في بعض المناطق بحيث فضل هؤلاء الهجرة والابتعاد عن بلادهم. وقد كانت حصة التتار في شبه جزيرة القرم كبيرة في هجرتهم الى بلاد الامبراطورية العثمانية. وقد مر بنا ذكر الاعداد المهاجرة، فلا حاجة بنا الى التكرار.

وبعد احتلال روسيا لخانيتي قازان واستراخان جربت إرغام المسلمين على اعتناق المسيحية الارثوذكسية (مذهب الدولة الروسية الرسمي). ومع ان السكان قاوموا مقاومة شديدة، فقد قدر عدد الذين اعتنقوا المسيحية في تلك المناطق بنحو ٢٠٠,٠٠٠ نسمة.

كانت سياسة الدولة، في غالب الأحيان، تتجه نحو إضعاف النبلاء في المناطق المحتلة، إذ ان هذا يضعف الجماعة بكاملها، ريفية كانت أم بدوية. وكان سبيل الاضعاف مصادرة أراضيهم، بحيث يؤدي ذلك الى افقارهم.

أصابت روسيا النزعة القومية الروسية في الخمسينات والستينات من القرن التاسع عشر، على نحو ما أصابت شعوباً أخرى كثيرة. وعندها عني كثيرون من أصحاب الحل والعقد حتى من حملة الاقلام، بوجوب الاهتمام بترويس (أي جعل الناس روسيين) الشعوب التي تعيش في الامبراطورية، وذلك بقصد تقوية الدولة وتمتين وجودها. وكانت الطريقة التي درست ووضعت موضع التنفيذ، هي تعليم اللغة الروسية لتلك الشعوب؛ وتوضيح الثقافة الروسية لأفراد هذه الجماعات؛ ومن مظاهر هذه الحضارة التي يجب أن توضح بشكل خاص، المسيحية الارثوذكسية. وكان يرى

هؤلاء ان فتح المدارس التي تتبع هذا المنهاج لا بد لها من «تقرّب هذه الجماعات» نحو الروس وحياتهم ونظراتهم ومعتقداتهم.

كان التتار القازانيون، الذين أدركوا هذه القضية، أول المقاومين لأيّ محاولة يقصد منها المساس بأي شأن من شؤون الاسلام عقيدة أو مؤسسات. وقد كان هؤلاء الأكثر تعلماً بين المسلمين في الامبراطورية الروسية، وأكثرهم نشاطاً. فقد كانوا يزودون الفئات المسلمة الأخرى بالمعلمين (المسمى واحدهم الملاّ) الذين كانوا يوضحون القضايا الدينية من جهة وينبهون الى الخطر المحدق بالمسلمين من جهة أخرى. فكانت النتيجة ان الحماسة والتشدد والصمود كانت تتقوى على أيدي هؤلاء الملاّت.

ولم تكن المدارس التي فتحتها الحكومة الروسية كافية، ولا مؤثرة بالنسبة الى الأعداد الكبيرة من المتعلمين والمفروض ان تُؤَمِّن المدارس لهم.

فالحكومة الروسية لما توجهت الى القازاق، فتحت في كل من اورنبورغ وأومسك مدارس لتخريج مترجمين للوظائف المختلفة. كان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر. وقد كان المدرسون في هذه المدارس من تتار قازان، وكانت مناهجها اسلامية محضة. وكانت النتيجة ان الطلاب القازاق أصبحوا يدركون معنى الاسلام أكثر من ذي قبل وصاروا أشد تمسكاً بعقيدتهم أيضاً.

وأدركت وزارة التربية الروسية الأمر فاهتمت بفتح مدارس ذات مناهج غربية. لكن لا المدارس كانت كافية ولا كان المعلمون مقتدرين على القيام بواجبهم.

وقد أضيف الى مدرسة الترجمة في كل من اورنبورغ واومسك مدرسة حربية، ثم ألحق بمستشفى اورنبورغ تدريس التمريض والتطعيم. ومع ان بعض الطلاب القازاق دخلوا هذه المدارس «الحديثة» فإن أكثرية التلاميذ ظلّت بمنأى عن التربية الغربية.

أما في تركستان فقد واجهت الحكومة الروسية مدارس عريقة في وجودها غنية بالذين يعنون بها ادارة وتدريساً، وهم القضاة والمفتون والمدرسون والخطباء وأئمة المساجد. وكانت لها موارد مالية محترمة من الأوقاف ومن التبرعات التي ألف اثرياء التجار تقديمها. ومع ذلك فإن الذين يقومون بالتعليم كانوا يتناولون مخصصاتهم مما يتبرع به أقارب التلاميذ مباشرة لهم.

وفتحت مدارس رسمية في تركستان (في امارة بخارى وخانية خيوة) لكن ابناء البلاد استمروا في موقفهم السلبي من هذه المدارس، وفضلوا عليها المدارس الاهلية.

وهكذا، فقد كانت المدارس الاهلية واحداً من خطوط الدفاع التي استخدمت ضد محاولة الدولة «ترويس» سكان البلاد ـ التتار والقازاق والتركستانيين. إلا ان جميع المحاولات الذي قامت بها روسيا، وجميع الجهود التي بذلتها في سبيل «ترويس» الشعوب المسلمة أي دمجها بالشعب الروسي، لم تنجح. وكانت النتيجة ان ثار

المسلمون على الدولة الروسية مرات كثيرة؛ وازدادوا تمسكاً بالاسلام عن ذي قبل. وانتقلوا بعد ذلك الى محاولات جدية في سبيل إحياء اسلامي ونهضة اسلامية متعددة النواحي.

قامت ثورات محلية كثيرة، وكانت صغيرة من حيث المسيرة والنتائج. فقلما كانت تمر سنة دون قيام حركة ما ضد الروس. صحيح ان السكان في آسية الوسطى كانوا متعددي العناصر الاثنية، وكانوا معتادين على الحكم الفردي المستبد، ولم يكونوا مدربين عسكرياً، لكن المهم انهم كانوا شديدي الشعور بالاسلام وكان تعلقهم به، من حيث انه دين ونظام اجتماعي وطريقة حياة، قوياً جداً. فكان الرابطة الاساسية بين هذه الجماعات. وكان هذا الشعور أقوى في ولاية فرغانة (كوكند اداريا) منه في جهات أخرى. لذلك كانت حصتها من الثورات المحلية أكبر. وكانت غالباً ما تقوم الثورة عندما يتقدم أحد الزعماء من المتصوفة، فيدعي انه «خان» (أي أمير وزعيم) ويدعو الناس الى الثورة. وكانت هذه الثورات المحلية يُقضى عليها بسهولة.

لكنها على كل حال كانت تشير بدون أي شك الى أمرين هامين: ان السكان الوطنيين لم يكونوا راضين عن هذا الحكم الأجنبي؛ وان هذا الحكم الأجنبي زاد في شره في نظرهم انه جاء عن طريق شعب يختلف عنهم لا عنصراً فحسب، ولكن عقيدة أيضاً.

من الثورات المحلية التي كان لها دوي كبير حتى بالنسبة للمستوطنين الروس ثورة طشقند (١٨٩٢) وثورة انديجان (١٨٩٨). وكلا المكانين يقعان في تركستان. وقد خسر الروس الكثيرين من جنودهم، ولكن الخسارة في ثقتهم بمقدرة الدولة الروسية على حمايتهم كانت أكبر.

جاءت بعد ذلك ثورة ١٩٠٥ الروسية، والتي استمرت حتى سنة ١٩٠٧. هذه كانت أصلاً ثورة قوامها أهل الفكر من الروس، وعمال أُرسلوا الى آسية الوسطى للعمل في السكك الحديدية، ومنفيون روس عوقبوا لتصرفهم في روسيا الأم تصرفاً مسيئاً للحكومة فنفوا الى آسية الوسطى، وجنود وصف ضباط ممن شهد بعض المدارس الحربية، وفئات، ولو صغيرة، من أهل آسية الوسطى.

كانت هذه الثورة في سبيل اقامة حكم له نكهة من الدستورية في موسكو، ومن هنا انشيء الدوما (مجلس الدولة) الأول، كما كان فيها جماعات من اللبراليين وآخرون ممن أخذ يتجه يساراً دون أن يعرف ذلك.

ثورة سنة ١٩٠٥ (ـ ١٩٠٧) كان أثرها بالنسبة لمسلمي روسيا أنها فتحت أعينهم على آراء جديدة هي التي أصبحت أساساً للثورة والاصلاح.

٤ ـ يقظة العالم الاسلامي [روافد النهضة الاسلامية في آسية الوسطى]

شهد القرن السابع عشر امارات ضعف أخذت تنتشر في العالم الاسلامي. فآخر الدول الاسلامية الكبيرة التي ظهرت في شمال افريقية (السعديين والحفصيين) وفي الهند (المغول) بدأت في التفتت. فقد أدرك سياسيو القرن الثامن عشر ان الانحطاط السياسي قد أخذ فعلاً برقاب الدولة المغولية في الهند، وأصاب دولة الصفويين في ايران ونال حتى من الدولة العثمانية بعض الشيء. وهذا التأخر في الحياة السياسية رافقه اضطراب في الحياة الاقتصادية ونوع من البلبلة في المجتمع عامة. وبدا وكأن العالم الاسلامي قد توقف عن السير في مجال الفكر.

رافق هذا كله تقدم الدول الاوروبية في الاستيلاء على أجزاء من العالم الاسلامي والسيطرة عليها. وهذا كان آخذاً في الامتداد، بحيث ان الدول الغربية أصبحت، في القرن التاسع عشر، صاحبة النفوذ الأول في آسية وأفريقية. فجزر الهند الشرقية (اندونوسيا) تفردت بها هولندا، والهند وقعت في أيدي البريطانيين، والخليج العربي الذي عرف في اجزاء منه، وعبر ثلاثة قرون، البورتغاليين ثم الهولنديين ثم الفرنسيين، استقرت شؤونه في أيدي البريطانيين عن طريق معاهدات عقدت مع امرائه ومشايخه بدءاً من أوائل القرن التاسع عشر وحتى نهاية القرن نفسه. وكانت فرنسة قد استولت على القسم الأكبر من شمال افريقية (وفي اوائل القرن العشرين أتمت هي ـ في المغرب ـ وإيطالية ـ في ليبيا ـ السيطرة الاوروبية على المنطقة).

وبقدر ما كانت الجماعات الاسلامية تعاني من أمور التفرق والتفكك والتأخر ـ سياسياً واقتصادياً وفكرياً ـ كانت الدول الاوروبية تحكم قبضتها على البلاد التي تستولي عليها، وتخضعها لمخططاتها المبنية على أساس مصالح الدول المستعمرة.

والاستيلاء والتخطيط الاوروبيان كانا منوعين من حيث محاولة الافادة من المستعمرات. فقد كان الجانب الفرنسي منذ القرن التاسع عشر (والايطالي بعده في القرن العشرين) يبعث بالمعمرين من ابنائه الى الجزائر وتونس (ثم المغرب) ليقيموا في الأرض المنتزعة من أهل البلاد، وينتفعوا بخيراتها. ومثل ذلك فعل الروس في اتجاههم شرقاً، منذ احتلال خانيتي قازان واستراخان حتى الاستيلاء على كوكَنْد وبخارى وخيوة.

ومع ان البريطانيين لم يبعثوا بالمستوطنين، إلا الى شمال شرق افريقية وجنوبها،

فإنهم أدركوا سبل إحكام الطوق عسكرياً وسياسياً وإدارياً واقتصادياً بحيث أنهم أفادوا من أمبراطوريتهم الواسعة أيما فائدة.

هذا كله ـ التأخر والتفتت من جهة، والاحتلال والاستيلاء من جهة ثانية ـ دفع بالمسلمين ـ على يد النخبة منهم ـ الى التبصر في الأمر من الداخل. فالإسلام هو خط الدفاع الرئيسي للحفاظ على وجودهم وكيانهم، ولذلك يجب ان يبدأ البحث من هنا.

ويمكن القول إجمالاً بأن الاتجاه العام للمفكرين المسلمين في هذا المجال، كان له ثلاث مسافات أساسية: الأولى اعادة القوة الروحية الى المجتمع الاسلامي على أساس العودة الى الاسلام الصحيح؛ والثانية الدعوة الى الثورة ضد الحكم الأجنبي؛ والثالثة توضيح الانجازات التي تمت على أيدي المسلمين في نواحي الحضارة المختلفة عبر تاريخهم الطويل.

يضاف الى هذا أمران كانا في غاية الأهمية، ولو ان كثيرين ممن كتبوا في الموضوع لم يولوهما المكانة اللائقة بهما. الأول، ان فئات من المسلمين كانت ترى وجوب التعرف الى ما كان موجوداً في الحضارة الغربية، إذ قد يكون في ذلك فائدة. وأنا أقصد هنا الفئات، لا المصلحين. فالمصلحون أدركوا هذا وكتبوا عنه وكُتِبَ عنهم؛ لكن أن يتنبه الناس الى هذا الأمر، هو الذي أود ان أدونه هنا (وهذا تم بين مسلمي روسيا). أما الأمر الآخر فهو ان كثيرين من العاملين في المجال العام توصلوا الى أمر مهم، وهو ان أي عمل يُقصَدُ منه اصلاح المجتمع الاسلامي، يجب أن يقوم به المسلمون أنفسهم.

وهذه النخبة التي أشرنا اليها من رجال الفكر وأهل الاصلاح المسلمين ظهرت بدءاً من القرن الثامن عشر، وأخذ أفرادها يدعون لما يرون أنه صالح وحق. وقد اختلف هؤلاء المصلحون فيما بينهم، خاصة لما تصدى المحافظون والمقلدون للمجددين منهم.

هذه الاتجاهات التي ذكرنا، وجدت لها صدى في آسية الوسطى. لكن كي نتمكن من تتبع النهضة الاسلامية في تلك المنطقة، لا بد لنا من الاشارة الى بعض المصلحين الذين ظهروا في انحاء من العالم الاسلامي، وإلى نواحي تفكيرهم وطبيعة دعوتهم قبل ان ننكفىء الى منطقتنا الاصلية ـ آسية الوسطى ـ لمتابعة النهضة وحركات الاصلاح الاسلامية فيها. ويهمنا، بشكل خاص، الرجال الذين رفدوا بدعوتهم منطقتنا بالرأي والتنظيم.

ولا بد من أن نشير، بادىء الامر، الى ان الاتجاهات التي أشرنا اليها، والتي ننوي أن نجملها هنا، اختلفت نوعاً وكمّاً وقوة وضعفاً باختلاف الأماكن من الناحية الواحدة، وتباين آراء المصلحين أنفسهم، من الناحية الثانية.

كانت أولى حركات الإحياء الاسلامية في العصور الحديثة دعوة محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦/ ١٧٠٣ ـ ١٧٩٢) التي قامت في نجد. وهي دعوة الى التوحيد المطلق والعودة بالمجتمع الاسلامي الى الاسلام الصحيح، الذي أساسه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، على ما عرف في أيام الرسول (ص) والصحابة (ر). هذا من جهة؛ أما من الجهة الأخرى فإن محمد بن عبد الوهاب رفض كل ما خرج عن هذه القاعدة مما اتصل بالاسلام عبر تطوره التاريخي، ورفض التصوف بجميع أنواعه، وارتضى مذهباً واحداً أساساً للشرع والفقه ـ هو المذهب الحنبلي.

ومن ثم فإن دعوة محمد بن عبد الوهاب كان من أسسها رفض الواقع رفضاً تاماً، وإحياء الإسلام. وكانت دعوة صريحة قوية وكان صوتها مدوياً. ولم تقبل هوادة قط لما أقام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بالاتفاق مع امراء الدرعية من آل سعود، الدولة السعودية الاولى.

ولسنا معنيين هنا بتطور الدعوة والدولة وما أصاب الاثنتين فيما بعد. لكننا نود أن نشير الى أن شيئاً سماه بعض الكتاب الهنود المسلمين «الدعوة الوهابية» انتشر في الهند ـ في البنغال وفي الحدود الشمالية الغربية للهند، وذلك في عشرينات القرن التاسع عشر. ويرجع ذلك الى سيد أحمد البريلاوي (١٧٨٦ ـ ١٨٣١). ويبدو ان جماعة البريلاوي وأتباعه ظلوا على شيء من النفوذ في تلك المناطق، وكانوا يحرّكون الثورات والحروب الصغيرة ضد بريطانية بين سنتي ١٨٢٠ و١٨٧٠.

في هذا السبيل انتقلت بعض آراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخبارها الى آسية الوسطى. فالاتصال في تلك المناطق كان دائماً قائما ـ وقد يقوى ويضعف مع الظروف والأحوال.

أما الزعيم الهندي المسلم الذي كان أول من تناول أحوال المسلمين في بلاده، فهو شاه ولي الله (١٧٠٣ ـ ١٧٦٣). وقد عاصر تفتت دولة المغول وتوزعها. فبعد هجوم الملك الصفوي الايراني نادر شاه على الهند (١٧٣٨ ـ ١٧٣٩) هزلت تلك الدولة تماماً؛ فأخذ البريطانيون، مع الزمن، يوسعون مناطق نفوذهم في البنغال وأواسط البلاد؛ كما أقام الهندوس والسيخ دويلات لهم (انتهت سلطة الدولة المغولية سنة ١٨٥٧).

تعلم شاه ولي الله في مدرسة كانت لأبيه، وكان أبوه المدرس فيها، ثم علّم في هذه المدرسة مدة. وذهب الى الحجاز لأداء فريضة الحج، وجاور هناك سنة وبعض السنة (١٧٣٣ ـ ١٧٣٤). وهذا يسر له التعرف إلى أحوال المسلمين في جهات مختلفة.

رفض شاه ولي الله الوضع الذي عاشه، من حيث الاضطراب والتفكك والجهل في الجماعة الاسلامية. ولذلك نشط في دعوته الى إعادة الحياة القوية الكريمة للجماعة، وذلك بإحياء الدولة المسلمة. وكان شاه ولي الله يرى ان المسلمين بحاجة

الى نهضة أدبية فكرية روحية كي يتمكنوا من إحياء وجودهم سياسياً. والخطوة الأولى هي توحيد المسلمين بعد ان تقسمتهم الاهواء والمصالح. وكان يدعو المسلمين، حكاماً وقادة وشعباً، الى تنمية الثقة بالنفس وبالمستقبل، والعمل على ذلك.

ولم ير شاه ولي الله في الذي تم في الاسلام،منذ عهد الرسالة، شراً أو بعض شر يجب أن يُتَخلَّص منه. رأى في الكثير مما يدعو الى الاعتزاز من حيث الانجازات الحضارية. وهذه يجب ان يُعنى بها لأنها لبنات تبني الثقة بالنفس وتقويها، والمقدرة على الانتاج الجيد في المستقبل.

ولعلّ خير ما يمكن ان يقال عن جوهر تفكيره الاصلاحي هو أنه كان مزيجاً من الاسلام الصحيح والصوفية الأصيلة (لا تصوف أيامه) مع تفهم للأبعاد النفسية لمسلمي بلاده. وان هذه النواحي الروحية هي التي تدفع المؤمنين قدماً.

كان شاه ولي الله داعية، وكان يبعث بالرسالة تلو الرسالة الى كل ذي شأن، مهما كان شأنه ومهما كانت مرتبته، يدعوه الى الايمان والعمل والتعقل.

وقد قام شاه ولي الله بعمل آخر مهم، هو أنه نقل القرآن الكريم الى اللغة الفارسية، وهي أول ترجمة الى لغات شرقية. وقد قام ابناه شاه رقي الدين وشاه عبد القادر بترجمة القرآن الكريم الى اللغة الاوردية. وبذلك أصبح في متناول قراء هاتين اللغتين ان يقرأوه كل بلغته.

فضلاً عن هذين الابنين، كان لشاه ولي ابنان آخران، أحدهما، وهو الذي يعنينا أمره، عبد العزيز (١٧٤٦ ـ ١٨٢٤) وحفيد، هو شاه اسماعيل (١٧٨١ ـ ١٨٣١)، وهذان هما اللذان جمعا رسائل شاه ولي الله ونظماها وقاما بتوضيح آرائه. ومن خلال عمل هذين الرجلين انتشرت آراء ولي الله من الهند شمالاً، ووصلت الى بخارى، في تركستان.

لا شك في أن السنوسية من أمهات الحركات الدينية الاصلاحية التي عرفها القرن التاسع عشر. وهي الدعوة التي أطلقها السيد محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢ ـ ١٢٧٦/ ١٧٨٧ ـ ١٨٥٩) ونمّاها ابنه السيد المهدي (١٢٦٠ ـ ١٣٢٠/ ١٨٤٤ ـ ١٩٠٢). وتعتبر السنة التي أنشأ فيها السيد محمد بن علي السنوسي زاوية البيضا في الجبل الاخضر (١٢٥٩/ ١٨٤٣) البدء الرسمي للحركة.

كانت الدعوة السنوسية أساسها الاسلام الصحيح، لا الاسلام الذي داخلته البدع. ومن ثم فإنها كانت تدعو الى العودة بالإسلام الى ما كان عليه أيام الرسول (ص) وخلفائه الاقربين. ولذلك فقد كان القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الأصلان اللذان يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام، دون الاجماع والقياس المتأخرين. وكان السنوسي الكبير يعتبر ان باب الاجتهاد لم يقفل. ولذلك فالاجتهاد جائز، على ان

يقتصر ذلك على الاسين الاولين للإسلام أي الكتاب والسنة.

كان مؤسس السنوسية يقبل بالتصوف الصحيح. لكنه لم يقبل التصوف الكسول. أراد أتباعه على أن يكونوا عباداً عاملين نشيطين يعيشون من كد اليمين. لذلك فقد كانت الزوايا السنوسية تحوي المساجد والمدارس والمزارع والمتاجر. ولعلّ خير ما يمثل الروح العملية التي أراد السنوسي الكبير ان تكون منطلقاً لدعوته في الحياة، هو ان بناء الزاوية ـ أي زاوية ـ كان يجب أن يقوم به أهل المنطقة الذين يطلبون اقامة زاوية في بلادهم. فالزاوية كانت، منذ وضع حجرها الأساسي، رمز النشاط والعمل المنتج.

انتشرت السنوسية في ليبيا وجوارها، وكان لزواياها، وشيوخها، نفوذ في حفظ الأمن ومساعدة القوافل التجارية. وقد أقامت نوعاً من الادارة الخاصة، لكنها لم تستقل عن الدولة العثمانية. أما في أيام الحكم الايطالي فقد كان لها ـ زعماء وقادة وأفراداً ـ دور هام في الكفاح الوطني (الذي استمر حتى احتلت ايطالية البلاد بأجمعها سنة ١٩٣١).

واجهت السنوسية الكثيرمن مشكلات المجتمع الاسلامي، وجادلتها بالكتابة (السيد محمد بن علي السنوسي نفسه) والمناقشة والعلم. ولم تحمل السيف لإقامة بناء خاص بها. على العكس، بدت السنوسية وكأنها حركة انكفائية، فتجنبت المواجهة مع الأتراك العثمانيين. ونقلت مركزها من البيضاء في الجبل الاخضر الى الجغبوب في الصحراء، الى الكفرة في قلب الصحراء. وقد امتشقت السنوسية الحسام للدفاع عن نفسها وإنجازاتها وعن البلاد الليبية، لما انحشرت بين التقدم الفرنسي من الجنوب والزحف الايطالي من الشمال.

أود ان أعود الى الشرق ثانية، لأتحدث عن زعيم هندي مسلم كان صاحب دعوة وكان له برنامج عملي لوضع دعوته موضع التنفيذ. وقد فعل ذلك وطبق الكثير من برنامجه في حياته.

تعلم السير سيد أحمد خان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨) القرآن الكريم وعلومه في مكتب (كتاب) عادي في دلهي. إلا أنه كان له مرشدان روحيان هما جده لأمه، والعلامة شاه غلام علي. وقد غرسا في نفسه التقوى والرغبة في العلم. وأتيح له معلمة تعنى به في البيت ومعلمون تلقى على أيديهم اللغتين العربية والفارسية ومبادىء الرياضيات والطب، كما كانا يدرسان في المدارس التقليدية، أي بعض ما عرف منهما عند العرب. وكان ينوي دراسة الطب، لكن ظروفاً مادية حملته على الانقطاع عن التعلم. لذلك قبل وظيفة حكومية، وعكف على تعليم نفسه وتثقيفها بالقراءة النافعة. وكانت دلهي يومها تقوم فيها مجالس أدبية يغشاها أهل الأدب والفكر، فأخذ يتردد اليها. وبذلك انفتحت

أمامه أبواب واسعة للعلاقات والصلات والاستفادة من أهل العلم والمعرفة فيها.

انصرف سيد أحمد خان الى المعارف الحديثة يغترف من بحرها. ولم يكن مثل هذا التصرف مما يقبله الكثيرون. لذلك ازور لتصرفه المحافظون، بل انهم أخذوا ينالون منه.

كان سيد أحمد خان في الاربعين من عمره لما قامت الثورة الكبرى في الهند (١٨٥٧)؛ وهي سنة نهاية الحكم المغولي رسمياً. ولم يخسر المسلمون معارك في الثورة فحسب، بل ان خسارتهم كانت أكبر بالنسبة الى الحياة العامة في البلاد. فقد حرموا حتى من كثير من الوظائف؛ لقد كان موقف الحكومة البريطانية من المسلمين موقفاً عدائياً بالمرة.

تركت الحالة العامة في نفس سيد أحمد خان أثراً سيّئاً كبيراً، فانصرف الى درس أسباب هذا التردي الذي أصاب المسلمين، ثم الى الاهتمام بالوسيلة الناجعة للتغلب على هذا الوضع الأليم، بحيث يعود المسلمون الى ما كانوا عليه، ويتمكنون مرة ثانية، من القيام بإنجازات حضارية على نحو ما سبق.

كان تأخر المسلمين قد شغل سيد أحمد خان من قبل، لكن الثورة فجرت اهتمامه ونشاطه للبحث. وقد ارتأى ان السبيل الوحيد الذي يمكن أن يؤدي بالجماعة الاسلامية الى النهوض هو الاسلام. لكن المهم هو ان تبدل الجماعة نظرتها الى الحياة، وان يتسلح المسلمون بالعلوم الحديثة كي يجاروا الزمن الذي يعيشون فيه. فالنظرة القديمة التقليدية أصبحت بالية، ولا تصلح لأيامهم هذه.

وأتيح لسيد أحمد خان ان يقضي سنة ونصف السنة في انكلترا (١٨٦٩ - ١٨٧٠) فأتاح له هذا ان يتعرف الى الانجازات الحضارية الحديثة في العلوم والتربية عن كثب، وان يطلع على مناحي التفكير في تلك البلاد. فلما عاد كان إيمانه بآرائه ونظراته وبرنامجه قد ازداد رسوخاً.

كان سيد أحمد خان قد وضع، بعيد ثورة سنة ١٨٥٧، دراستين: الواحدة «المسلمون في الهند»، والثانية «أسباب الثورة الهندية». وأوضح فيهما آراءه الاصلاحية، التي، كما ذكرنا، لم تكن ترضي المحافظين. وأثناء وجوده في انكلترا وضع كتاباً اسمه «مقالات في حياة محمد». ولما رجع من انكلترا أنشأ مجلة سماها «تهذيب أخلاق» (أي تهذيب الاخلاق). وقد تناول في مقالاته فيها عرضاً لجميع العوامل التي أدت الى تأخر المسلمين، وتحدث عن العناصر اللازمة لترقيتهم، ومنها الأخذ بالمدنية الحديثة.

يومها اشتد الهجوم عليه من المحافظين من المسلمين فاتهموه بأنه رهينة للغرب، وأنه يعمل بإرشادهم، وانه يدعو الى أمور لا يقبلها الاسلام. وزاد الطين بلة ان اتهم الرجل بالكفر.

لكن سيد أحمد خان لم يأبه لهذا كله، بل استمر يعمل بشجاعة وهمة. فأنشأ عام ١٨٧٠ (في مدينة بنارس) «جمعية تقدم المسلمين الهنود في الشؤون التربوية». وهذه الجمعية هي التي أنشأت «الكلية الاسلامية الانكليزية ـ الشرقية» في عليكرة، التي بدأ العمل فيها سنة ١٨٧٥ (ولو ان البناء لم يتمَّ إلا بعد سنتين). وكان الغرض الأساسي لإنشاء هذا المعهد هو تعليم العلوم الحديثة واللغات الاوروبية الى جانب العلوم الاسلامية الأصيلة. وهذه كانت تعلم بطريقة شبه حديثة وباللغة الاوردية. أما بقية الموضوعات فكانت تدرّس باللغة الانكليزية. وهذه الكلية بالذات هي التي أصبحت الجامعة الاسلامية في عليكره سنة ١٩٢٠. [وقد أتيح لي زيارة هذه الجامعة مرتين، كانت الأولى سنة ١٩٥٨ لحضور مؤتمر عن الدراسات الاسلامية. أما الثانية فكانت سنة ١٩٧١ إذ قضيت فيها ستة أسابيع أستاذاً زائراً].

ولما تقاعد سيد أحمد خان من وظيفته الحكومية (١٨٧٦) استقر في عليكره وانصرف بكليته الى شؤون الكلية. وقد أصبحت، بوصفها الكلية الاسلامية الوحيدة في الهند كلها، محط رحال الطلاب المسلمين من جميع انحاء البلاد، وصارت منبراً للقائلين بوجوب الأخذ بالتعليم الغربي والتربية الحديثة.

كان سيد أحمد خان مرشداً لمسلمي الهند وفيلسوفهم في شؤون التربية والتعليم، نظراً وعملاً. لكن بعد ان اطمأن الى الكلية وعملها، وبعد ان استقدم لها كبار الأساتذة من الهند ومن الخارج، أصبح بوسعه ان يعطي الحياة السياسية قسطاً أكبر من الوقت. وكان الرجل قد عيّن عضواً في المجلس التشريعي الامبراطوري، وفي لجنة التربية (التابعة لحكومة الهند)، كما كان قد أنشأ المؤتمر التربوي الاسلامي، الذي كان يعقد اجتماعاته في مختلف مدن الهند كي يصل صوت عليكره الى جميع انحاء البلاد.

وهكذا انخرط السير سيد أحمد خان (منح لقب سير سنة ١٨٨٨) في الحياة العامة بكل قوته. ويمكن اجمال موقفه السياسي، بالنسبة لمسلمي الهند والهند نفسها فيما يلي:

أولاً ـ ان المسلمين (في الهند) أمة لها كيانها وعقيدتها ونظمها وتقاليدها. وهم يختلفون عن الهندوس الذين هم أمة أخرى. لذلك لما انشىء المؤتمر الهندي (١٨٨٥) لم يقبل السير سيد أحمد به ممثلاً للمسلمين، كما مَثّل الهندوس. كان يرى ان المسلمين سيكونون فيه كمية هامشية، وهذا ما لم يكن مستعداً لقبوله، ولم يكن يسمح للمسلمين ان يقبلوا به. وقد أوضح رأيه بقوله ان الهندوس والمسلمين يختلفون ويتباينون فريقاً عن فريق. ان كلا منهما «أمة» خاصة. والفروق بين الامتين كبيرة.

ثانياً ـ يترتب على ذلك، ان يكون لهذه الأمة (المسلمة) تنظيماتها ومؤسساتها التي تحقق لها شخصيتها ـ أفراداً وجماعات ـ على الأسس التي يقرها الاسلام.

ثالثاً ـ هذه الأسس تختلف عن الأسس التي تقوم عليها التنظيمات والمؤسسات

التي تتطلبها الأمة الهندوسية. لذلك لا يمكن الجمع بين الفريقين.

هناك من يرى ان الحركة التي انتهت بقيام دولة الباكستان سنة ١٩٤٧، انما وضع اللبنة الأولى فيها السير سيد أحمد خان.

توقفنا عند هذا الرجل لأنه من أول من أهاب بالمسلمين (ولو انه تحدث أصلاً الى المسلمين الهنود) بأن يتطوروا علماً وتربية وآراء كي يجاروا الزمن، وان يعيدوا مكانتهم، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وان مجرد التعليم التقليدي ليس كافياً (هذا ان لم يكن ضاراً).

والمهم ان الرجل كان عملياً. ارتأى وخطط ونفذ. والجامعة الاسلامية في عليكرة شاهد على أهميته.

وبسبب الاتصالات المستمرة بين الهند وأواسط آسية، خاصة بخارى، وصلت أصداء من سيد أحمد خان وأعماله. فكان له تأثير كبير في تلك الأصقاع.

بقي علينا، كي نتم الإشارة الى المصلحين الذين رفدت آراؤهم وأعمالهم آراء مصلحي أسية الوسطى ومسلمي روسيا عامة، بقطع النظر عن الوسيلة، أن نقف عند السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧).

ولد الافغاني سنة ١٨٣٨. وثمة خلاف، ليس بذي قيمة بالنسبة لنا هنا، فيما إذا كان ميلاده في إيران أو في أفغانستان. ولكنه نشأ في الثانية وتلقى دروسه الأولى على والده وشيوخ من اصدقائه، فحفظ القرآن وحذق العلوم الدينية وتثقف بالرياضيات والطب على طريقة القدامى، وأغرم بالتنجيم. وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره لما انتقل الى طهران، ثم الى الهند، حيث بدأ اتصاله بالعلم الحديث والآراء الفلسفية.

لسنا ننوي أن نتابع تنقلات الأفغاني خطوة خطوة، لذلك فإننا نكتفي بالقول إنه زار الحجاز حاجاً ومجاوراً، وزار مصر أولاً ثم أقام فيها (١٨٧١ - ١٨٧٩). وحدث له مثل ذلك بالنسبة لتركية. فقد زار استانبول أولاً، ثم دعاه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) للإقامة ضيفاً عليه. فذهب (١٨٩٢) وأقام هناك حتى وفاته بالسرطان (١٨٩٧). وزار الافغاني لندن والولايات المتحدة وأقام في باريس حيث وافاه صديقه الشيخ محمد عبده (من بيروت حيث كان منفياً). فأصدرا هناك مجلة «العروة الوثقى» (ظهر أول عدد منها في ١٣ آذار/ مارس ١٨٨٤) التي صدر منها ثمانية عشر عدداً فقط. وقد زار الأفغاني روسيا، وهناك نجح في إقناع أولي الأمر في ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الروسية.

يبدو من هذا ان الافغاني قضى أكثر حياته في سفر وتنقل وإقامة هنا وهناك، قد تقصر وتطول بحسب موقف السلطات المحلية منه (مصر وإيران نفتا الافغاني).

ذلك بأن الرجل كان داعية إسلامياً من نوع جديد، بالنسبة الى أيامه ومعاصريه وإلى حكام الأقطار الاسلامية، وطنيين كانوا أم أجانب. فهو يدعو الأولين الى التخلي عن الظلم والاستبداد ويدعو الآخرين الى الرحيل عن المستعمرات؛ أو على الأصح ترحيلهم عنها.

دعا الافغاني المسلمين، في أقطار الارض جمعاء، الى التطور والتقدم كي تعود اليهم قوتهم ويعيدوا أمجادهم. وكان يرى، على ما رأى السير سيد أحمد خان، ان هذا لا يتم الا بالانفتاح على الدنيا الجديدة والأخذ بمبادىء العلم الحديث والعمل بقواعده. أي إنه يترتب على المسلمين أن يجددوا نظرتهم الى الحياة من مختلف وجوهها.

وهذا يقتضي ان يبدل حكام المسلمين الكبار - مثل سلطان العثمانيين وشاه إيران - مواقفهم من حكم شعوبهم، فينتقلوا من الحكم الاوتوقراطي الفردي المستبد الى حكم دستور عادل، يكون فيه للشعب حقوق تراعى، ودور فعّال ينظَّم.

أما بالنسبة الى ديار الاسلام التي وقعت تحت سلطان الأجنبي، فالواجب عليها هو ان تتخلص من هؤلاء المستعمرين وتستقل، كي تحقق شخصيتها الاسلامية القائمة على أسس الاسلام الصحيح، مع الإحاطة بالأوضاع العالمية العامة، والسير في ركاب العلم، مع الايمان العميق.

كان الافغاني يدعو الى اتحاد المسلمين قاطبة للدفاع عن أنفسهم وبلادهم ولحماية كيانهم وشخصيتهم. وكان يرى أنه من الضروري أن تنشط كل جماعة مسلمة لمساعدة أيّ جماعة مسلمة يقع عليها أي اعتداء.

كان يدعو الى اتحاد اسلامي عام، يشمل جميع الشعوب الإسلامية. وكان يأمل ان يؤدي ذلك الى قيام وحدة سياسية تامة في دولة اسلامية كبرى تحت سلطة خليفة واحد.

والأفغاني كان، في تنقلاته وزياراته، يتحدث عن هذه الأمور، ويناقش فيها ويجادل، ويشرح ويفسر، ويدعو المسلمين الى العمل بأنفسهم معتمدين على قواهم. وكان يدعو غير المسلمين، وخاصة الدول الاستعمارية، الى الاقلاع عن التسلط الغاشم واستغلال البلاد والشعوب لمصلحتهم.

وكل من كتب عن الأفغاني يشير الى ما قام بينه وبين ارنست رينان، الفيلسوف الفرنسي، من نقاش صحفي حول الاسلام. وأنا، مع اعترافي بأن مثل هذا العمل مهم، فإنني أرى الأهم في عمل الرجل دعوته للمسلمين أن ينضوا عنهم الثوب القديم المهترىء ويستبدلوه بأثواب جديدة متينة لحمتها الايمان وسداها العلم.

كان الأفغاني يتحدث عن هذه الأمور حيثما وُجِد - في بيته وفي الازهر (في القاهرة) وفي المساجد الأخرى وفي قاعات عامة. وكان فصيحاً بليغاً يجيد لغات عدة، لذلك كان بإمكانه الوصول الى سامعيه وقارئيه مباشرة. وهذا أمر مهم لأي

التي تتطلبها الأمة الهندوسية. لذلك لا يمكن الجمع بين الفريقين.

هناك من يرى ان الحركة التي انتهت بقيام دولة الباكستان سنة ١٩٤٧، انما وضع اللبنة الأولى فيها السير سيد أحمد خان.

توقفنا عند هذا الرجل لأنه من أول من أهاب بالمسلمين (ولو انه تحدث أصلاً الى المسلمين الهنود) بأن يتطوروا علماً وتربية وآراء كي يجاروا الزمن، وان يعيدوا مكانتهم، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. وان مجرد التعليم التقليدي ليس كافياً (هذا ان لم يكن ضاراً).

والمهم ان الرجل كان عملياً. ارتأى وخطط ونفذ. والجامعة الاسلامية في عليكرة شاهد على أهميته.

وبسبب الاتصالات المستمرة بين الهند وأواسط آسية، خاصة بخارى، وصلت أصداء من سيد أحمد خان وأعماله. فكان له تأثير كبير في تلك الأصقاع.

بقي علينا، كي نتم الإشارة الى المصلحين الذين رفدت آراؤهم وأعمالهم آراء مصلحي أسية الوسطى ومسلمي روسيا عامة، بقطع النظر عن الوسيلة، أن نقف عند السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧).

ولد الافغاني سنة ١٨٣٨. وثمة خلاف، ليس بذي قيمة بالنسبة لنا هنا، فيما إذا كان ميلاده في إيران أو في أفغانستان. ولكنه نشأ في الثانية وتلقى دروسه الأولى على والده وشيوخ من اصدقائه، فحفظ القرآن وحذق العلوم الدينية وتثقف بالرياضيات والطب على طريقة القدامى، وأغرم بالتنجيم. وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره لما انتقل الى طهران، ثم الى الهند، حيث بدأ اتصاله بالعلم الحديث والآراء الفلسفية.

لسنا ننوي أن نتابع تنقلات الأفغاني خطوة خطوة، لذلك فإننا نكتفي بالقول إنه زار الحجاز حاجاً ومجاوراً، وزار مصر أولاً ثم أقام فيها (١٨٧١ ـ ١٨٧٩). وحدث له مثل ذلك بالنسبة لتركية. فقد زار استانبول أولاً، ثم دعاه السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) للإقامة ضيفاً عليه. فذهب (١٨٩٢) وأقام هناك حتى وفاته بالسرطان (١٨٩٧). وزار الافغاني لندن والولايات المتحدة وأقام في باريس حيث وافاه صديقه الشيخ محمد عبده (من بيروت حيث كان منفياً). فأصدرا هناك مجلة «العروة الوثقى» (ظهر أول عدد منها في ١٣ آذار/ مارس ١٨٨٤) التي صدر منها ثمانية عشر عدداً فقط. وقد زار الأفغاني روسيا، وهناك نجح في إقناع أولي الأمر في ترجمة القرآن الكريم الى اللغة الروسية.

يبدو من هذا ان الافغاني قضى أكثر حياته في سفر وتنقل وإقامة هنا وهناك، قد تقصر وتطول بحسب موقف السلطات المحلية منه (مصر وإيران نفتا الافغاني).

ذلك بأن الرجل كان داعية إسلامياً من نوع جديد، بالنسبة الى أيامه ومعاصريه وإلى حكام الأقطار الاسلامية، وطنيين كانوا أم أجانب. فهو يدعو الأولين الى التخلي عن الظلم والاستبداد ويدعو الآخرين الى الرحيل عن المستعمرات؛ أو على الأصح ترحيلهم عنها.

دعا الافغاني المسلمين، في أقطار الارض جمعاء، الى التطور والتقدم كي تعود اليهم قوتهم ويعيدوا أمجادهم. وكان يرى، على ما رأى السير سيد أحمد خان، ان هذا لا يتم الا بالانفتاح على الدنيا الجديدة والأخذ بمبادىء العلم الحديث والعمل بقواعده. أي إنه يترتب على المسلمين أن يجددوا نظرتهم الى الحياة من مختلف وجوهها.

وهذا يقتضي ان يبدل حكام المسلمين الكبار ـ مثل سلطان العثمانيين وشاه إيران ـ مواقفهم من حكم شعوبهم، فينتقلوا من الحكم الاوتوقراطي الفردي المستبد الى حكم دستور عادل، يكون فيه للشعب حقوق تراعى، ودور فعّال ينظَّم.

أما بالنسبة الى ديار الاسلام التي وقعت تحت سلطان الأجنبي، فالواجب عليها هو ان تتخلص من هؤلاء المستعمرين وتستقل، كي تحقق شخصيتها الاسلامية القائمة على أسس الاسلام الصحيح، مع الإحاطة بالأوضاع العالمية العامة، والسير في ركاب العلم، مع الايمان العميق.

كان الافغاني يدعو الى اتحاد المسلمين قاطبة للدفاع عن أنفسهم وبلادهم ولحماية كيانهم وشخصيتهم. وكان يرى أنه من الضروري أن تنشط كل جماعة مسلمة لمساعدة أيّ جماعة مسلمة يقع عليها أي اعتداء.

كان يدعو الى اتحاد اسلامي عام، يشمل جميع الشعوب الإسلامية. وكان يأمل ان يؤدي ذلك الى قيام وحدة سياسية تامة في دولة اسلامية كبرى تحت سلطة خليفة واحد.

والأفغاني كان، في تنقلاته وزياراته، يتحدث عن هذه الأمور، ويناقش فيها ويجادل، ويشرح ويفسر، ويدعو المسلمين الى العمل بأنفسهم معتمدين على قواهم. وكان يدعو غير المسلمين، وخاصة الدول الاستعمارية، الى الاقلاع عن التسلط الغاشم واستغلال البلاد والشعوب لمصلحتهم.

وكل من كتب عن الأفغاني يشير الى ما قام بينه وبين ارنست رينان، الفيلسوف الفرنسي، من نقاش صحفي حول الاسلام. وأنا، مع اعترافي بأن مثل هذا العمل مهم، فإنني أرى الأهم في عمل الرجل دعوته للمسلمين أن ينضوا عنهم الثوب القديم المهترىء ويستبدلوه بأثواب جديدة متينة لحمتها الايمان وسداها العلم.

كان الأفغاني يتحدث عن هذه الأمور حيثما وُجِد ـ في بيته وفي الازهر (في القاهرة) وفي المساجد الأخرى وفي قاعات عامة. وكان فصيحاً بليغاً يجيد لغات عدة، لذلك كان بإمكانه الوصول الى سامعيه وقارئيه مباشرة. وهذا أمر مهم لأي

«داعية»، مهما كانت الدعوة التي يتبناها. فضلاً عن ذلك فقد كان الأفغاني مؤمناً بدعوته غاية الايمان ـ.

وبسبب اتساع الرقعة التي تتقل الرجل فيها ـ وهو الفيلسوف الخطيب الصحفي ـ وتعدد الوسائل التي لجأ اليها لإسماع صوته، كان له أثر بالغ في حركة الإحياء الاسلامي عامة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وكان من الطبيعي أن تعتبره «السلطات» الأجنبية أولاً، والوطنية المتعسفة ثانياً، محرضاً سياسياً خطيراً. لذلك تعرض للنفي والحجر المنزلي والسجن.

ولعل من المفارقات التي يجب أن يشار اليها هو أن عبد الحميد، سلطان تركية، كان يخطط، بقدر ما كان لديه من دهاء وبما كان حوله من مستشارين (لم يكونوا دوماً أوفياء)، لجامعة اسلامية، يكون هو شخصياً واسطة العقد فيها وصاحب القول الفصل في شؤونها. ولما كان الأفغاني يدعو الى وحدة اسلامية، حسب السلطان أنه يستطيع أن يجند المصلح (الافغاني) لحسابه فاستضافه. وكان الأفغاني قد مل التنقل والتشرد (ولعله كان قد أصيب بمرضه الذي توفي فيه) فقبل الدعوة.

كان الرجلان على اتفاق تام في الفكرة. لكنهما كانا على طرفي نقيض في الخطوة وفي الروح. فالسلطان، وهو السيد المستبد المطلق، يدعو الى اقامة هذا البناء ليجلس هو على قمته. أما الأفغاني فكان يدعو الى اقامة كيان اسلامي أساسه اتفاق بين دول اسلامية حرة ومستقلة، وتنبني أحكامه على الحرية والدستور.

لذلك رأى عبد الحميد (وتقدم له الناصحون من زبانيته) أن يمنع الأفغاني من الاتصال بالناس، وكان صوت إصلاحه مسموعاً في استانبول، بعد ان تكشفت له مواقف المصلح الصحيحة. فكان الأفغاني يعيش أيامه الأخيرة في قفص من ذهب.

ومن الطريف ان هذا الرأي للأفغاني أعجب أمير بخارى عبد الأحد (١٨٨٥ ـ ١٩٠١)، إذ ظن أنه يناسبه. لكنه كان أقل طموحاً من عبد الحميد، فاكتفى بأن يكون رئيساً لاتحاد المسلمين في روسيا فقط!.

٥ ـ الفصول الأولى

تبدو الفصول الأولى للحركات الاسلامية الاصلاحية في آسية الوسطى وما جاورها (من خانيات التتار الاصلية في الفولغا والقفقاس والقرم) متشعّبة متنوّعة متشابكة، سيراً وأهدافاً؛ بل قد يظهر فيها شيء من التناقض. ومن المهم أن نقرر، بادىء ذي بدء، ان مثل هذه الظواهر لا يمكن اعتبارها غريبة بالنسبة للمنطقة. فهي أولاً منطقة متسعة جداً، وكان تنقل القبائل وتهجير الجماعات فيها، في القرن التاسع عشر (وقبله) كثيراً ما يحدثان. وكان السكان يتكلمون لغات مختلفة. ومعنى هذا ان شعوبها كانت تعيش على مستويات متباينة ـ وان ثقافاتها كانت متعددة في المبنى والمحتوى.

فنحن إذا أخذنا التتار في بلادهم الأصلية، وفي مهاجرهم في سهوب القازاق وتركستان، خاصة في بخارى (وفي تركية فيما بعد)، وجدنا أنهم كانوا الأغنى بسبب تعاطيهم التجارة شرقاً وغرباً وجنوباً، عبر أكثر المناطق؛ وكانوا الأكثر نشاطاً وعنفواناً وقوة. ولعلّ مقارعتهم للروس مدة أطول شحذت عزيمتهم. وكانوا الاكثر تطوراً لاتصالهم بالروس، حتى في روسيا الاوروبية، وبالدولة العثمانية مدة طويلة. وقد كان منهم من زار مكة المكرمة والمدينة المنورة للحج والمجاورة. وكانوا يعتبرون أنفسهم أنهم رسل الحضارة في آسية الوسطى، وأنهم رفدوا مدنية الشعوب الساكنين فيها، بما نقلوه اليهم من نتاج فكري قبسوه قبل غيرهم. وسنرى، عندما نتحدث عن أوائل دعاة الاصلاح، ان التتار منهم كانوا السابقين زمناً، وكانوا موزعين مكاناً.

قاوم القازاق الروس طويلاً، لما جاء هؤلاء خانياتهم محتلين. ولكنهم عجزوا، في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر، عن مقاومة الجحافل الروسية، فاستكانوا، أو هكذا بدا للحكام الروس. لكن القازاق، الذين تعرضوا للأفكار التي نشرها التتار بينهم ـ وبين سواهم ـ عن معنى الجامعة الاسلامية والجامعة التركية بعدها، تشبّعوا بفكرة أنهم أمّة، وليسوا قبيلة. ومن هنا انطلاقهم في التعامل مع الروس ومع الواقع.

وأدرك الحكام الروس معنى هذا فجربوا ان يحوّلوا هذا الشعور لمصلحتهم. وكانت الخطة، بدءاً من سبعينات القرن نفسه، هي أن يُحيَّد التتار بالنسبة للقازاق، وذلك بإقصائهم عن مجالات التعليم في المدارس التي كانوا قد تدخلوا فيها كثيراً (على ما سنرى). واهتمت الحكومة الروسية بفتح مدارس روسية ـ قازاقية.

نتج عن دخول القازاق في المدارس الروسية ان نشأت بينهم جماعة متعلمة متجددة، ولنسمّها نُخبويّةً تجوزاً، وهي التي قبلت الكثير من الحضارة الغربية (الآتية عن طريق الروس). وكانت هذه الفئة ترى ان التعاون مع الروس هو السبيل الوحيد للقازاق كي يتطوروا.

ولعله كان من الطبيعي ان تكون طلائع المتأثرين بالوضع الجديد (والمستفيدين منه) من ارستقراطية القازاق. فقد عيّن الشباب في مناصب عسكرية، وترقوا فيها الى درجات رفيعة، وأُعطوا إعانات مالية سخية، كما كانوا يُشَجعُون على إرسال أولادهم الى المدارس الروسية. وكان الناجحون منهم ينقلون الى المدارس الحربية أو غيرها.

ولا شك ان عدد هؤلاء الاشخاص كان ضئيلاً جداً بالنسبة الى عدد السكان. وكانوا بحكم مكانتهم الاجتماعية متميزين أصلاً عن مجموع السكان. فأصبحوا بحكم ثقافتهم الجديدة وجهلهم للثقافة الوطنية، وعجزهم عن استعمال لغتهم الأصلية إلا بصعوبة، بعيدين عن مجتمعهم.

كان بين هذه النخبة الجديدة فئة من قادة «التجدد» (التطور)، وأبرزهم سلطان تشوكان ڤاليخوف (١٨٣٥ - ١٨٦٥) وابراغيم أَلتِنْسارين (١٨٤١ - ١٨٨٩) وسلطان محمد بايْموخا ڤيدوف (؟ - ١٨٩٦) ووأباي كونونبا ييف (١٨٤٥ - ١٩٠٤). وكانوا جميعاً قد تعلموا اللغة الروسية الى جانب لغة اوروبية أخرى. لكن سلطان تشوكان كان يعرف اللغات الروسية والالمانية والفرنسية والتركية والفارسية. وقد كان مولعاً بالمواضيع العلمية ونشر الكثير من المقالات في المجلات العلمية. وقد خدم - كما خدم غيره، في الجيش الروسي. وكونونباييف نقل الكثير من كتابات الكاتب الروسي بوشكين وغيره الى اللغة الوطنية.

لكن الذي تميز عمله عن غيره، لأنه اتصل بالتعليم، فهو أَلتِنْسارين. فبعد ان تقلب في وظائف مختلفة، ادارية مدنية، انصرف الى التعليم (١٨٧٩ - ١٨٨٩)، فأنشأ عدداً من المدارس في الولاية (تورغاي) منها: أربع مدارس مركزية ابتدائية للتلاميذ من الروس والقازاق، وأوجد دوراً لإقامة التلاميذ القازاق القادمين من أماكن بعيدة. وكانت هناك مدارس للتعليم الابتدائي العالي ينتقل اليها الطلاب النجباء. وقد أُتمَّ العمل بعده بحيث أصبحت ولاية تورغاي تحتوي (سنة ١٨٩٧) على إحدى وسبعين مدرسة، فيها ألفان من التلاميذ، بينهم اثنتان وخمسون فتاة. وهؤلاء كن يقمن في دور سكن بنيت لهن خصيصاً.

لكن حلم التعاون الذي راود النخبة القازاقية كان قصير الأجل. ذلك لأن الارض الخصبة الطيبة في السهوب القازاقية كانت جذابة للروس. ففي سنة ١٨٩١ - ١٨٩٢ جاء البلاد قرابة مليون فلاح روسي واستقروا في منطقة كرغيزيا، فأحدث ذلك نقصاً في الأنعام والأبقار، التي خسرت مراعيها، وهبوطاً في مستوى المعيشة بين القبائل

هناك. وأصبحت التحرشات والمناوشات أموراً يومية. واستمر ذلك حتى وقع الانفجار الكبير سنة ١٩١٦. في تلك السنة جمعت الحكومة جماعات من شباب القازاق والأوزبكيين، ممن لم يكونوا يجوز ان يجندوا. وهؤلاء لم يرسلوا الى الجيش، بل الى مجمعات العمال للقيام بأعمال «السخرة». فقامت المنطقة بأسرها احتجاجاً، فكانت ثورة وطنية في أبعادها. وقد قتل عشرات الآلاف من القازاق ومن المستوطنين، كما لجأ نحو ٣٠٠,٠٠٠ من أهل القبائل الى الصين.

وحتى قبل وصول المستوطنين، فقد لوحظ ان أثر عملية «التقارب» هذه كان ضئيلاً ومحدوداً. ذلك بأن الدافع الى ذلك كله كان النظرة النفعية من جهة الروس ومن جهة القازاق.

الا أن ما يجب أن يذكر، هو ان هذه النخبة التي أشرنا اليها ظلت قوية في ايمانها. فقد كانت تستهدي بالاسلام الذي امتزج عندها بالشعور الوطني امتزاجاً قوياً.

والمهم ان رياح التغيير وصلت آسية الوسطى. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ التململ يعتور الشعب، ولعله كان امتداداً لظهور الحركات القومية في اوروبة، والتي انتقلت الى تلك الجهات عبر روسيا نفسها. وكان هناك تحرّك ضد الحكم الاجنبي الذي كانت آسية الوسطى تعاني منه. لقد كانت الحركة بطيئة، بسبب المسافات الشاسعة، لكنها كانت آخذة في التسارع مع الوقت.

والتتار الذين كانوا قد هُجروا من بلادهم من قبلُ، ومن المدن خاصة، أنشأوا في دور هجرتهم في آسية الوسطى «بورجوازية» تجارية قوامها النبلاء الذين انتزعت منهم أراضيهم، ومهرة الصناع. وكانت هذه الجماعات تنتشر شرقاً، بحيث أصبح التتار عنصرَ شتاتٍ، قوي نافع. وكانت هذه البورجوازية التجارية ترعى شوون النابهين من هؤلاء خاصة.

اتجه الروس، في أواخر القرن الثامن عشر الى كسب من تبقى من نبلاء التتار ومن استقر من تجارهم الى جانبهم، فأعطي الفريقان حقوقاً مساوية لحقوق الروس، كل في الحدود التي يسمح بها الفريق المقابل. وقد أفاد هؤلاء التجار من فترة امتدت نحو قرن من الزمان فنمّوا ثرواتهم وركزوا وجودهم اجتماعياً وفكرياً وقياديّاً (أحياناً) في أماكن كثيرة.

وهؤلاء التتار، مع أنهم تقاسموا والروس هذه السياسة، ظل للإسلام في نفوسهم الموقع الأول. وكانوا يشعرون بواجبهم نحو «أمتهم» شعوراً قوياً، لذلك كانوا حماة «متنوّرين» للمصلحين ورعاة صادقين لحركات هؤلاء المصلحين. ويرى بعض الباحثين انه لولا هذه الفئة من التتار لما قامت حركات اصلاحية أو نهضة في القرن التاسع عشر.

فلما عاد الروس عن السياسة الحكيمة، التي مكّنت للتتار النجاح التجاري، وذلك لما أتموا فتح آسية الوسطى في أواخر القرن التاسع عشر، وأصبح بإمكانهم ان يصلوا كتجار الى الأسواق ذاتها متخطين التجار التتار، أدرك التتار الخطر الذي يحوق بهم. فمثل هذا التصرف الجديد كان يعرّض وضعهم المادي وكيانهم الوطني للخطر. فنشطوا لمقاومة ذلك، فكانت الحركة الاصلاحية من النتائج المباشرة لهذا الشعور. وأدرك المسلمون انهم إذا بغوا الحياة، كان عليهم ان ينشّطوا حياتهم الثقافية المتأخرة، كي يمكنهم ان يوفقوا بين الاسلام والتقدم.

كان ثمة فئة عُرِفَت بالعزم الصادق والجرأة المتناهية والادراك العميق للمشكلات والأوضاع، هي التي تصدت لإحياء الفكر الديني الاسلامي ببعث الحياة فيه، ومن ثم تنشيط المجتمع بكامله. وكان في الطليعة أبو نصر خِسْرَوي، اوكُرْ سوي، (١٧٨٣ ـ ١٨١٣)، من برجوازية بخارى.

أبو نصر من متخرجي مدارس بخارى التقليدية، ولكنه كان يدرك، بثاقب بصره، ان مجتمع بخارى يحتاج الى تطوير وتحديث. فوجه نقداً شديداً الى ما سماه «التحجر في تفكير رجال الدين التقليديين»، وإلى المتصوفة الذين أخرجوا التصوف عن اطاره الأصلي. ودعا جماعته الى وجوب التحرر من ربقة المتزمتين من رجال الدين، والجهلة ممن يدعي الحفاظ على الاسلام.

اتهم أبو نصر بالكفر وحكم عليه بالاعدام أيام أمير بخارى حيدر (١٨٠٠ - ١٨٢٦). لكنه أفلت من العقاب.

وقد انتشرت دعوته، التي جاءت مبكرة، في نطاق محدود، لكن عمله كان اللبنة الأولى في العملية الاصلاحية الاسلامية الأولى.

كان خليفته، إذا جاز التعبير، شهاب الدين مَرْجاني (١٨١٨ ـ ١٨٩٩)، وهو تتاري قازاني الأصل، وكان يقيم في بخارى. وشهاب الدين مؤرخ لتتار الفولغا، وكان كلامياً عارفاً بأصول العلم. وكانت نزعته الى التطور قوية؛ وقد وضع منهاجاً للإصلاح، أصبح، مع بعض التعديل، أساساً لمن جاء بعده. والمنهاج يتكون من نقاط ست هي:

أولاً ـ الدعوة الى حرية الاجتهاد، فلم يقبل بإقفال باب الاجتهاد. بل انه كان يرى ان على كل فرد أن يكتشف بنفسه المعاني الأصلية الواردة في القرآن الكريم.

ثانياً ـ كان يرى أنه يتوجب على الجماعة (الاسلامية) ان تقلع عن التقليد الأعمى وعن تأييد أولئك الذين يتمسكون به على أنه أصل من أصول الشرع.

ثالثاً ـ يتوجب على المدرسة ان تتخلص من الكتب التي تحتوي على أفكار فلسفية محافظة أو جامدة ويدعي أصحابها أنها اسلامية أصيلة.

رابعاً ـ يجب ان تضيف المدرسة الى مواد التعليم فيها تفسير القرآن الكريم، لا حفظه غيباً فقط، ودراسة الحديث الشريف والتاريخ الاسلامي، كي يتعرف المسلمون

الى انجازاتهم الكبيرة عبر التاريخ.

خامساً ـ يجب ان يدخل المدرسة تدريس العلوم واللغة الروسية.

سادساً ـ العودة الى الاسلام الصحيح على ما عُرِفَ في عصوره الأولى، وإلى الثقافة الاسلامية الحية الأصيلة.

ومرجاني، الذي كان يدعو الى الحداثة، كان، في الوقت نفسه، يشاطر الشيخ محمد بن عبد الوهاب دعوته الى فضائل الاسلام الأول، كما كان يشاطر مصلحين آخرين في الرأي القائل بأن الاسلام علق به الكثير من الزوائد عبر العصور، لذلك يجب تخليصه منها.

كان مَرْجاني يقول بأن الاسلام، أصلاً، دين نقي ديناميكي منفتح لكل الآراء، لكنه، مع مرور الزمن، حُوِّل عن صيغته الأصلية، بسبب ما أصاب العاملين فيه من تعصب وانكماش.

وكان من الطبيعي أن يقف المحافظون من رجال الدين لمرجاني بالمرصاد، وأن يقاوموه ويتهموه بالكفر. وقد حرضوا عليه السلطات الحكومية فلم يؤخذ بأي من بنود برنامجه المتعلقة بالمدرسة منهاجاً ومواد. وظلت آراء الرجل مقصورة على عدد ضئيل من الأتباع.

وقد تقدم عبد القيوم ناصري، أحد مؤيدي خسروي ومرجاني في اصلاح التعليم، بالاهتمام باللغة التتارية من حيث تسهيل قواعدها وضبط أصولها.

لكن اصلاح التعليم كان بحاجة الى عزم أقوى وأصلب. وهذا ينقلنا الى زعيم تتاري آخر هو اسماعيل بك غاسبرينسكي اوغاسبيرالي (١٨٥١ ـ ١٩١٤)، وهو تتتاري من شبه جزيرة القرم.

درس اسماعيل بك في المدرسة التقليدية ثم في مدرسة روسية، وقضى وقتاً طويلاً في فرنسة وتركية. ولما عاد الى بلده بفچه سراي (١٨٧٧) انصرف بكليته الى شؤون التعليم مهتماً في الدرجة الأولى بإصلاح التعليم، أو على الأصح بتحريره من قيود التقليد وسيطرة رجال الدين. وقد أطلق على ما وصل اليه اسم «أصول جديد»، ثم عرف منهاجه بأكمله، التعليمي والاصلاحي الاسلامي، باسم جديد (ولنسمه نحن «الجديديّة»).

كانت المدرسة الاولى التي فتحها وأدخل فيها أسلوبه ومنهاجه الجديدين في مدينته (١٨٨٣). فقد خرج فيها عن النهج القديم من حيث اسلوب الحفظ غير المفهوم للتلاميذ، ومن حيث مادة التعليم التي كانت تعتمد في تعليم القرآن الكريم القراءة والحفظ غيباً دون فهم، أما المواد الدينية الأخرى فقد رآها اسماعيل بك جامدة لا حياة فيها.

فاختار لمدرسته الجديدة النموذج الاوروبي الذي عرفه في فرنسة. وبذلك أصبح

تعليم القراءة والكتابة يسير على خطة شائقة واضحة. وأدخل تحسيناً على تعليم اللغة العربية، وهي اللغة التي كانت تعلم في كل مدرسة اسلامية. وأضاف، الى مواد التدريس، الرياضيات والتاريخ والجغرافية واللغة الروسية.

كان التلميذ قبلاً يقضي سنوات في المدرسة التقليدية ويتعلم الاشياء كالببغاء، بحيث أنه كان ينسى ما تعلمه فيما بعد، لأن هذا الذي قبسه لم يكن ينفعه في حياته، في التجارة مثلاً. لكن بعد ان أدخل اسماعيل غاسبرينسكي الأساليب الحديثة في التعليم والمادة الإضافية في البرامج، أصبح التلميذ، بعد تخرجه في المدرسة، يفيد مما تعلمه. لذلك لم يكن يعود الى «الأميّة».

ومع أهمية هذا العمل التربوي، فإن اسماعيل بك قام بأمور أكبر من هذا وأعم. فالرجل يعتبر المحرك الحقيقي لحركة الإحياء الديني بين مسلمي روسيا. ذلك لأنه كان عملياً ديناميكياً يتابع مشاريعه في كل نقطة يصل اليها. ويمكن اجمال منهاجه في نقاط ثلاث: أولها، اعتبار جميع الشعوب التركية، من البلقان الى الصين، «أمة» واحدة، وأن ما يربط بينها، فضلاً عن الأصل العنصري المشترك، ايديولوجية قومية مشتركة بسبب «وحدة» الثقافة أصلاً، ولغة تركية واحدة، يمكن صقلها بحيث تصبح لغة أدبية.

والنقطة الثانية عند اسماعيل بك هي أنه من الضروري أن يُثار الوعي الثقافي والسياسي بين المسلمين. أما النقطة الثالثة فهي التوفيق بين الاسلام والحياة الحديثة. وهذه كانت، كما رأينا قبلاً وسنرى فيما بعد، واحدة من المشكلات الكبرى التي واجهها جميع المصلحين المسلمين.

كان غاسبرينسكي يعزو جذور الأزمة الاسلامية الى الجمود داخل الجماعة الاسلامية من جهة، وإلى الظلم الذي كانت هذه الجماعة تقع فريسة له. والأول داخلي، أما الثاني فخارجي. لذلك فإنه كان ينحو باللائمة على رجال الدين المحافظين الجامدين المستأثرين بالنفوذ لأنهم السبب في وصول المسلمين الى الحالة الأولى؛ وكان يلوم النظام القيصري بسبب ظلم حكامه وتعسّفهم وضيق آفاقهم.

وكان يرى ان اصلاح التعليم يؤدي الى التخلص من أسباب الشؤون الاسلامية الداخلية. أما الروس فلا بد من مقارعتهم، عندما يصبح ذلك ممكناً، للتخلص منهم.

كان اسماعيل بك غاسبرينسكي يتفق مع جمال الدين الافغاني بأن العلاقات بين الاسلام والغرب لا يجوز ان تستمر على ما هي عليه من سلبية وعقم. فعلى المسلمين ان ينقلوا أموراً كثيرة عن الغرب لأنها قد تساعدهم في حل مشكلاتهم الداخلية.

وقد أنشأ اسماعيل بك جريدة ترجمان، التي ظلت منذ انشائها [سنة ١٨٨٢] حتى وفاة منشئها [١٩١٤] منبره الاصلاحي الأساسي. فقضايا المسلمين وأمور توعيتهم في النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية، وشؤونهم الدينية العامة والخاصة، كانت مواضيع يتطرق اليها باستمرار. كما دعا المسلمين الى الوحدة والعمل

على الاستقلال. وقد كانت دعوته فيها الكثير من حرارة الايمان وقوته. فالاسلام، في نظره، هو سبيل الخلاص الشخصي، وهو، بالنسبة للجماعة، العروة الوثقى، لا انفصام لها.

كان بين دعوة اسماعيل بك للجامعة التركية وبين الدعوة الى الجامعة العثمانية شيء من التضارب. فدعوته قومية اسلامية، أما الثانية فدعوة سياسية لا عقيدة أساسية تحكمها. لكن لما خلع عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩)، وخفت صوت الجامعة العثمانية وقام محله الداعون الى الجامعة التركية (القومية الطورانية)، التقت هذه بأفكار غاسبرينسكي.

ويبدو من بعض التقارير والدراسات التي وضعت حول المسلمين في روسيا والجامعة الاسلامية أنهم كانوا يعتمدون الدعوة الى الجامعة التركية (أو القومية التركية) مع الاسلام، لكن ليس مع الجامعة الاسلامية التي كانت بعيدة عنهم.

وسنعود الى المدارس «الجديدة» ثانية، لارتباطها العضوي بحركات الاصلاح في بخارى.

مرت بنّا اشارة الى الثورة الروسية (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧). ومع ان المسلمين كانوا، على العموم خارجها، فإن الآراء اللبرالية التي رافقتها والتي أخذت في الانتشار في روسيا وصلت، بشكل أو بآخر، حتى الى آسية الوسطى، ومن ثم فقد أخذت سبيلها الى برامج الاصلاح التي خُطِّطَ لها.

على أنه يجدر بنا أن نتناول الآن المؤتمرات الاسلامية الثلاثة التي عقدت في سنتي ١٩٠٥ و١٩٠٦، لارتباطها بالحركات الاصلاحية الاسلامية.

عقد المؤتمر الأول «لجميع مسلمي روسيا» بين ١٥ و٢٨ آب/ اغسطوس سنة ١٩٠٥ بصفة «غير قانونية» في نِشني نوفغورود في سفينة كانت راسية في نهر اوكا. وقد تناول المؤتمر تطلعات المسلمين في الامبراطورية الروسية ودرسها، ونظم ما عرف باسم «الحزب العام للمسلمين الروس» (أي المقيمين في روسيا)، كي يقوم هذا بالاهتمام بالمطالب والغايات للمسلمين.

ثم عقد المؤتمر الثاني «لجميع مسلمي روسيا» في سنت بطرسبورغ بصفة «سرّية» بين ١٣ و٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٠٦. وقرر المجتمعون ان يتعاونوا مع المعتدلين في الأحزاب السياسية الروسية التي كانت يومها في طور التشكيل. وصدر عن المؤتمر قرار بأنه هو يمثل «اتحاد المسلمين في روسيا» بكاملها، على أن يكون هؤلاء المسلمون مُنَظَّمين في مؤسسة مركزية واحدة، وست عشر مركزاً اقليمياً. وخطط المؤتمر الثاني لمؤتمرات عامة (لجميع المسلمين) سنوية تالية. وقد تنبه مؤرخو هذه المؤتمرات وما يشبهها إلى أنها قد اتخذت المؤتمر الهندي الوطني (الذي اجتمع لأول مرة سنة ١٨٨٥) نموذجاً لها.

يجدر بنا ان نذكر ان مجلس (برلمان) الدوما (القيصري) الذي برز الى الوجود سنة ١٩٠٥ كان فيه للمسلمين ستة وثلاثون مقعداً فقط، وهو عدد أصغر بكثير من نسبة عددهم الى عدد سكان روسيا. وعلى كل، فقد أصبح لهم منبر يمكن ان يُسمِعوا منه صوتهم. لكن لما جرت الانتخابات كانت النتيجة ان أربعة وعشرين نائباً فقط هم الذين انتخبوا، (وذلك بسبب تأخر وصول القرار الى المناطق البعيدة). وهؤلاء هم الذين حضروا اجتماع الدوما الأول (١٩٠٦). في هذا الاجتماع تصرف النواب المسلمون لا كنوّاب يمثلون المناطق التي انتخبوا فيها، بل ككفئة برلمانية مسلمة، وبذلك لفتوا الأنظار الى وجودهم وعرضوا الكثير من قضاياهم.

عقد المؤتمر الثالث «لجميع مسلمي روسيا» في نشني نوفغورود بين ١٦ و٢٦ آب/ اغسطوس سنة ١٩٠٦، وكان الاجتماع هذه المرة «مرخّصاً» به. وكانت الغاية منه وضع برنامج عمل «للحزب العام للمسلمين الروس» (الذي انشأه المؤتمر الأول). وقد أنشأ المؤتمرون «اتفاق (اتحاد) مسلمي روسيا»، ووضعوا له نظاماً وتنظيماً خاصين به. لكن انشاء الحزب لم تقبل به الدوائر المحافظة في الدولة، ولذلك لم يحصل على «رخصة» رسمية.

لما انعقد مجلس الدوما الثاني (١٩٠٧) كان فيه واحد وثلاثون مندوباً مسلماً. إلا ان هؤلاء اختلفوا فيما بينهم، وهذا أضعف شأنهم. على كل فقد حل الدوما. وبذلك انتهت المحاولة الروسية الأولى لإدخال النظام البرلماني الى البلاد.

هناك حدث آخر يجب ان نشير اليه لأن له علاقة ببعض الحركات التي قامت في روسيا، ومنها الحركات الاصلاحية والثورات. ذلك هو انكسار روسيا في حربها مع اليابان (١٩٠٤). أهمية هذا الحادث تكمن في أمرين: الأول، ان روسيا القيصرية القوية العاتية هزمتها دولة صغيرة. لذلك فإن القيام بثورة ضد روسيا أصبح أمراً ممكناً. بل هناك من ذهب الى الظن بان الاستعمار أصبح على وشك الزوال. أما الأمر الثاني فهو ان الدولة التي انتصرت على روسيا هي دولة اسيوية.

وخلاصة القول هو ان الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤) وثورة روسيا (١٩٠٥ - ١٩٠٧) والمؤتمرات الاسلامية الثلاثة، كان لها أثر في تسريع الحركات الاصلاحية، على ما سنرى.

٦ ـ وأخيراً

مر بنا خبر أبو نصر خسروي وشهاب الدين مرجاني اللذين لفتا سكان بخارى الى تأخر رجال الدين وجمودهم، وذلك بالنقد اللاذع الذي وجهاه اليهم. وقد أصبح من العسير لأهل بخارى ان يعاودهم ما كانوا قد ألفوه من اطمئنان في حياتهم الروحية بعد انتشار آراء هذين المصلحين. وقد جاء أحمد مخدوم دانش/ او دونش (١٨٢٧ - ١٨٩٧) مضيفاً الى ما علماه ايضاحاً للفرق بين الجماعة الاسلامية والغرب، من حيث تقدم الثاني وتأخر الأولى. والرجل واحد من ذوي العقل الراجح بين المبكرين من رجال الاصلاح وأهل الفكر في آسية الوسطى. ويعتبر رائد جميع المصلحين في تركستان.

ولد دانش في بخارى وفيها توفي. وقد كان طبيباً وشاعراً وموسيقياً ورساماً وفلكياً وعالماً في الرياضيات وخطاطاً بارعاً. وقد وصفه صدر الدين عيني، أحد كبار الادباء في ذلك الوقت، بأنه كان ألمع نجم سطع في سماء بخارى الادكن. وقد ترأس دانش ثلاث بعثات رسمية الى سنت بطرسبورغ (بين سنتي ١٨٥٦ و١٨٧٠)، فأتاح له هذا أن يتعرف الى معالم الحضارة الروسية، وأن يدرك الفرق الكبير بين حضارة تنمو وتسير قدماً وبين دولة اسلامية تتفتت وتتحطم. وتعرّف في العاصمة الى أصحاب الفكر اللبرالي الذي كان قد انتشر يومها في المدينة الكبرى. وقارن في نفسه، بين البلد الذي ينمو فيه الفكر اللبرالي، ولو أنه ممنوع رسمياً، وبلده الذي يوسم فيه أي شخص يخرج عن الخط المرسوم، ولو قيد انملة، بالكفر. (وبهذه المناسبة فإن دانش نفسه اتهم بالكفر لما دعا الى إدخال دروس العلم الطبيعي في مناهج المدرسة في بخارى).

شغل دانش نفسه بالبحث عن البذور الأصلية للتأخر في بخارى. وقد هداه تفكيره الى ان محاولة الحصول على قدر من المال يزيد على الضرورة هي أم المصائب. اذ ان مثل هذا التصرف (وكان يقصد تصرف الامير) يؤدي الى الإضرار بالشعب، إذ يحرمه مقوم حياته الأساسي. وهكذا أثار دانش قضايا اجتماعية حول حرية الملكية الفردية، وحق الناس بالمساواة.

الى ذلك عالج المفكر قضية الإنسان ودوره بالنسبة الى ما يحدث في الكون. واعتبر الانسان مسؤولاً عن حياته وأعماله وأن له الحق في أن يتدبر وجوده وتصرفه.

فنفى عن الانسان أن يكون مجرد أداة تصرفها قوى غيبية، فيما يكون هو مستسلماً تماماً.

كان دانش عظيم العناية بالعلوم، وبالفلك بشكل خاص. وهذا أثار حوله الكثير من الريبة والشك بين أفراد السلطات الدينية والمدنية. فقد أدرك الفريقان ان آراءه ستنتهي الى النيل منهما ومن نفوذهما. وقد اكتشفت السلطات الدينية في بخارى ان دانش كان يحتفظ في مسكنه بخرط وكرات أرضية وآلات رصد، واتهم بأنه يدّعي ان هذه الآلات تمكنه من أن يبصر أموراً لا يدركها البشر ويكتشف اشياء مستقلة عما تدركه وتفعله الجماعة الاسلامية. فهو اذن يعمل في سبيل الشيطان. وقد علقت هيلين دانكوس على هذا بقولها: «وهكذا فإنه في بلاد اولوغ بك، وفي نهاية القرن التاسع عشر، يعتبر علم الفلك مجموعة من الآراء التي صنعها الشيطان».

وبهذه المناسبة فإن اولوغ بك، وهو أحد سلاطين الدولة التيمورية (٨٥٠ ـ ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٧ ـ ١٤٤٩ م) كان هو نفسه عالماً فلكياً من الدرجة الأولى. وقد بنى في سمرقند، التي كانت عاصمة ملكه، مرصداً ضخماً لرصد الأفلاك. ولا تزال آثار المرصد ماثلة للعيان الى الآن. وقد أتيحت لنا زيارته سنة ١٩٧٥.

على ان دانش لم يكتف بالنقد اللاذع للتعليم المدرسي التقليدي الذي كان شائعاً يومها، ولا بلوم رجال الدين على مواقفهم الجامدة، بل كانت له مواقف ايجابية بناءة. فهو كان يحب لجماعته ان تنتقل من حالة التشتت الى الحال التي كانت عليها من قبل أيام ازدهار بخارى بالذات، إذ كانت واحداً من أكبر مراكز الحياة العلمية في العالم الاسلامي في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي. ولأن بخارى كانت دولة مستقلة (بحسب اتفاق سنة ١٨٧٣)، فقد كان باستطاعة دانش، ان يشير الى نواحي القوة في حياتها، وان يطالب الحكام بتطوير هذه الناحية.

لما نعى دانش على قومه تقاعسهم عن التعرف الى ما عند الجماعات المتقدمة من علم ومدنية، كان يقصد الروس بذلك. لذلك فإنه دعا الى تعلم اللغة الروسية كي يشاطروا القوم معرفتهم لهذه الثقافة الديناميكية، وليطلعوا على أسرار العلم وإنجازات اوروبة المادية.

وتعود أهمية دانش الى أنه كان يستطيع ان يُجاري تطور الأفكار الأوروبية المعاصرة وسيرها وحركتها، فكان يدرك ما يدعو اليه تماماً؛ ولم يكن كغيره ممن يقف اهتمامه عند حدود الجماعة الاسلامية وقضايا الاسلام وشجونه.

كان دانش أول من أثار، في آسية الوسطى، موقع الإنسان وحالته بالنسبة للأطر الاقتصادية والاجتماعية. هذه ناحية أخرى من نواحي الريادة في أعمال دانش وتفكيره.

شق دانش طريقاً سار عليه جميع دعاة الحركات الاصلاحية الذين جاءوا بعده.

وثمة شبه بين ما اثاره دانش وما دعا اليه جمال الدين الافغاني. لكن الذين درسوا حياة الرجلين وأعمالهما، انتهوا الى ان التشابه جاء متوازياً ومصادفة، ولم يكن متقاطعاً ولا متشابكاً.

أمل دانش بأن يتولى الامير نفسه دور المصلح في بخارى، فيكون أميراً مستبداً مستنيراً، يستعين بمجلس استشاري ممثل لجميع فئات الشعب، لا من رجال الدين فحسب، كما كانت الحالة، وان يختار الامير وزراء يقومون بتنفيذ الامور، ولكل وظيفة معينة معروفة. وأمّل دانس أيضاً ان تُصلَحَ شؤون المدارس فتخرج عن نظامها التقليدي القديم، وتتنقل الى نظام جديد وبرامج جديدة فيها تاريخ وأدب وعلوم طبيعية فضلاً عن الموضوعات الأصليه الدينية، وهي القرآن الكريم والشريعة والكلام والمنطق والغيبيات. وان يحسن أسلوب تدريس هذه الموضوعات أيضاً. فالطالب كان يقضي عشرين سنة أو أكثر وهو يقلبها ويقلبها ويقلبها ثم يخرج من المدرسة ولم يكتسب علماً حقيقياً، لأن مدرسيه أنفسهم لم يكونوا متضلعين من هذه الموضوعات.

لكن الأمير نفسه كان يخشى على نفوذه من هذه التعاليم الجديدة؛ فَتَمترَسَ خلف التقليد، ورفض التجديد.

كان ثمة فئة ـ ولو قليلة ـ تناصر دانش في حياته وتؤيد مواقفه، ثم عملت على نشر آرائه بعد وفاته. من هذه الفئة الشاعر عبد القادر سَفْدو (١٨٣٢ ـ ١٨٧٣) وشمس الدني شاهين (١٨٥٩ ـ ١٨٩٤) وميرزا هايت شاهبو (حول ١٨٥٠ ـ ١٩١٨) وزاكرجان فُرقاط (١٨٥٨ ـ ١٩٠٩) ومحمد علي مُقيمي (١٨٥٠ ـ ١٩٠٣). وكان لهذين الأخيرين، وهما شاعران، أثر أقوى من الآخرين. والاثنان من كوكَنْد (خوكَنْد). وقد نظم الأول قصيدة ذم فيها القائد الروسي، فاضطر الى ترك المدينة، فانتقل الى تركية ثم الى بلاد العرب وعاد أخيراً فاستقر في يَرَقند حيث توفي. أما مقيمي فقد قضى حياته في المدينة.

دعا فرقاط الشعب الى العمل على اتباع آراء دانش، وذلك بأن يستغل عبقريته وذكاءه للوصول الى مستوى العالم المعاصر، وان يفيد من نجاح روسيا، فيقلدها. ويمكن القول بأن شعر فرقاط كان له أثر في فتح باب لروح الحركة الاصلاحية كي تدخل شرق تركستان.

وكان مقيمي أشد في لوم رجال الدين وتقريعهم لأنهم كانوا يقفون حجر عثرة في طريق الحركات الاصلاحية. وكان يقول بأن هذا العالم التقليدي الذي نعيش فيه بحاجة الى أن يقلب رأساً على عقب.

كانت دعوة المصلح التتاري اسماعيل بك غاسبرينسكي لإصلاح نظام التعليم قد وجدت صدى في أماكن كثيرة، لكن بخارى ظلت، بسبب تخوف أميرها وتعصب رجال الدين فيها، بمنأى عن المدرسة الجديدة. وحتى المدارس الجديدة الأولى التي فتحت

في بخارى كانت خاصة بأبناء التتار المهاجرين في بخارى، ولم يدخلها تلاميذ أوزبكيون.

لكن حركة اسماعيل بك الاصلاحية، على ما تطورت فيما بعد، والتي سميت الجديديّة شملت أموراً أخرى غير اصلاح التعليم. وقد دخلت الجديدية دعوة الى بخارى بعيد منح تركية دستورها الأول (١٨٧٦) لما نشر اسماعيل بك كتيبه المشهور «الاسلام الروسي - آراء وتعليقات على ملاحظات مسلم». وهو الذي كان يحتوي، بشكل عام برنامجه الاصلاحي: تطوير التعليم وتحسينه والاهتمام بالجامعة التركية بالنسبة الى جميع الشعوب التركية، والعناية بتقدم المسلمين.

هذا الكتيب انتشر في تركستان انتشاراً كبيراً، وخاصة في طَشْقَنْد وسَمَرْقَنْد وبخارى. ولعلّ فكرة الجامعة التركية لقيت تجاوباً كبيراً في المنطقة.

لكن آراء اسماعيل بك ومناصريه ومؤيديه كانت تنتشر بين القراء عن طريق جريدة ترجُمان التي أنشأها سنة ١٨٨٢ وظل يحررها مع المساعدة من أولئك الذين كانوا يرون رأيه حتى وفاته سنة ١٩١٤. جريدة ترجمان اثارت جميع القضايا المتعلقة بالمسلمين في روسيا وحتى خارجها (وكانت مقروءة في تركستان)، وأهمها: الجامعة التركية، أي توحيد جميع الشعوب التركية في داخل روسيا في «أمة» واحدة، وتبسيط لغات هذه الشعوب واتخاذ لغة واحدة منها لغة للأمة، وتعليم اللغة العربية بشكل أفضل وعلى نطاق واسع، وتجديد الاسلام بالإيمان وبتخليصه من بعض الشكليات التي علقت به مع الزمن، والاقتباس من الحضارة الاوروبية على مقياس واسع.

كانت آراء جمال الدين الافغاني قد أخذت بالوصول الى بخارى عبر مجلة **قانون** (الفارسية). وكان لآراء الافغاني حول الجامعة الاسلامية صدى في نفس أمير بخارى، الذي كان يعتبر نفسه مؤهلاً ليكون مركز الثقل لمثل هذا التخطيط. ولأن الامير كان قد قبل فكرة الجامعة التركية، فهو، في رأي نفسه، صالح لتزعم الحركتين - أي مزجهما في شخصه وسلطانه!

وعليه، فإن بخارى أدركت، كما أدرك غيرها أيضاً، وذلك في مطلع القرن العشرين، أن القضية الاصلاحية الاسلامية - أي اصلاح الجماعة الاسلامية - لا يمكن ان تُجَزَّأ. فأزمة الاسلام هي أزمة الجماعة الاسلامية بكاملها. وحل هذه الأزمة كان يقتضي القيام ببناء جديد للعلاقات الاجتماعية والسياسية. وكانت قد قامت ثورتان في قطرين اسلاميين هما ايران (١٩٠٦) وتركية (١٩٠٩). لذلك التفت المصلحون ومؤيدوهم من المسلمين في روسيا الى هاتين الثورتين للحصول على النموذج الأنسب. وقد اعتبر النموذج التركي - الذي كانت تمثله تركية الفتاة - هو الأصلح. ومن هنا بدأت فكرة «بخارى الفتاة»، وهي التي كانت تستوعب **الجديدية** والتي احتوتها فيما بعد.

وحري بالذكر ان بخارى كانت أول الأمر مجمعاً لآراء مختلفة متنوعة متضاربة

متشابكة، بسبب وصولها الى المدينة من أشخاص متنوعين ومناطق متباينة؛ لكن بخارى أصبحت في أوائل القرن العشرين بوتقة امتزجت فيها الآراء واتخذت شكلاً شبه نهائي.

كانت جريدة ترجمان الوحيدة التي توفر المادة الصحيحة للقراء في امارة بخارى، وكانت تصدر باللغة التتارية، لكن بعد سنة ١٩٠٥، سنة الثورة الروسية التي فتحت الطرق، أخذت بخارى تتلقى صحفاً أخرى منها أُلْفَت (من سنت بطرسبورغ) ويُلدز ومعناها النجم (من قازان) وإرشاد (من باكو). ثم بدأت الصحف تظهر في تركستان، أولاً باللغة التتارية ثم بالأوزبكية منها: تَرَقّي (طشقند، ١٩٠٦) وخورشيد ومعناها الشمس (طشقند، ١٩٠٦) وتُجّار (طشقند ١٩٠٨). لكن هذه الصحف كلها توقفت عن الصدور بعد ظهورها بفترة قصيرة، بحيث أنه في سنة ١٩٠٨ لم يبق في تركستان جريدة واحدة.

يمكن إجمال الآراء والأفكار التي عالجتها هذه الصحف في هذه المدة القصيرة جداً، في الأمور التالية:

١ - دعوة مسلمي تركستان الى الانضمام الى اتفاق (اتحاد) المسلمين الذي نظّمه المؤتمر الاسلامي الثاني.

٢ - تأييد الحزب الدستوري - الديمقراطي، وهو حزب سياسي روسي، لأنه لبرالي، ولا يقبل بموقف روسيا التسلطي في امبراطوريتها.

٣ - مهاجمة الاوتوقراطية الروسية وكشف معايبها.

٤ - اصلاح الاسلام، وضمنا الجماعة الاسلامية.

٥ - تشجيع ارسال الطلاب المسلمين الى استانبول والاسكندرية والقاهرة ليتثقفوا في معاهدها كي يمكن اصلاح الشؤون الدينية والتعليمية على أيديهم. وإرسال طلاب من جهات روسيا الى بخارى ليكونوا صلة الوصل بين المسلمين.

ان هذه الصحف، التي لم تعمر سوى سنتين فقط، كان أثرها كبيراً. فإن هذه الآراء كانت تنتشر بين المثقفين وتناقش في المجتمع تحبيذاً وتأييداً ونقداً وتجريحاً. ولم تظل، على ما كان الوضع عليه في السابق، قضايا يُتَحَدَّث عنها في المدرسة فحسب.

لم تفتح مدرسة مُصَلّحَة (جديدة) لأبناء بخارى الأصليين إلا سنة ١٩٠٨، لما سمح الامير بذلك. ومع ذلك فإن هذه المدرسة نفسها أغلقت في أواخر سنة ١٩٠٩، وبأمر الأمير أيضاً.

ذلك بأن انشاء مدرسة مُصَلّحَة (جديدة) كان، بطبيعة تنظيم المدرسة وبرامجها، طعنة لرجال الدين المحافظين. لذلك وصفها هؤلاء بأنها لم تكن مدرسة اسلامية صحيحة؛ وان نظامها، بمجمله وتفصيله، فيه افتئات على الاسلام؛ وان تعليم الحساب

والجغرافية والعلوم الطبيعية مخالف للتقليد الاسلامي. بل انهم ذهبوا الى اتهام الذين أنشأوا هذه المدارس بأنهم فئة من المسلمين السيّئي النية والطوية.

لذلك فتحت مدارس مُصْلَحَة (جديدة) بشكل سري، ولكن خارج مدينة بخارى، وكان القائمون عليها اوزبكيين لا تتاراً. وأنشئت شركة اسمها **شَرِكَتْ ـ ي بُخَارى ـ ئي شريف** (١٩٠٩) كان عملها تأمين الكتب المدرسية اللازمة لهذه المدارس السرية، التي لم يكن يزيد تلاميذ المدرسة الواحدة منها على مئة تلميذ إلا نادراً. وقد قام اعضاء هذه الشركة بزيارة لبغجة سراي (مدينة اسماعيل بك غاسبرينسكي) واستانبول وسمرقند (حيث كان منوّر قارِي قد فتح مدرسة مصلحة (جديدة) وجرب كتباً جديدة خاصة بها). والكتب التي جمعها اعضاء الشركة طبعت في اورنبورغ في مطبعة مرتبطة بالمؤسسة .

ويمكن القول اجمالاً بأن العمل الجدي للحركة الاصلاحية في بخارى خطا يومها خطوة جبارة. فقد كانت هذه الشركة (وهي الى الجمعية أقرب) مكونة من عدد من أهل الفكر وكبار الاغنياء (فقد كان بينهم اثنان من كبار أصحاب الملايين منصوروف ومخدوم)، وقد أخذ الجميع العمل مأخذ الجد. ويمكن القول بأن انشاء هذه الشركة هو بدء تكون «بخارى الفتاة».

كان اعضاء الشركة، في تنقلاتهم وأسفارهم، لا يكتفون بالبحث عن الكتب المناسبة للمدارس المُصْلَحَة (الجديدة). كانوا دعاة للحركة الاصلاحية في تركستان، التي أصبح لها الآن هيئة منظمة هي التي تحتضنها؛ وكانوا يعودون من الخارج بآراء وأخبار عن الأعمال والحركات والتنظيمات الاصلاحية الاسلامية التي يتصلون بها.

وهكذا فإن الحركة الاصلاحية التي دخلت بخارى وقامت فيها في وقت متأخر عن أماكن أخرى، لم تلبث ان أصبحت خيرها تنظيماً وبنية.

ومع ان الجماعة كانت صغيرة نسبياً، فإنها أصبحت متكئاً ثابتاً ومرتكزاً قوياً للآراء التي كانت، حتى ذلك الوقت، قد ينقصها بعض الجلاء والوضوح والتحديد. وقد كان لقيام ثورتي ايران وتركية، واتخاذ البخاريين الثورة التركية (تركية الفتاة) نموذجاً، أمراً شجع على تمكين العمل من السير قدماً في بخارى.

وهنا طرأ تطور على الجديدية (الحركة الاصلاحية العامة) شيء كان ذا أهمية. كانت الجديدية، أول الأمر، حذرة في خطوها، مكتفية بالاصلاحات التربوية ومتلطّيةً بالمدرسين التتار، لكنها اتجهت سنة ١٩٠٩ بعزم وخطى وئيدة لتحقيق غاياتها الابعد، ومن ثم تحقيق ذاتها.

وكان من الطبيعي، وقد كانت تركية الفتاة تتبع تنظيماً سرياً، ان تسير الجديدية على الخطة نفسها، فتكون أعمالها وتنظيماتها سرية. فمن ذلك انها أنشأت جمعية اسمها «جمعِيَت ـ ي تربِيَت ـ ى أطفال (أواخر سنة ١٩١٠)، وكان المشرفون عليها هم

الاشخاص أنفسهم الذين كانوا قد أنشأوا «شركت» السابقة الذكر. وكانت ثمة جمعية قد أنشئت في استانبول باسم «بخارى تعميم ـ ي معارف» (سنة ١٩٠٩) بقصد تيسير نشر المعرفة بين الناس عامة وتأمين ارسال طلاب الى العاصمة التركية للدرس هناك. وكان الناطق باسم الجمعية والمنظم لها عبد الرؤوف فِتْرات (١٨٨٥؟ ـ ١٩٣٨) الذي كان قد غادر مدينته بخارى الى استانبول واستقر هناك بعض الوقت (بدءاً من سنة ١٩١٠).

هذه المؤسسات الثلاث، الشركة والجمعيتان، يجب، في رأينا، اعتبارها واجهات ثلاث لمؤسسة واحدة أو منظمة واحدة. وقد كانت تعمل في بخارى كجمعية سرية بالمعنى الدقيق. فقد كان هناك نظام صارم لاختيار الاعضاء، الذين لم يكونوا كثيرين على كل حال، (معظم الذين تحدثوا عن هذه المؤسسة أشاروا الى ان العدد لم يتجاوز الخمسين). وكانت اجتماعات الاعضاء قليلة وتعقد بمنتهى السرية. وكان فِتْرات وعثمان خودجاييف من كبار المهتمين بها. ولنذكر دائماً ان التجار الاغنياء كانوا يتكفلون بالنفقات جميعها. وهذا مكن للجمعية من العمل باستمرار.

جمع الباحثون معلومات مكنتهم من تبيُّنِ منهاج الجمعية، الأمر الذي يمكن تلخيصه بما يلي:

١ ـ تعليم السكان، وذلك عن طريق فتح المدارس وإنشاء الصحف وتأمين الكتب اللازمة للمدارس والجمهور. وتثقيف الجمهور بواسطة عقد اجتماعات مفتوحة للمناقشة.

٢ ـ مقاومة رجال الدين المتزمتين، وتبديلهم، تمهيداً لتبديل التفكير الاسلامي الجامد (عبر المدرسة).

٣ ـ اظهار عيوب الادارة المهترئة بغية اصلاحها.

٤ ـ العمل على جعل بخارى دولة حديثة. وهذا يقتضي القيام بأمور كثيرة، لكن أهمها فصل الأموال العامة عن أموال الأمير الخاصة، بحيث تنفق الأولى في شؤون الدولة لا حسب رغبات الأمير.

٥ ـ يجب وضع حد نهائي للخصومة بين الطوائف الدينية الاسلامية. (في سنة ١٩١٠ قامت فتنة في بخارى بين السنّة والشيعة، أزهقت فيها أرواح كثيرة).

وهكذا فإن الحركات الاصلاحية التي شغل بها الكثيرون، والتي كانت تتناول الناحيتين الدينية والتعليمية، ضمت اليها، بدءاً من سنة ١٩١٠، وعلى أيدي رجال الجديدية العناية بإصلاح الدولة.

ومع ان الجمعيّة ـ بخارى الفتاة ـ لم يكن لها زعماء أو قادة معروفون، وذلك محافظة على سريتها، فإن عبد الرؤوف فِتْرات أصبح، منذ حوالى سنة ١٩١٣ المنظِّر الأول للحركة بأكملها. بل لعله من الأنسب ان نشير اليه على أنه فيلسوفها.

ومع ان الجمعية كانت سرية في تنظيمها وسيرها، فقد كانت تعقد اجتماعات عامة علنية كثيرة في القرى والدساكر والمدن، يديرها المشرفون على الجمعية من وراء الكواليس. وكانت تقرأ في هذه الاجتماعات الكتب والصحف التي يمكن الحصول عليها وتشرح محتوياتها وتفسر آراء أصحابها. وكان الذين يمكنهم ذلك، يشرحون، أهداف الجمعية بكثير من الحيطة، حتى لا يقعوا تحت طائلة المسؤولية أو العقاب.

ومن الصحف التي قرئت في كثير من اللقاءات اثنتان انشأتهما الجمعية نفسها: واحدة كانت باللغة الفارسية اسمها بخارى ـ ئي شريف (أي بخارى النبيلة)، والثانية كانت باللغة الأوزبكية واسمها طوران. (وقد كان طاقم التحرير للجريدتين واحداً). أما الصحف التي كانت تأتي من الخارج فمنها: صِراط ـ ي مستقيم (من تركية) وحبل المتين (من الهند) وسراج الأخبار (من أفغانستان) وقانون (من إيران).

وقد أنشئت مكتبات لإعارة الكتب في أماكن متعددة.

أما الكتب التي قرئت في هذه الاجتماعات فمنها: «سياهتامه ـ ي ابرهيم بك» (أي قصة سياحة ابرهيم بك) بالفارسية. وكانت كتب فِتْرات نفسه شائعة في هذه المناسبات. وأهم كتبه مُناظَرَت (والكتاب مناقشة طويلة بين رجل حديث متطور وآخر محافظ. وفيه يضع فترات النهجين الواحد أمام الآخر بقصد تبيين الأفضلية). وثمة كتاب آخر اسمه بيانات ـ ي سياه ـ ي هِنْدي (أي قصص رحالة هندي). وفيه يشرح فترات آراءه بشكل قصة مروية عن لسان رجل غريب. ولِفْترات أيضاً كتاب شعري اسمه صَيْحَتْ. أما الكتاب الرابع فهو راهبار ـ ي بخات (أي دليل النجاة).

ومن الطريف ان الكتب والصحف كانت تنسخ وتوزع في الامارة، اذ لم يكن الطبع دوماً متيسراً.

وباعتبار ان فترات كان هو المحرك الرئيسي لجميع المحاولات والنشاطات، ومنظِّر الحركة الاصلاحية، فإنه من حقه علينا ان نشير الى بعض آرائه هنا.

بدأ فِتْرات بدرس الأزمة التي كانت بخارى تتخبط فيها، وباعتبارها أزمة جماعة اسلامية محدودة المدى. لكنه لم يلبث ان أدرك ان الامر لا يتضح الا إذا تجاوز فترات بلاده ونظر الى العالم الاسلامي نظرة عامة. فالأزمة اسلامية وتشمل المسلمين جميعاً أينما كانوا. فالجماعة الاسلامية بكاملها انهارت انهياراً روحياً داخلياً فتخبطت، وتحطمت سياسياً. ومن ثم تغلبت الجماعات الاجنبية على العالم الاسلامي. وهو إذ يصف هاتين الناحيتين ويحللهما تحليلاً وافياً، يفرد فصلاً لعظمة بخارى القديمة حضارتها وعلمها. وكأنه يريد من هذا ان يكون درساً يشحذ همم القوم ويدفعهم الى العمل الجدي.

وفي تعليله للأسباب التي أدت الى تفاقم الأزمة، يصل الى نتيجة سُبِقَ اليها، لكنه يوليها عناية تحليلية دقيقة: وهي ان رجال الدين المتحجرين هم سبب الوصول الى

هذه الحالة. فهم الذين «استبدلوا الايمان الذي جاء به النبي (ص) بمفاهيم دينية جامدة معادية للديناميكية الأصيلة في الاسلام، وللتطور».

والعلاج: لا بد من إحياء الاسلام بالعودة به الى أصوله. هذا هو الذي يؤدي الى تحرير المسلمين روحياً (داخلياً) وسياسياً (خارجياً). فالمسلم الصالح هو المواطن الصالح في المواطنية الاسلامية. وعندها تتقوى الجماعة الاسلامية وتخلص نفسها من براثن المستعمر.

وفِتْرات الذي قام بنشاطه في العقدين الأول والثاني من القرن العشرين، كان قد عرف الكثير عن الذين سبقوه من دعاة الاصلاح (الذين تحدثنا عنهم قبلاً). لذلك ليس من المستغرب أبداً أنه يتفق مثلاً مع الافغاني وغيره في ضرورة نشر السلام بين الطوائف الاسلامية؛ وفي ان إحياء الاسلام يقوم به المسلمون أنفسهم ولا يأتي من الخارج؛ وفي وجوب الخروج عن روح التسليم والانصراف الى العمل الجدي؛ وفي ضرورة وضع تاريخ للمسلمين وإنجازاتهم الحضارية لتذكيرهم بماضيهم استحثاثا للهمم.

والذين درسوا فِتْرات وأعماله يرون ان أصالته ليست في آرائه فحسب، بل في حرارة دعوته ولهجته الثورية في الحديث عن الاصلاح وعن الجامعة الاسلامية، وفي موقفه الصارم من الغرب ـ فلا هوادة معه ولا عودة اليه.

قبيل الحرب العالمية بفترة وجيزة، كان أمير بخارى (عليم خان، ١٩١٠ ـ ١٩٢٠) يتأرجح بين مجاراة التقدم والتطور وبين الاحتفاظ بالأوضاع كما هي. وأخيراً لما دارت رحى الحرب (١٩١٤) تخلّى عن كلّ آرائه اللبرالية، وتَمَتْرَسَ داخل قوقعته.

ومن ثم فإن زعماء **الجديدية** تركوا بخارى إما نفياً أو هرباً، الى مناطق أخرى في تركستان. وهناك انضموا الى اخوان لهم جاءوا من تركية لمواصلة الجهاد.

سنوات الحرب العالمية الأولى (التي دامت بالنسبة لروسيا ما يزيد على سنتين فقط)، ثم قيام ثورتي سنة ١٩١٧ في روسيا وامتداداتها ثم احتلال الجيش الاحمر للبلاد بأكملها وإنشاء الجمهوريات السوفيتية ـ كل هذه تخرج عن نطاق بحثنا، لأن الحكم الذي قام في الاتحاد السوفييتي كان محكماً بحيث انه لم يسمح لمصلح أو مفكر أو ما الى ذلك ان ينطق إلا عن الهوى.

وقد اشترك عبد الرؤوف فترات في أكثر ما أصاب البلاد. لكنه لما رفض القبول بما أمر به، حكم عليه بالاعدام سنة ١٩٣٨، ونفذ الحكم فيه!.


الأهلية للنشر والتوزيع